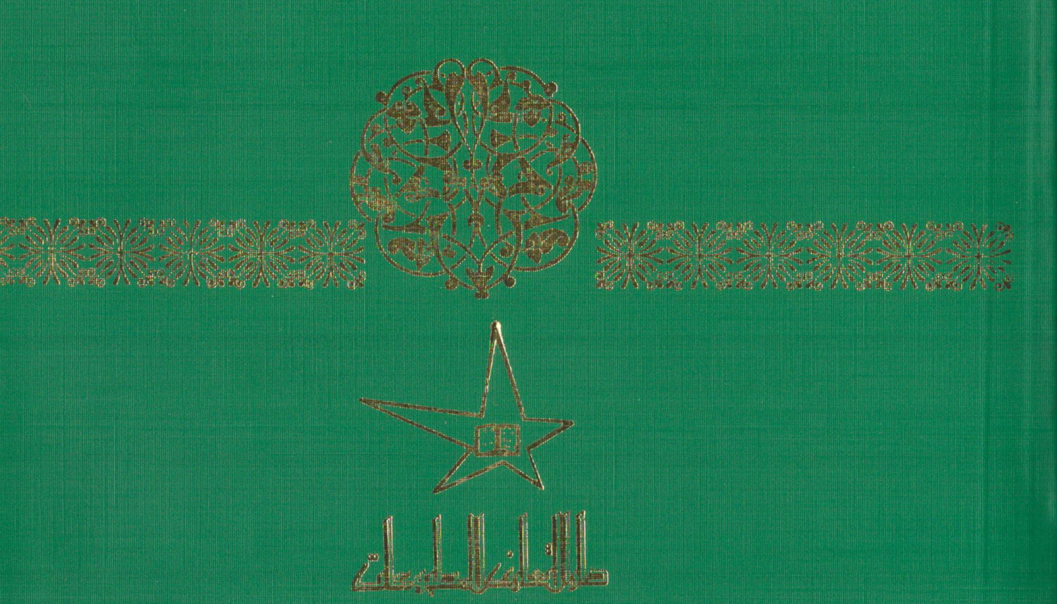
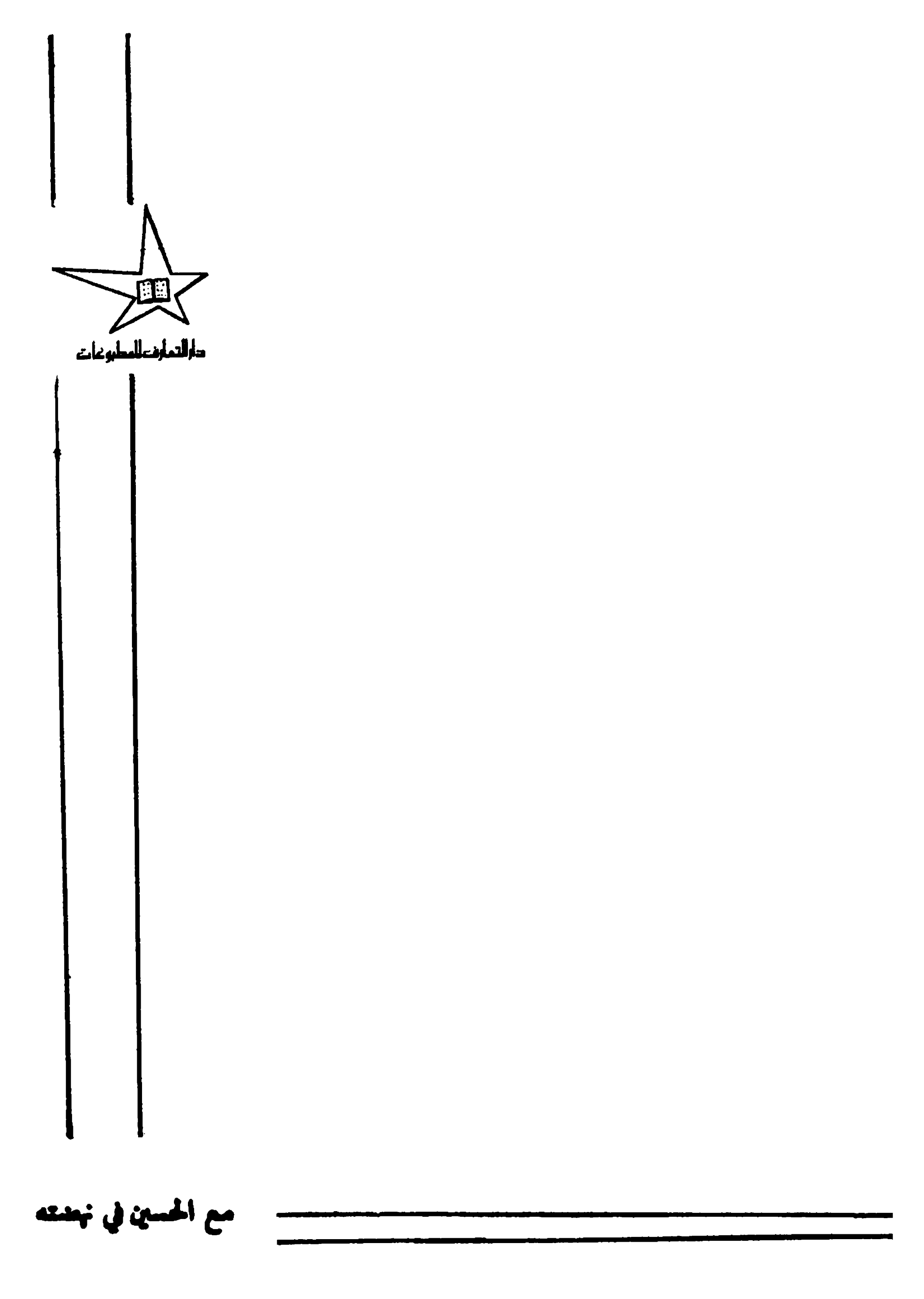
أسد حيدر

مع الحسين في نهضته




دار التعارف للمطبوعات
مع الحسين في نهضته

أسد حيدر

مع الحسين في نهضته



دار التعارف للمطبوعات
شارع سوريا - بناية درويش
بيروت

الطبعة الثالثة ١٣٩٩

دار التعارف للمطبوعات ـ شارع سوريا ـ بناية درويش ت ٢٤٧٢٨٠

المكتب والمستودع ـ شارع ابو علي رحال ـ حارة حريك ص.ب ٨٦٠١

بيروت ـ لبنان

الأهداء

إلى بضعة الرسول الأعظم (ص)
فاطمة الزهراء
أقدم كتابي هذا

مع الحسين في نهضته

أسد حيدر

بسم الله الرحمن الرحيم

وَلاَ تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ
اللهِ أَمْوَاتاً بَلْ أَحْيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ
يُرْزَقُونَ فَرِحِينَ بِمَا آتَاهُمُ اللهُ
مِنْ فَضْلِهِ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِالَّذِينَ
لَمْ يَلْحَقُوا بِهِمْ مِنْ خَلْفِهِمْ أَلاَّ خَوْفٌ
عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ [١].

صدق الله العلي العظيم

(١) آل عمران آية ١٦٩ - ١٧٠

المقدّمة

منذ زمن وفكرة وضع هـذا الكتاب تخامرني ، ولكن لا بهذه الصورة المقتضبة ، والبيان الموجز .

إنّها فكرة تدعو لواضع كتاب ، عن تاريخ حياة الحسين(ع) وثورته ، لبحث شامل عن الأدوار التي مرّ بها في حياته ، والأحداث التي واكبها منذ نعومة أظفاره ، من حين ولادته إلى يوم استشهاده ، فحياته مليئة بأحداث هامة ومواقف تمثل أروع مواقف البطولة ، وفوق ما يتصوره الإنسان في دراسة حياة الشخصيات الإسلامية .

كما أن ثورته التي هي امتداد لدعوة النبي محمد(ص) وهي أهم حلقة من تاريخ الإسلام تمثل أروع ما عرفه البشر من بطولات ، وأصدق ما أثبتته الحوادث من الجهاد في سبيل إعلاء كلمة الحق .

وقد كان بودي ذلك ولكن وجدت نفسي لا أملك من الوقت ما أستطيع به تحصيل ما أريده فاقتصرت على مرافقته(ع) في مسيرة النهضة منذ

البداية ، واني لم استوعب في حديثي كلما يتعلق بالحادث، إذ تركت الكثير اختصاراً وأعرضت عن أمور كان الإعراض عنها أولى .

وهذه الصفحات التي سجلتها ليست دراسة تحليلية وإنما هي لمحات خاطفة .

وقدأجهدت نفسي أن أتناول الموضوع بمزيد من الجهد والامانة التاريخية، لاثبات أهم الوقائع من طرق متعددة، ومصادر مختلفة، أشبه ماتكون بالعرض الموجز لنهضة الحسين كما إلتزمت خطة التدقيق ، والتمحيص كشرط من شروط المسايرة لموكب الأحداث لأجلو ما يحيط بجوانبها من غموض جهد الامكان ، وقدر المستطاع. وحاولت الابتعاد عن التعرض للحديث عن الفجائع المؤلمة والحوادث المروعة، التي عبرت عن أبشع أنواع الحقد، وجسدت مبلغ مايصله الانسان من القسوة، كما أنها أوضحت جانباً من ردود الفعل الذي كان في نفوس اعداء الاسلام ، ولكن لم أستطع التخلي عن ذلك ، ووجدت نفسي ملزماً لأن أتعرض لبعض منها . لاعطاء صورة عما حدث مما جسدت وحشية أولئك القوم وجاهليتهم .

وان تلك الحوادث تملي علينا دروس العبر ، وتكشف جوانب من العصبيات القبلية، التي يتوارثها الأبناء عن الآباء ، فهي تتحكم في مشاعرهم وتفكيرهم .

ومن الواضح أن حادثة الطف هي ماساة الأمة وفاجعة الإسلام الكبرى والحديث عنها هو حديث الشجون ، والعبرات ، وإنهـا مدرسة العبر

والشواهد التي تظل دائماً بحاجة الى الوقوف عليها ، والاتعاض بهـــا ، واستلهامها لتكون دليلاً لنا في مسيرتنا دوماً فهي عبرة الزمن ، ومدرسة الاجيال ، يستمد منها المسلمون دروس التضحية .

ولقد سرت مع البحث حسب مايقتضيه الوقت فالتزمت الموضوعية في كل ما تعرضت له من أحداث وحاولت أن تبرز الثورة في إطارهـا التاريخي طبقاً لمواقعها من دون دخل للعواطف والميول .

وبرغم كل ما بذلته من جهد لا أجد نفسي مهيئاً للادعاء بشيء جديد.

كما أن هذا الحادث العظيم لم يزل بحاجة إلى بحث شامل ، ودراسة متواصلة من قبل حملة الأقلام ورجال الفكر ، فهي شديـــدة الروابط والصلة بحياة المسلمين ، وهي في كل حين مادة نستمد منها كلما يمكن أن يستمده المسلمون مما يساعد في توجيه الأجيال للخير ، وحضهم على الالتزام بسير الأبطـــال ، الذين استهانوا بالحياة ، اعتزازاً بدينهم وحرصاً على كرامة أمتهم .

وختاماً ، أملي يا ابا الشهداء ان تقبل مساهمتي المتواضعة في حمل راية الثورة معكم ، ومسيري في طريق نهضتكم ، وأن أوفق فـــيما عرضته وتطرقت اليه في حديثي عن نهضتك ، وإن كان كل ما بذلته من جهد لا يفي حقها من البيان ، فسلام الله عليك وصلاته . وأشهد أنك كنت نوراً في الاصلاب الشامخة ، والأرحام المطهرة لم تنجسك الجاهلية بأنجاسها ، ولم تلبسك من مدلهمات ثيابها وأشهد انك من دعـــائم الدين واركان المسلمين .

أسد حيدر

الحسين

لمحـــات من حياتـــه

(حسين مني وانا من حسين ، أحب الله من أحب حسيناً ، حسين سبط من الأسباط) .

الرسول الاعظم
صلى الله عليه وآله

هو سبط رسول الله وريحانته ، أبوه علي بن أبي طالب ، بطل الاسلام ، وأُمه فاطمة الزهراء بضعة الرسول محمد (ص)، وهي أم النسل الطاهر والذرية الطيبة ، فكان له أشرف نسب ، وأطيب عقب .

ولد (ع) في الخامس من شعبان سنة أربع من الهجرة .

كنيته ابو عبدالله والقابه كثيرة أشهرها : سيد الشهداء ، وسيد شباب أهل الجنة ، وقد لقّبه النبي بذلك كما جاء في الحديث عنه (ص) : من عدة طرق :

« من سره ان ينظر إلى سيد شباب أهل الجنة فلينظر الى الحسين بن علي »

واشتهر عنه (ص) من عدة طرق قوله في الحسن والحسين : أنهما سيدا شباب أهل الجنة ، كما لُقب الحسين (ع) بالسبط وأنه سيد الأسباط.

أخرج الترمذي في صحيحه ص ٣٠٧ بسنده عن النبي (ص) أنه قال :

حسين مني وأنا من حسين أحب الله من أحب حسيناً حسين سبط من الأسباط .

وفيـه بسند عن حذيفـة عن النبي (ص) : ان الحسن والحسين سيدا شباب أهل الجنة .

وكان الحسين (ع) منذ ولادته يرعاه جده بعطفه وحنانه ، ويعلن للناس بمحله منه وحبه له ، ويظهر فضله للأمة ويكثر من وصاياه فيه وفي أخيه الحسن وبلغ من حبه له ولأخيـه الحسن (ع) أنه كان يخطب على المنبر ، فاقبلا يتعثران فنزل اليهما فاحتضنهما وأخذهما معـه الى المنبر وقال : صدق الله العظيم إنما أولادكم فتنة [1] .

وكان يلفت الأنظار الى علو شانه وجلالة قدره فيحمله ويضمه الى صدره ويخرج الى الناس ، فإذا جلس وضعه على فخذه ، وإذا مشى لحظه بعينه ، ويحدثنا شاهد عيان أنه رأى النبي (ص) كان يحمل الحسين ويقول افتح فاك ثم يقبله ثم يقول : اللهم أحبه فإني أحبه . وشاهد العيان هذا هو أبو هريرة فيقول : أبصرت عيناي هذه وسمعت أذناي رسول الله... الحديث .

---

(١) اخرجه ابن كثير في ج ٨ ص ٣٣ وابن قيم الجوزية في اغاثة اللهفات ص ٣٠٨

وكان أبو هريره يجهر بهذا الحديث وبغيره ، حتى وجد عليه الأمويون مع حبهم له ، فهذا مروان بن الحكم يقول لأبي هريرة عند مرضه حين جاء مروان لعيادته : يا أبا هريرة ما وجدت عليك في شيء منذ اصطحبنا إلاّ في حبك الحسن والحسين . فتحفز أبو هريرة فجلس وقال : أشهد لقد خرجنا مع رسول الله فسمع الحسن والحسين يبكيان فقال : ما شأن ابنيّ ؟ فقالت فاطمة : العطش .. الى أن قال لمروان : كيف لا أُحب هذين وقد رأيت من رسول الله ما رأيت [1] .

وقال أبو هريرة : ما رأيت الحسن والحسين إلاّ فاضت عيناي وذلك اني رأيت رسول الله يدخل فمه في فمه ثم يقول : اللهم اني أُحبه فاحبه وأحب من يحبه . يقولها ثلاث مرات .

وقال ابن عباس : كان رسول الله (ص) يحمل الحسين ويقبل شفتيه وثناياه [2] .

***

وكان الحسين خلال السنوات التي أدرك فيها جده ملازماً له في كل أوقاته في إرشاده ، وأداء فرائضه ، حتى في ساعات فراغه ، فقد نال رعايته وعطفه وجلّله بحنانه ، فهو موضع عطفه ولطفه ، وكان يقرع الأسماع وينبه الأذهان موقفاً بعد موقف بما يدل على عظمة الحسين واهتمام

(١) ابن عساكر ج٤ ص ٢٠٨
(٢) التذكرة ٢٣٢

النبي به ، حتى اعتبره جزءاً لا يتجزأ منه ، فقال عليه السلام : حسين مني وأنا من حسين .

فهذا منتهى ما يوجب على المسلمين رعاية حق الحسين والاهتمام بأمره فهو من النبي لحمه ودمه ، والنبي منه في امتداد دعوته ، وبقاء رسالته في جهاده ونضاله .

وقد رافق الحسين موكب الدعوة الإسلامية، وعاش وسط ذلك المجتمع الذي وجهه الرسول الأعظم بإرشاده وهدايته ، وشاهد مواقف جده وخلص أصحابه في سبيل نصرة الاسلام ونشر مبادئه ، واستقبل أيام حياته الأولى وهو يحظى بتلك الرعاية من جده العظيم ، وتربية أبيه أمير المؤمنين ، وحنان أمه فاطمة الزهراء فكان الحسين موضع احترام الصحابة ، وحبهم له ، ويحدثنا التاريخ عن الخليفة عمر وهو على المنبر في المسجد يخطب ولعلها أول خطبة يقوم بها أو أول مرة يراه الحسين فيها .

فمر الحسين به وناداه بكل جرأة وثبات وقوة فقال له : انزل عن منبر أبي واذهب الى منبر أبيك .

فأجابه عمر بكل هدوء: لم يكن لابي منبر ،ثم أخذ بيد الحسين بلطف ولما ذهب الى بيته أخذه معه[١] .

* * *

---

(١) الاصابة ج١ ص ٣٣٣

لقد شهد الحسين وقائع الاسلام ، ووعى تعاليم جده وشهـــد عدة حوادث وله مع الخلفاء مواقف، من يوم السقيفة وما رافقها من احداث، وما خلفته من حوادث .

وعاش مع أبيه علي أمير المؤمنين يتلقى تعاليمه وينهـــج نهجه ، وحضر معه حروبه في الجمـــل وصفين ، والنهروان ، وفي تلك الفترة شاهد حكومة الإسلام العادلة ورأى تطبيق النظام السماوي ، في ظل ذلك الخليفة العادل ، والذي لم يكن لأحد فيـــه مطمع ولا لقائل فيه مغمز « فعلي مع الحق والحق مع علي » يدور معه أينما دار ، فلا يهمه تفرق الناس عنه ما دام محقاً.

وأقام بعد أبيه مع أخيـــه الحسن سبط رسول الله والمصلح الأعظم ، والصابر في جنب الله صبراً لا يتحمله سواه ، والممتحن في ذات الله ، وهو شقيق الحسين وهما رضيعا لبن الطهر فـــاطمة ، ترعرعا في أحضان الامامة ، ودرجا في ربوع الوحي ، ونشئا في ذلك البيت الطاهر الذي رفع الله قدره ، فأنزل فيه قرآناً يتلى : (إِنَّمَا يُرِيدُ اللهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيراً) .

فعاش معه باحترام ذلا يخالف له رأياً ولا يقطع دونه أمراً ولا يتقدم عليه .

* * *

أتى رجل للحسن بن علي يسأله فقال الحسن: ان المسألة لا تصح إلاّ في غرم فادح ، أو فقر مُدقع ، أو حمالة مفظعة .

فقال الرجل : ما جئت إلاّ في احداهن ، فأمر له بمائة دينار، ثم اتى الرجل الحسين بن علي عليهما السلام فسأله ، فقال له مثل مقالة اخيه ، فرد عليه كما رد على الحسن ، فقال : كم اعطاك ؟ قال : مائة دينار ، فنقصه ديناراً . كره أن يساوي أخاه . ثم أتي الرجل عبدالله بن عمر فسأله فأعطاه سبعة دنانير ولم يسأله عن شيء ، فقال الرجل له : إني أتيت الحسن والحسين ، واقتص كلامهما عليه وفعلهما به ، فقال عبدالله : ويحك ! وانيّ تجعلني مثلهما ! انهما غُرّا العلم غُرّا المال [1] . أي زقا العلم زقا ، يقال : غر الطائر فرخه إذا زقه ومنه قول معاوية : كان النبي يغرّ علياً بالعلم غرا [2] .

واختفت الأحداث وراء ستار الإهمال في عهد أبي بكر وعمر ، فقد عاشرهما الحسين مدة من الزمن وشاهد وقائع تلك الفترة ، ولأن خفيت حوادث عهد الحسين في أيام الشيخين ولم يظهر إلا القليل منها فلم تستطع يد الضياع إخفاء ما كان يتمتع بـــه الحسين في عهدهما من سموّ منزلة ، وشمول رعاية وتقدير فائق ، واحترام وتبجيل منهما ومن جميع الصحابة

---

(١) عيون الاخبار ابن قتيبة ج ٣ ص ١٤٠ .

(٢) نفس المصدر الهامش .

في عهدهما ، وقد حمّلوا الناس أحـــاديث عن صاحب الرسالة ، تدل على منزلة الحسين وأخيه الحسن و جاءت بها كتب الصحاح والسنن ولا مجال لذكرها هنا .

ولقد أكدت الروايات احترام أبي بكر للحسن والحسين بصورة خاصة .

وكان عمر يحترمـــه ويحبه ويأذن له بالدخول قبل أن يأذن للعلية والمتقدمين من الأنصار والمهاجرين .

أما في عهد عثمان فقد اصطدم بتلك الحوادث وشهد ذلك العهدالمليء بالمنازعات ، والمشاحنات ، والعصبية القبلية ، وقـد ظهرت فيه الاثرة وحب المال ، بما لا عهد للمسلمين به من قبل ، وكانت بينه وبين مروان وغيره من دعاة الفتنة ، وأبطال إثارتها ، مشادّة ومقـــابلة ، حتى حقد عليه مروان فوق ما كان يحقده على أهل هذا البيت ، ولا زال حاقداً عليه حتى قتل (ع) شهيداً ، وأظهر مروان الشماتة في قتله حتى أنكر عليه أخوه وقال :

أتضحك والمحمول رأس ابن أحمد وتهـــتزّ بشراً والسبايا كرائم

ولقد وقف عليه السلام لمعاوية بالمرصاد، وحاسب ولاته أشد الحساب ولم يستطع معاوية بدهائه وتصنعه في حلمه ومخاتلته في سياسته أن يجلب ودّ الحسين ويكسبه الى جنبه ، أو يهدء ثورةغضبه عليه .

ولقد رأى الحسين (ع) تخاذل الأنصار عن أبيه وخيانة من كان يدعي

الاخلاص له وكيف قامت الحرب بينه وبين عائشة في البصرة ، تلك الحرب التي أوقد نارها جماعة لهم أغراض خاصة . كما رأى كيف لعبت يد التمويه والدجل في عقول الناس وكيف عاثت الفتنة في المجتمع الاسلامي في بدايته وعهده الأول .

وكان هو (ع) أحدالقادة ، ومن باشر الحرب بنفسه يوم الجمل .

وحضر معركة صفين ، واشترك فيها وتولى قيادة بعض القطعات وأدرك كيف امتدت لجيش أبيه المتماسك أيدي عابثة تثير غبار التشكيك، وتوقد نار الفتنة ، باسم الاصلاح ، والمطالبة بالحق أو المحاكمة للقرآن فحدث ذلك الانقسام الشائن ، فكان تحكيم بغير ما أنزل الله وتكونت جبهة قوية انفصلت من جيش أبيه وكانت حرباً عليه حتى كان من نتائج انقسامهم في صفين أو بعد التحكيم تدبير مؤامرة أدت الى استشهاد الامام علي في محرابه .

* * *

ثم واصلت تلك الفئات بكسب عناصر هي بعيدة عن الاسلام لتعمل عملها الغادر ، فاحدثت رجة تخاذل في جيش الحسن (ع) فكان صلح وكانت معاهدة بين الحسن وبين معاوية .

وعاش الحسين (ع) مع تلك الأحداث وشهد آثارها في المجتمع ولم تنطو تلك الأحداث بشكل سريع أو تذهب آثارها عن سجل الاعتبار في الواقع وقضى مع العهد الأموي زمناً هو أعظم ما كان يلاقيه من محن

في حياته ولكنه كان قوي الجانب بصلابة إيمانه ، وثبات عزيمته ، فهو عزيز النفس بما وهبه الله من قوة وثبات ، فلم تفرض عليه الحوادث أن يتراجع الى الوراء قيد أنملة و قرر خطه مسيرته، واختار منذ اللحظة الأولى من خلافة معاوية منهج الذي يسير عليه تلك الأيام التي ظهرت فيها ملامح النقمة ، وبدت في وجه السلطة لمحات الغدر ، وطلب الثأر ، وقد انتصرت في ذلك العهد فئة اندحرت بالأمس فقامت بعمل يبعد كثيراً عن قيم الانسانية وقد وقف ابو الشهداء أمام ذلك ، التيار كالطّود الأشم فلم تستطع تلك القوة أن تُلَيّن جانبه أو تتمكن من اخضاعه لسلطانها، حتى جاء الدور المرعب وحلول العهد الأسود بمضاعفات لا قبل له في السكوت عنها .

ذلك هو دور التفكير من معاوية في استمرار البقاء في السلطة ، وانحصارها في البيت المالك ، وليس من تحقيق لهذا إلاّ ان ياخذ معاوية البيعة ليزيد ، وأن يفرضه خليفة على المسلمين بالارهاب والقوة فكان هناك القول الفصل وهناك الصراحة بكل ما للصراحة من معنى ،وهناك الاعلان بخطأ هذه الفكرة فكانت مقابلة الحسين لتلك الفكرة بالتزييف هي مبدأ الحوادث وأول عوامل الثورة لأن تحقيق فكرة ولاية العهد ليزيد وإسناد الخلافة اليه معناه انتصار العناصر المعادية للإسلام، وقاعدة للتجمع ضد دعوة محمد (ص) ، وجمع شتات تلك الفئات الشريرة التي فرقها الاسلام بدعوته،فكانت ثورة الحسين هي القاعدة الأساسية لانطلاق دعوة الحق لرد هجمات الباطل ، وهي الحد الفاصل بين نجاح تلك

العناصر في مهمتها التي كانوا يعملون لتحقيقها منذ خلافـــة أبي بكر إذ هي معركة التصفية ومقابلة الفناء والابادة لكل عوامـل الخير ، ونشر دعوة الاسلام .

لقد كانت تلك الفئات الحاقدة تقف وراء انتصار فكرة ولاية العهد ليزيد وانها لمعركة يخوضها أولئك المعاندون ، لتحقيق الاهداف الـــتي يرومون تحقيقها والمعارضة لتلك الفكرة إنما هي خيبة أمل لأولئك ، ورداً لما يرومونه ، فكان موقف الحسين (ع) وثباته هو العقبة التي تقف في طريق تقدم أولئك . ولقد حاول القوم بان يستلوا من الحسين اعترافاً بولاية يزيد ، أو سكوته عن المعارضة فلم يحصل لهم مـــا أرادوا حتى قاموا بذلك التجمع ، وأوقعوا تلك الأعمال التي لم تقع في التاريخ قساوة وغلظة : من مضايقة في المنزل، وملء الأجواء بالجيوش الجرارة، وضرب الحصار عليه من كل جـانب وهم يحاولون أن يستسلم الحسين ، ويترك منهجه الذي سار عليه ، وليس وراء استسلام الحسين،واعترافه بحكومة يزيد إلاّ الاعتراف بالفئآت المناوئة للاسلام ، وتاييد مواقفها والمعاونة معهم على تحقيق أهدافهم ولكنه وقف موقف الثبات للدفاع عن الاسلام رغم ما أظهروه من حقد على مسرح ماساة كربلاء ، من احداث مـــا حدّث بها التاريخ ووقائع لم تمر على مرور الزمن ، إذ تجمعوا بصورة تتجاوز حدود تصور موازنة القوى المتحاربة فكانت ماساة كبرى ومعركة حامية ، لم تقتصر على المحاربين فقط، بل كانت تمتد الى الأطفال والنساء .

فهناك من لم يعرف الحرب وهناك الطفل الرضيع،وقد قتلوا وسط تلك المعركة التي تمثل اعنف صراع بين الإسلام وخصومه ، من الذين يتوقعون الانتصار على الحسين، باستسلامه ليزيد وبذلك يتم لهم تنفيذ مخططاتهم الإجرامية تحت ظل حكم لا يعترف بالقيم الاخلاقية ، ولا يلتزم بالعادات العربية ولا يخضع للنظم الاسلامية .

ولكن الحسين استهان بالحياة ، اعتزازاً بدينه ، وحرصاً على كرامة أُمته ، فقابلهم بعزيمة وثبات ، واصرار على مواجهة الأَخطار ، مهما كان نوعها ، ورغم مقابلة أَعدائه له بوحشية لا توصف ولا تدخل في حساب الظلم ،وقاموس الاستبداد ، وقد وضع يده على الداء فشخص الدواء .

إنها التضحية ، وليس غير التضحيةمن طريق إلى نيل العز،وكسب المعركة على مر الزمن ، والعمل بالحق ونصرة الاسلام .

رأى أن الموت هو الحياة الخالدة ، وان الحياة مع الذل هي الموت الذي لا حياة معه ، وان تراجعه قيد أنملة ، هو نصرٌ لأَعداء الاسلام فرفع شعار الثورة (لاٰ أَرىٰ المْوْتَ إِلاّ سَعٰادَةَ،وَالْحَيٰاةَ مَعَ الظّٰالِمِينَ إِلاّ بَرَماً).

واتجه بكل شعوره الى خالقه ، يستنزل النصر ، ويطلب عنايته التي طالما رافقته في كل أدوار حياته ، فكلما اشتدت حراجة الموقف ، كشفها بقوة الإيمان وثبات العزيمة ، فكانت نهضته امتداداً لدعوة جده ، في نشر الاسلام وتجسيداً لقوله صلى الله عليه وآله ..

(حسين منى ، وانا من حسين)


المـدْخَل

نشبت الحرب وحمي وطيسها بين أهل العراق وأهل الشام ، ودامت زمناً لا يقل عن سنة ونصف السنة ، وكانت الحرب سجالاً ، ظهرت فيها البطولات ، من الجانبين ، وابلى العراقيون، بلاء حسناً ، وكان جيشهم يضم عدداً كبيراً من الصحابة : بدريين وغيرهم وقد جسد مقتل عمار ابن ياسر موقف معاوية واتباعه ، بأنهم البغاة على امام الحق ، لما اشتهر عن النبي اذ قال لعمار : « يا عمار تقتلك الفئة الباغية » :

ورجحت كفة العراقيين ، وكان النصر حليفهم ، في اكثر المواقف حتى مرت الحرب بأعنف ما شهدته الحروب من بسالة واقدام ، وتغلب جيش علي ، وكاد معاوية أن يخسر المعركة ، ويلوذ بالهزيمة لولا خديعة رفع المصاحف ، وطلب التحكيم الى القرآن .

* * *

إنها لخديعة ماكرة ، إستطاع بها ابن العاص أن يحدث الانقسام في صفوف العراقيين خداعاً وتضليلاً ، اذ انطلت هذه الخدعة على البسطاء ، فقبلها أولئك السذج وهم قلة ، فأحاطوا بالإمام علي (ع) وقابلوه بشدة يطلبون ايقاف القتال ، وارجاع الكتائب الزاحفة نحو مقر القيادة ،

وقد قاربت الاستيلاء عليه فكانوا يطلبون بالحاح عودة الجيش الذي زحف بقيادة مالك الأشتر .

وقابلهم الامام علي (ع) بالحكمة والموعظة الحسنة ، وكان بالامكان ردهم بالقوة ولكنه (ع) كان أبعد نظراً ، وأعلم بالعواقب ، إذ يصبح الأمر معكوساً،عندما يموه به معاوية على الناس بان علياً يقتل من يطلب تطبيق أحكام القرآن ، وإن معاوية لا يتعدى ذلك ، وهناك تصاغ الأحاديث فيصبح « معاوية مع القرآن .. » طبقاً لمنطق الخداع،ونتائج التضليل، وعواقب الجهل الوخيمة .

فوقع التحكيم على خلاف الحق . وأثر النفاق والمخاتلة أثراً أدى الى أسوء العواقب فوقع الانقسام ، وانعزل الخوارج ، وكوّنوا جبهة ثالثة ، تشارك أهل الشام في بغض علي وأعدائه ، وتفارقهم بعداء معاوية .

ولم يحاربهم الامام علي (ع) إلاّ بعد أن ركبوا رؤسهم ، واستعملوا العنف فأرسل اليهم عبدالله بن عباس لاطفاء نار الفتنة ، ولكنهم اصروا على موقفهم العدائي وأجمعوا على البيعة لواحد منهم اسمه : عبدالله بن وهب الراسبي ، وقد عرفوا بالحرورية نسبة الى حروراء : بلدة خرجوا إليها . وتجمعوا هناك لإحكام خططهم .

وساروا بنشاط وعنف وتطرفوا الى درجة استحلال دماء النساء والأطفال ومن أمثلة أعمالهم الارهابية انهم قابلوا مسلماً ونصرانياً فقتلوا المسلم وأوصوا بالنصراني خيراً وقالوا : احفظوا ذمة نبيكم.

* * *

ومما يدل على تعطشهم لدماء المسلمين والعفو عن غير المسلمين : أن واصل بن عطاء وقع في ايديهم مرة فادعى أنه غير مسلم وكانت وجهة نظره ان ذلك ادعاء للحفاظ على حياته ، مما لو عرف عنه أنه مسلم مخالف لهم وقد صح ما توقعه فقد كان ادعاؤه الشرك « تقية » سبباً في نجاته منهم .

كما انهم قتلوا عبدالله بن خباب بصورة بشعة، وكان في عنقه المصحف ومعه امرأته ، وبعد حوار طويل جرى بينهم يفيض بالحكمة من جانب ابن خباب وبالغلظة من جانبهم ، فعمدوا إليه فقتلوه وبقروا بطن امرأته ، وهي حامل .

وكثر فسادهم في الأرض فخرج اليهم الامام علي (ع) وأوقع بهم ، وقتل منهم مقتلة عظيمة ، وفي هذه الموقعة قتل زعيمهم ابن وهب، وكاد علي (ع) أن يقضي على الخوارج قضاء مبرماً ، ولكنهم ما لبثوا أن تربصوا به ، وتآمروا عليه . بالاشتراك مع معاوية بن أبي سفيان ، وشاء الله أن يمضي علي شهيداً في ليلة القدر ، بمحراب مصلاه ، في مسجد الكوفة ، عند أداء فريضة الصبح ، فسلام الله عليه من امام عادل ، وشهيد مجاهد في سبيل الله .

* * *

تولى الإمام الحسن (ع) إمرة المؤمنين بعد ابيه ، وكانت البلاد مرجلاً تغلي من القلق والاضطراب ، والكوفة بصورة خاصة تعجّ

بالخلافات ، وتموج بالفتن والخصومات ، إذ الخوارج اتخذوا دعايةالفرقة سلاحاً للنقمة ، فهم موتورون يعملون بكل جهد لأخذ الثار ممن شارك في النهروان ، ولما كانوا أقلية في ذلك المجتمع المزيج بالعناصر الغريبة عن الاسلام ، والتي امتزجت في مجتمعه فراراً من خطر العزلة التي لا تحقق لهم مآرب الفتك بالاسلام .

لقد كانت هناك جماعات نصرانية ، ومجوسية ، وزرادشتية ، ومانوية ويهودية ، وهم الذين اجلاهم الخليفة عمر بن الخطاب من المدينة الى الكوفة فكانوا العنصر القوي الذي لعب دوراً في حوادث الكوفة ، وتغيير اتجاهاتها وكان جهد الخوارج منصب على تفرقة الناس عن الامام الحسن ، وهذا الأمر هو الذي يسعى اليه معاوية ، إذ كان يركز كل جهده على تفرقة أنصار الحسن وأتباعه ، فان تم له ذلك نجح في امتداد نفوذه على العراق ، لتصبح الكوفة تحت سلطانه ونفوذه ، وقد لمس جانب الضعف في بعض الجوانب .

* * *

وتقدم الحسن (ع) بذلك الجيش الذي كان في حياة الامام علي (ع) معداً لمواجهة معاوية بحرب طاحنة ، استعد معاوية للمواجهة المروعة ، ولكنه استعمل الحرب النفسية ، واتخذ الخداع وسيلة ناجحةفارسل من يتحدث فيجيش العراق : أن قيس بن سعد قد صالح معاوية ، وكان قيس من أعظم المخلصين للحسن وأكبر القواد في المعركة .

ثم استعمل معاوية التخذيل بالأموال ، فبذل لعبيد الله بن العباس مالاً جزيلاً ، فترك الحسن والتحق بمعاوية ، وكان من قواد جيش العراق ، المبرزين .

كما أرسل معاوية وفداً : يتكون من المغيرة بن شعبة ، وعبدالله بن عامر ، وابن أم الحكم ، فدخلوا على الحسن (ع) ثم خرجوا بعد مدة وأشاعوا بين الناس : بأن الحسن وافق على الصلح ، وكل ذلك لم يكن ، بل كان غالبية الجيش مصمماً على خوض المعركة ، وكاد الموقف أن يتفجر عن حرب طاحنة بين الفريقين . ولكن الامام الحسن (ع) كان على علم من تصدع وحدة جيشه ، لما داخله من دعايات المغرضين وما قام به معاوية من دعاية وتمويه .

* * *

وقد ادرك الامام الحسن خطر الموقف ، ولمس جانب الضعف المؤدي الى الخذلان ، فوقف على مفترق الطرق ، وهنا تبرز الحنكة السياسية ، والتجربة الصحيحة ، فعلم أن دخوله في الحرب مع تفكك القوى وتصدع الوحدة ، وانتشار البلبلة ، التي اوجدتها دعايات معاوية ، كل ذلك خسران للمعركة ، ونجاح لمعاوية .

ولا بد أن يبرز القائد بمثل هذه الظروف بدقة الملاحظة وشمول الهدف بمراعاة العواقب ، والحساب الصحيح لنتائج المعركه ، ورد خطر الحرب ، التي اصبحت على وشك الانفجار ، وليس وراء ذلك إلا نقمة

ماحقة ، من قبل فئآت تتربص به الدوائر لتضرب الاسلام ضربة حقد يأكل قلوبهم ، وعداء متأصل ، يدفعهم للنقمة فأراد الحسن (ع) أن يظهر ما كان مختبئاً في النفوس ، فصعد المنبر وخطب الناس وقال :

(ألا وقد اصبحتم بين قبيلين ، قبيل بصفين يبكون له ، وقبيل بالنهروان يطلبون ثأره ، أمّا الباقي فخاذل ، وأما الباكي فثائر ، وإن معاوية دعانا إلى أمر ليس فيه عز ولا نصفه ، فإن أردتم الموت ، رددنا عليه ، وحكمناه الى الله).

وان أردتم الحياة قَبلنا وأخذنا لكم الرضا . فصاح الناس : البقية الباقية .

* * *

وكان معاوية هو الذي طلب الصلح من الحسن ، وأرسل له صحيفة يمليها بما يريد أن يشترطه الحسن لنفسه .

وكلما حاول الحسن (ع) مع خلص أصحابه انجاح المهمة ، وأبعاد شبح الخذلان لم يتأت له ذلك ، فكان وقوع الصلح أو إيقاف القتال نتيجة حتمية ، لرعاية المصلحة ، وكان هذا الاجراء نتيجة مداولات استمرت مدة من الزمن، وان لم يرق ذلك لبعض الزعماء ، فوجهوا اللوم على الحسن في إيقاع الصلح وعرضوا له أن ينقض ذلك فأباه وأجابهم بخلاف ما أرادوا [١] .

---

(١) البلاذري انساب الاشراف خط .

وتجرع خلص أصحاب الحسن مرارة النكسة بقوة إيمان وعقيدة ثابتة ولكن فكرة الثورة تخامرهم بين آونة وأخرى، والظروف الحرجة والحوادث المؤلمة تدعو للإندفاع بفكرة الثورة مرة أُخرى ، فإن القتال ودخول معاوية الى الكوفة كفاتح منتصر أوجد في قلوب العراقيين جذوة حماس واستعداد للثورة ، فقد انقلب ميزان المعركة،التي خاضها العراقيون لصالح أهل الشام .

وتقدم اليه البطل العربي المشهور حجر بن عدي قتيل مرج عذراء وكان أشد الناس تحمساً فقال له :

(خرجنا من العذاب ودخلنا في الجور ، وتركنا الحق الذي كنا عليه ودخلنا في الباطل الذي نذمه ، ورضينا بالخسيسة ، وطلب القوم أمراً فرجعوا بما أحبوا مسرورين ، ورجعنا بما كرهنا راغمين) .

فأجابه الإمام الحسن (ع): (ليس كل الناس على ما أحببت إني قد بلوت الناس فلو كانوا مثلك في نيتك وبصيرتك لأقدمت [1]) .

وبقيت النفوس مطوية على الحسرة والتأثر من استيلاء معاوية بعد وقف القتال فكانت الغالبية من أهل العراق يحاولون الخروج من هذا النطاق الضيق وكانت الكوفة تمثل أغلبية المعارضة ، وتتمثل فيها

---

(١) البلاذري أنساب الأشراف ١ — ٢٣٨ مخطوطة مصورة في مكتبة الامام امير المؤمنين تسلل ٢٩٦٥ مخطوطات .

الروح الثورية أكثر من غيرهـا وأراد معاوية أن ينتقم من العراقيين فأرسل زياداً والياً على الكوفـة ومهمته القضاء على المعارضة التي يتزعمها حجر بن عدي الطائي .

فكان أول اجراء اتخذه هو مطاردة الزعماء ، ومضايقتهم فوقفوا في وجه تعسفه وإستبداده ، وصدوا هجمات حقده، ببطولة وبسالة فانفجر بركان أول ثورة بقيادة حجر بن عدي، ولكنها أخمدت بالقوة والمكر ، ولقي حجر بن عدي حتفه محكوماً عليه بالاعدام قتلاً بالسيف في مرج عذراء ،مع ستة من انصاره المخلصين،من زعماء الكوفة وذلك في سنة ٥١.

وقامت موجة سخط من الصحابه وأعيان الأمة على معاوية وفي طليعتهم الحسين (ع) بن علي إذ وجه إليه رسالة شديدة اللهجة .

(ومن الصدف الغريبة ان حجر بن عدي هو الذي فتح عذراء والعذراء هـي الرملة التي لم توطأ،والدرة العذراء هي التي لم تثقب، وعذراء هي التي لم تثقب ، وعذراء قرية بغوطة دمشق واليها ينسب مرج فيقال مرج عذراء فتحهـا جيش المسلمين في حرب القادسية بقيادة حجر فكان جزاؤه أن يقتل فيها) .

* * *

وأمام موجة العنف المتصاعد ، وتحت ضغط سلطان الاستبداد الذي استعمله معاوية ، في انصار علي كان من المحتم الركون الى التكتم واللجوء الى العمل في التخطيط للثورة تحفظاً على مبادئها ، وكانت تلك الفئآت

ترى في شخصية الحسين (ع) بعد أخيه تحقيق آمالها المنشودة ، فشخصت اليه الأبصار واتجهت اليه الأنظار وعقد أول اجتماع في الكوفة حضره زعماؤها ، وقرروا إرسال وفد للمدينة لمواجهة الحسن (ع) وطلبوا أن يعاود الكرة في حرب معاوية ، واعلان الثورة من جديد ، فإن امتنع الحسن فالى الحسين (ع) .

وخرج الوفد من الكوفه ولم يجد عند الامام الحسن جواباً لما يطلبون وجاؤا للحسين (ع) يطلبون منه أن يدفع بالامام الحسن الى المعركة من جديد .

فقال الحسين : قد كان صلح وكانت بيعة كنت لها كارهاً فانتظروا ما دام هذا الرجل حياً « يعني معاوية » فان يهلك نظرنا ونظرتم فانصرفوا عنه .

قال البلاذري : فلم يكن شيء أحب اليهم أي الشيعة من هلاك معاوية [1] .

* * *

فكان هذا الموقف من الحسين (ع) أولى لأنه يرى من غير اللائق نقض ما أبرم والخروج على الاتفاق ، ونقض العهود وبهذا فهو يمثل أسمى آيات الإلتزام بالمواثيق التي تبرم .

---

(١) أنساب الأشراف خط .

كما انه يكشف بذلك غدر الأمويين ، ونقضهم لكل بنود الصلح ، وعدم التزامهم بكل عهد .

* * *

وعاد الوفد من المدينة ولم تنقطع الاتصالات بين أهل الكوفة وبين الحسن (ع) عن طريق ارسال الوفود التي تمثل الاكثرية من وجهاء الكوفة يفاتحونه في الأمر ويحثونه على النهضة، واعلان الثورة ضد معاوية،فكان جوابه سلبياً ، فاستعانوا بأخيه محمد بن الحنفية فلم يتأثر بذلك ، لأنه لا يريد مخالفة أخيه ، الحسن ، ولا يتعجل في أمر قبل إحكامه .

فلما مات الامام الحسن (ع) قويت العزائم في توجيه الطلب من الحسين (ع) في الاجابة لما يطلبون، فقد أصبح هو الامام بعد أخيه(ع)، وعقدوا اجتماعاً قرروا الاتصال بالحسين فكتبوا له كتاباً مزجوا فيه تعزيته بوفاة أخيه واستنهاضه على عدوه وقالوا فيه :

ان الله قد جعل فيك أعظم الخلف ممن مضى ونحن شيعتك المصابة بمصيبتك ، المحزونة بحزنك، المسرورة بسرورك، المنتظرة لأمرك[1].

وكان بنو جعدة بن هبيرة قد حضروا الاجتماع، ولصلتهم بالحسين(ع) من جهة الرحم ، أسرعوا بالكتابة اليه يخبرونه عن هذا الاجتماع، ورأي أهل الكوفة فيه ، وحبهم لقدومه ، و تطلعهم اليه ، وأنهم قد وثقوا من

(١) أنساب الاشراف .

أنصاره ممن يرضون هديه ، ويُطمئن الى قوله ، فأفضوا اليهم ما هم عليه، من شنآن آل أبي سفيان ، والبراءة منهم ، ويسألونه الكتابة اليهم برأيه.

فكتب اليهم (ع) : (إني لأرجو أن يكون رأي أخي في الموادعة ورأيي في جهاد الظلمة، رشداً وسداداً ، فالصقوا في الأرض ، واخفوا الشخص والتمسوا الهدى ما دام ابن‌هند حياً ، فان يحدث به حدث وأنا حي يأتكم رأيي ان شاء الله [1])

وبهذا يرسم الامام (ع) خطة الدعوة السريـــة ويؤكد ضرورة التكتم ، فامتثل أولئك الرجال المتحمسون لاعلان الثورة ، وتحولوا الى التكتم قدر الأمكان ، وواصلوا إلحاحهم على الحسين في الاستجابـــة ، وأخذوا يبعثون اليه الكتاب تلو الكتاب ، يعرضون عليه التأييد له والبيعه ، ولكنه كان (ع) مصراً على رأيه في التريث والانتظار ، فكان جوابه (ع) على آخر كتاب لهم مع محمد بن بشير الهمداني وسفين بن ليلى الهمداني مع وفد من أهل الكوفة أن أوصاهم بقوله :

ليكن كل امرىء منكم حلساً من احلاس بيته ما دام هذا الرجل حياً ، فان يهلك وأنتم أحياء رجونا أن يخير الله لنا ، ويأتنا رشدنا ، ولا يكلنا الى انفسنا فان الله مــع الذين اتقوا والذين هم محسنون [2] .

---

(١) المصدر السابق ، وتاريخ ابن عساكر ج ٥٥ مخطوط .

(٢) البلاذري ٢٣٧ مخطوط .

وقدم اليه المسيب بن نجبه على رأس وفد من الكوفـة وهم يدعونـه لخلع معـاوية وقالوا : قد علمنا رأيك ورأي أخيك .

فقال اني لارجو أن يعطي الله اخي على نيتـــه ، وأن يعطيني على نيتي في حبي جهاد الظالمين [1] .

وكان ورود وفود الكوفـة بصورة علنية يبعث اعوان السلطة على الحذر من وقوع أمر يخشونـه فرفعوا الأمر الى معاوية يخبرونـه : بان الحسين (ع) يعد العدة ، وينتظر الفرصة للوثبة عليه ، فبادر معاوية فكتب للحسين (ع) كتاباً يقول فيه :

رقد أنبئت أن قوماً من أهل الكوفـة ، قد دعوك الى الشقاق ، وأهل العراق من قد جربت قـد أفسدوا على ابيك وأخيك فاتق الله ، واذكر الميثاق فانك متى تكدني اكدك [2] .

والكتاب يعتبر تهديداً للحسين وتخويفاً له ، فعباراته المموهة بالدهاء والمخاتلة تعرب عن سوء نية بحزم وقوة ، ولكن ذلك أسطورة تنهار أمام صمود الحسين (ع) وعزمه ، وثباتـه وإقدامـه ، فكان رد الحسين بكل صراحة معبراً عن واجبه الديني تجاه معاوية وسلطانه ، فقـــد جاء في الرد قوله (ع) .

---

(١) الذهبي تاريخ الاسلام ج ٢ ص ٣٤٠ .

(٢) نفس المصدر .

أتاني كتابك وأنا بغير الذي بلغك عـــني
جدير وما أردت لك محاربة ، وما أظن لي
عند الله عذراً في ترك جهادك وما أعظم فتنة
من ولا يتك هذه الأمة [٣] .

* * *

وعاشت الكوفـة باشد مراحـل المحنة ، وأعنف مواقف الإضطهاد ولاقت أقسى أنواع الظلم ، لأنها ذات طاقات ثورية لا يؤمن انفجارها بين حين وحين .

ولكن معـاوية حصّنهـا بجندٍ قساة ، تحت إمرة زياد ، وهو أقسى رجل عرفه قاموس رجال الظلم والإستبداد .

وأقام ابطال الكوفـة وزعماء مصرها على وهج الانتظار يتحمسون لاستجابة الحسين في قيادة الثورة .

وبينما كانت الأمـة في محنتها تتجرع كاس الالآم إذ فاجأهم نبـــأ اعلان ولاية العهد ليزيد بن معاوية ، وأخذها بالقسوة والقهر من دون الرجوع الى استشارة رجال الأمـة .

فأثار النبأ ردود فعل عنيفة ، لما عرف عن يزيد من تردٍ في الخلق وانحطاط في السلوك ، وخروج على الدين ، وهتك للقيم ، ولكنها أمنية معاوية وهو أول من يقر نظـــام ولاية العهد لحصر السلطة في البيت الأموي .

---

(٣) المصدر السابق

وِلايَةُ العَهْد

اقرار نظام ولاية العهد من محدثات عهد معاوية فقد فكر زماناً بان يفرض هذا النظام ويصبح يزيد بحكم ذلك النظام خليفة المسلمين بالوراثة رغم نظم الاسلام وارادة الأمة . فلا شيء أعظم على المسلمين من أن يتولى إمرتها شاب عرف بالنزق ، والعزوف عن جميع القيم ولا ربط له بتعاليم الإسلام ، وهذا أمر يصعب تحمله وليس من الممكن الرضوخ له ، وتقبله بسهولة .

ولم يكن معاوية بذلك الرجل الذي يجهل الصعوبات التي تعترض فكرته ، فالمجتمع الاسلامي حديث عهد بالخلافة الراشدة إذ هي تجسيد للعدل الاسلامي ، ومثالٌ لتكامل شخصية الحاكم الذي يرعى الأمة بوعي وسداد ،

ومعاوية أدرى بنفسه وأعرف الناس بولده يزيد ، فلا ينسى معاوية الأسباب التي أوصلته للحكم ، فهي بعيدة كل البعد عن شروط الخلافة وتولّي هذا المنصب .

أما يزيد فهو أدرى به من ای أحد ، ولكنه الحب والطمع في تخليد الملك واعادة الزعامة الأموية . في العهود الجاهلية .

ويزيد لا تخفى حاله على سائر الناس،فلقد عرفه المجتمع بوفور اللعب

واللهو والقنص ، والنساء ، وكلاب الصيد ، إذ كان يلبسها الأساور من الذهب والجلال المنسوجة منه[1] .

ومن الخروج عن الواقع ، أو التجني على الحقائق ، وصف يزيد بما يؤهله للخلافة وتحسين الأمر لمعاوية وما ذلك الا من بواعث الحقد على الاسلام فيزيد قد عرفه الناس بأنه فاجرٌ مستهتر لا يتصل إلاّ ببطانة السوء ، من خمارين وعازفين ، وقد عرف بشرب الخمر[2] مع تهاونه بالدين وكان يسكر ويترك الصلاة[3] ويتصيد بالفهود ، ويلعب بالزند ، ويدمن الخمر ومن شعره فيها :

أقول لصحب ضمت الخمر شملهم ... وداعي حبابات الهوى يترنمُ
خذوا بنصيب من نعيم ولذة ... فكل وان طال المدى يتصرم[4]

كما وصفه التاريخ وصوره بأنّه لا يتصف بصفات المسلمين ولا يعرف إلا التمرد والخروج على القيم كما احتفظ التاريخ وسجل أعماله التي هي صحائف سوداء من معاقرة الخمر ومنادمة الفتيات ، وأكثر ما يرد ذكره على ألسن المغنين في أندية الهوى ويغني بشعره على نغمات العود ، وله النصيب الوافر من الأشعار التي سجلها التاريخ ورددتها المغنيات في مجالس الشرب ، وكان هو يرددها في مجالس لهوه وساعات

---

(١) العلائلي الامام الحسين .
(٢) أخبار الدول للقرماني ص ١٣٠ — ١٣١ .
(٣) الطبري ج ٧ ص ٤ .
(٤) الدميري حياة الحيوان ج ٢ ص ١٥٧ مادة الفهد .

طربه ، كما غلب على أصحابه وعماله ما كان يفعله من الفسوق ، وفي أيامه ظهر الغناء بمكة واستعملت الملاهي وأظهر الناس شرب الشراب"[1]

كل هذا كان يقع على علم من معاوية ، واطلاع من خاصته وأنصاره اذاً كيف يجرأ معاوية على اقتحام عقبة المعارضة لفكرته في أخذ البيعة لرجل هذا بعض عمله ، ولا يستغرب من يزيد تهاونه بالدين وعدم مبالاته بالمؤاخذه فانه نشأ نشأة مسيحية ، تبعده كثيراً عن عرف الاسلام وذلك لأنه يرجع بالأمومة الى بني كلب ، ومن بديهيات علم الاجتماع ، ان انسلاخ شعب عن عقائده يستدعي زمناً طويلاً ، على أن طائفة من المؤرخين ترجح أن من أساتذته بعض نساطرة الشام ، من مشارقة النصارى وإذا صح هذا نعثر على سبب خطير يساعده على أن يظهر بهيئة الساخر من الأوضاع ، التي ألزم المجتمع بها نفسه كما أن القبلية عملت فيه عملها ، فخرج جافياً ذا عصبية قاسية"[2] .

وعلى أيّ حال فإنّ معاوية لا يجهل حالة يزيد كما انه على علم بالمجتمع الإسلامي وطبيعته في عدم تقبل البيعة وردها ، وهو على علم من وجود كتل سياسية تتطلع لكسب المعركة ، والاستيلاء على الحكم بعده عندما يعود الأمر شورى بين المسلمين في اختيار الأصلح للأمة .

فابن الزبير كوّن حزباً سياسياً ، وهو يترصد للوثبة والأمويون أنفسهم وهم الحزب الحاكم قد رشحوا منهم من يتولّى الخلافة بعده ،

---

(١) المسعودي مروج الذهب ج ٢ ص ٧٤ بولاق .

(٢) العلائلي : سمو المعنى في سمو الذات الحلقة الأولى .

وكان مروان بن الحكم يطمع في ولاية العهد، لأنه كبير البيت الأموي[1] بعد معاوية وهو أبو عشيرة، وجد عشيرة - وأهم من ذلك أن الأكثرية الساحقة من العراق والحجاز وبعض الأقطار العربية كان اتجاههم مع الحسين (ع) وكانوا يختلفون اليه، ويدعونه للبيعة، ويقولون إنا لك عضد[2].

ولم يكن يزيد في الحسبان او يدخل في قائمة المرشحين أبداً لبعده عن كل المؤهلات فسقط من قائمة الحساب.

ومعاوية لم يكن، بالرجل الذي يجهل مكانة أهل البيت من نفوس الأمة.

وقد وصلته أنباء استياء العراقيين بعد وقوع الصلح، وأنهم قد اتصلوا بالحسن، لاعادة الكرة الى الحرب، لمحو آثار النكسة التي كانت من صالح أهل الشام وخسران أهل العراق. وكان دائماً على استعداد للوثبة وإعادة الحرب فواصلوا اتصالهم بالحسين وهم يلحون عليه كما أشرنا له من قبل، وهذه الأمور كان معاوية على علم منها واتصال دائم باجهزة إعلامه، وهو يقدر تلك الظروف، فكان بين إقدام وإحجام حتى قوي عزمه باناس لا يهمهم أمر الأمة، كاهتمامهم بمصلحة أنفسهم، كالمغيرة بن شعبة، وزياد بن أبيه، وأحزابهم وقد تقدم اليه المغيرة بن

---

(١) المقدسي البدء والتاريخ ج ٥ ص ٦ .

(٢) انساب الاشراف خطي ص ٢٤٢ .

شعبة يحثه ويغريه بولاية العهد لولده يزيد ، وهو بذلك يطلب رضا معاوية فقد حصلت بينهما جفوة خشي المغيرة سوء عاقبتها ، فوجد الطريق لعودة الأمور الى حالها في اغراء معاوية لأخذ البيعة ليزيد ، ويتعهد المغيرة بأخذ البيعة من أهل الكوفة ، وان زياد بن أبيه قادر على أخذ البيعة من أهل البصرة ، وإذا بايعه أهل العراق لم يختلف عليه أهل الحجاز ، وأما أهل الشام فهم حملة الدعوة وأنصار الدولة .

* * *

ونشط معاوية في أخذ البيعة ، عندما وجد أعوانا يناصرونه فالمغيرة بن شعبة داهية من دهاة العرب وزياد معروف ببطشه ونفوذه وأهل الشام أعوانه وأنصاره والمجتمع لا يخلو من اناس يتخذون الدين وسيلة لمآربهم ، ومع هذا فلم يتسرع معاوية بل أختار التريث لدرس الفكرة ، وعرضها على المخلصين من أعوانه ، واعاد المغيرة الى ولاية الكوفة بعد ان فكر في عزله ، والاستعاضة عنه بغيره، ولكنه جلب وده فاستعاد منزلته وثبت في ولايته عند عرضه لفكرة البيعة .

ومات المغيرة وضم معاوية الكوفة الى زياد مع البصرة ، فاصبح زياد والي العراق ، وملحقاتها ولم يسرع زياد في الاستجابة لفكرة ولاية العهد بل أشار على معاوية بالتريث .

بعد مدة وبعمل متواصل استطاع معاوية أن يعلن للرأي العام فكرته ليرى مدى تأثر الناس بذلك .

فاعلن فكرته هناك بمجتمع من المؤيدين والمعارضين ، وهو يعلم أن الشام لا تتأخر عن البيعة ، وإن كان هناك بعض من لا يستجيب فالسيف يسوقه للالتحاق بركب الأموات بسرعة ، كما أعرب الخطيب الذي يمثل معاوية بقوله :

أمير المؤمنين هـذا . . . . وأشار لمعـاوية

وولي عهده هـــذا . . . . وأشار ليزيـد

ومن أبى فهـــذا . . . . وأشار للسيف

وبهذا المنطق افتتح دور اقرار نظام الوراثة للسلطة بولاية العهد الذي لا عهد للاسلام بـه .

وليس المهم اعتراف أهـــل الشام فانهم يستجيبون لكل ما يأمرهم معاوية ، وقد حمل التاريخ قول بعضهم معبراً عن الاكثرية الساحقة .

فان تاتوا برملة أو بهند نسميهـــا أميرة مؤمنينا

إنما المهم في نظر الواقع وهو موضع اهتمام معاوية هو اعتراف أهل المدينة بولاية العهد ، ومن بعدها الكوفـة ، فالمدينة هي مصدر التشريع الاسلامي ومهبط وحي السماء ، وفيها أصحاب النبي ، وهم أهل الحـــل والعقد ، وابناء المهاجرين والانصار .

نعم أن المدينة في غاية من الأهمية فإذا استطاع معاوية أن يذلل الصعاب التي تعترضه هناك فلا شيء يهمه إلا الكوفـة الثائرة والقاعدة

العسكرية الهامـــة وهم الذين لا يقرون على ضيم ولا يخضعون للولاة ، وللشيعة فيها شوكة وقوة وهو على علم بالتحركات ضده ، وباتصالهم مع الحسين على الثورة ضد معاوية بامر مكشوف متواصـــل منذ وقوع الصلح ومدة حياة الحسن وبعد وفاته وهذا أكبر شاغل يقف أمامه ، فاراد معاوية أن يسبر غور مجتمع المدينة ، فأرسل زياد بن أبيه وهو الظالم المتعسف الى المدينة وعند وصوله خطب الناس :

وقال : يا معشر أهـــل المدينة إن أمير المؤمنين حسُن نظره لكم وإنه جعل لكم مفزعاً تفزعون اليه ، يزيد ابنه [١] .

وهذا يعتبر أمراً صارماً وتحدياً صريحاً لمقام الخلافـة ، فيزيد معلوم أمره مشهورة سيرته .

فاثارت هذه الكلمة موجة سخط واشمئزاز ، وتداول في الآراء ، وكيف يكون تدارك هذا الخطر ، وظهر لمعاوية مقدار ما تحمله هذه الفكرة من القبول والرد ، فحاول أن يلبس فكرتـه صبغة الشورى أو الانتخاب الشعبي ، فبذل جهده في تذليل الصعاب بكل ما لديه من الوسائل ، حتى طريق القوة والإرهاب والخديعة ، والتحايل ، وأجرى الاختبار مرة ثانية على يد مروان فامره أن يقوم بهذه المهمة، وأن يموّه على النـاس بأن البلدان استجابت لولاية العهد ، وبايعوا يزيد ، وهو يريد أن يبايعوا له أُسوة بغيرهم وكان مروان يطمع بولاية العهد فغضب مروان إذ لم يجعل اليه الأمر ، لأنـه كبير هذا البيت بعد معاوية ، وهو

---

(١) الذهبي تاريخ الاسلام ج ٢ ص ٢٥٧ .

مرشح البيت الأُموي لكبر سنه ، فكان يعد العهد ليزيد تحدياً لمقامه واستهانة بـه ، فغضب مروان من ذلك ، وتعجل في المفاوضة فسار الى الشام وكلم معاوية فترضاه بأن جعله وليّ عهد ليزيد ورده الى المدينة [1]

فأرسل مروان الى وجوه أهل المدينة فجمعهم في المسجد الأعظم ثم صعد المنبر وتكلم بما أراد من وصفه معاوية في العدل والمحافظة على مصالح الامة وأنه قد كبر سنه ، وقد أراه الله رأياً حسناً وقد أراد أن يختار لكم ولي عهد يجمع الله به الالفة ، ويحقن به الدماء ، وأراد أن يكون ذلك عن مشورة فيكم وتراض فما تقولون ؟

وهذا الكلام يبعث في النفوس أملاً قوياً في إجراء الشورى ورجوع الإختيار للأمة ، وبالطبع إنها لا تختار إلاّ من له أهلية الخلافة ، وهو المتحلّي بصفات الإمامة ، وانمحت من خواطرهم فكرة بيعة يزيد ، وزال التخوف من ولاية عهده ، فإن زياد بن أبيه قد كدر صفو عيشهم من قبل إذ أعلن بيعة يزيد في ولاية العهد .

وانتظر الناس الإفصاح عن تلك الشخصية التي أرادها معاوية للأُمة جمعاً لشملها وحفظاً لمصالحها ويكون تعينه برضا الأُمة واختيارها .

فقال مروان : فإنه قد اختار لـكم الرضا الذي يسير فيكم بسيرة الخلفاء الراشدين المهتدين وهو ابنه يزيد [2] .

---

(١) المقدسي : البدء والتاريخ ج ٥ ص ٦ .

(٢) أنساب الأشراف والخوارزمي ج ١ ص ١٧٢ .

وهنا تظهر على ذلك الجمع موجة التأثر العظيم لهـــذه المهزلة وهذا التحدي لمجتمع عاش تحت ظلال الدعوة الصالحـــة ، وعايش الخلافة الراشدة ، فمروان هنا يقدم مهزلة لتقول صقل جوهرها الإسلام ،فأصبح مروان يهزأ بذلك المجتمع ويحتقر القيم الخلقية وقـــامت ضجة إنكار ، وتكلم وجوه أهل المدينة في رد هذه الفكرة ، وطال الحوار وكان عبد الرحمن بن أبي بكر حاضراً فقال :

كذبت وكذب من أمرك بهـــذا والله ما يزيد بمختار ولا رضىً ، ولكن تريدون أن تجعلوها هرقلية ، ويزيد هو يزيـــد القرود ويزيد الفهود ويزيد الخمور [1] .

وتفرق الجمع وهو ساخط على معاوية ، والناس تتحدث عن هـــذه المهزلة التي مني بها الفكر الإسلامي ، وأصبحت في المدينة موجة إنـكار وأحاديث استغراب .

تدارك الوضع

ووصلت أنباء المدينة لمعاوية وهو يتطلع الى النتائج بفارغ الصبر ، وبلغه استياء الناس ومعارضتهم لفكرته ، وحاول أن يتدارك خطر هذه المعارضة ، فقـــدم المدينة واستقبله الناس ، فأغلظ للمنكرين على مروان ، ولقيهم بغلظة وقساوة ، واشتد معهم في التأنيب . وهو يحاول

---

(١) الخوارزمي ج ١ ص ١٧٢ .

أن يهيء جواً ملائماً لقبول فكرته التي صمم على تنفيذها رغم المعارضة القوية .

وكان أكبر همه معارضة الهاشميين ، وكان زعيم المعارضة هو الحسين ابن علي (ع) وهو سبط رسول الله والناس لقوله أسمع وله أطوع .

وبدون شك ان معاوية يقتنـــع من الحسين بالسكوت ، أو البيعة الصورية ليتم له مـــا يريد ، فأجهد نفسه في إقناع الحسين على البيعة الصورية ، ولكنه (ع) أعلنها غضبة وثورة ، وقال كلمته في يزيد أمام جماهير المسلمين في المدينة ، توهيناً لرأي معاوية وتكذيباً لما يقول،وذلك عندما قام معاوية خطيباً أمام ذلك الجمع يمدح يزيد ويصفه بما يقربه الى القلوب ، ويحببه الى الناس ، فكان رد الحسين عليه السلام بقوله :

كأنك تصف محجوبـــاً أو تنعت غائبـاً أو تخبر عمـــا كان مما احتويته بعلم خاص وقد دل يزيد على موقع رأيه ، فخـــذ من يزيد مما أخذ به من استفزازه الكلاب الهارشة عند التهارش ، والحمـــام السُّبَّق لأترابهن ، والقينات ذوات المعازف وضروب الملاهي تجده ناصراً ودع ما تحاول ، فما أغناك أن تلقى الله بوزر هذا الخلق بأكثر مما أنت لاقيه ، فوالله ما برحت تقدح باطلاً في جور ، وحنقاً في ظلم حتى ملأت الأسقية .

واستمر الحسين (ع) في تأنيب معـــاوية وتعداد جرائمه وفضح

أعماله ، ولما انتهى (ع) من خطابه ، نظر معاوية الى ابن عباس فقال : ما هذا يا بن عباس ؟! ولما عندك أدهى وأمر .

فقال ابن عباس : لعمر الله انها لذرية الرسول وأحد أصحاب الكساء ، من البيت المطهر ، فاله عما تريد فإن لك في الناس مقنعاً [1] .

ورغم هذا كله فقد تحدى النواميس وسحق مقدرات الأمة وتنكر لمؤهلات الخلافة واستهان بمكانتها في المجتمع الإسلامي ، وكل ذلك ينبعث عن نفسية لا تؤمن إلا بالقبلية ، ولا ترى إلا طريق الوراثة من غير رشد ، وقد صرح معاوية مراراً بقوله : « لولا يزيد لرأيت رشدي» [2] .

وحيث لم يظفر معاوية بما يريد فقرر أن ياخذ أغلب الشخصيات المعارضة للبيعة معه الى مكة ، ويستعمل هناك حيلة في إظهار نجاح البيعة امام مجتمع الحجيج ، فدخل مكة [3] وبذل الاموال ، وأكثر الهدايا للأشراف ، ثم جمع الناس في المسجد ، وأمر صاحب حرسه أن يقيم على رأس كل رجل من الأشراف رجلاً بالسيف ،

وقال : إن ذهب واحدٌ منهم يراجعني في كلامي فاضربوا عنقه . ثم صعد المنبر وخطب ثم قال : ان هولاء الرهط سادة المسلمين وخيارهم ولا يقضى أمر من غير مشورتهم وقد بايعوا يزيد فبايعوا باسم الله .

---

(١) المسعودي ج ٢ ص ٧٤ بولاق .

(٢) علي جلال الحسيني ص ١٧٥-١٧٦ نقلاً عن ابن قتيبة .

(٣) المقدسي البدء والتاريخ ج ٥ ص ٦ .

أما الأشراف فلم يمكنهم تكذيبه ومراجعته ، وأما سائر الناس فلا جرأة لهم على الكلام ، ولا علم لهم بشيء مما يقول ، فأُخذت البيعة ليزيد بتلك الصورة التي دبرها معـاوية خديعـة ، ومَدَّ الناس بالأموال لشراء الضمائر ، وقصدته الوفود لنيل رفده ، وأغلبهم يؤكد البيعـة ليزيد ،

وقدم عليه أبو منازل وجماعة من العرب ، فأعطاه أقل مما أعطاهم ، وكانت مكانتـه تعلو مكانتهم ، فقال منازل: فضحتني في تميم يا معاوية أما حسبي بصحيح ؟ أولست ذا سن ؟ أولست مطاعاً في عشيرتي ؟

فقال له معاوية بلى .

قال : فما بالك بخست بي دون القوم ؟

فقال: إني اشتريت من القوم دينهـم . ووكلتك الى دينك في عثمان وكان عثمانياً .

قال : وأما أنا فاشتر مني ديني ، فأمر له بتمام جائزة القوم [1] .

وهذا هو أقوى العوامل التي ساعدته على تحقيق فكرتـه ، وعمل المستحيل في سياسته ، إذ أصبح يزيد ولي أمر الأُمـة ، ووريث عرش الخلافة الراشدة ،من دون رضا المسلمين، ولا أخذ برأي أهل الرأي منهم.

* * *

---

(١) الطبري .

في عهد يزيد :

أفاق يزيد من سكرته ، واذا بالبشير يزف التهاني اليه بامرة المؤمنين فقد مات أبوه ، ووطد له الملك ، وذلل له الرقاب ، فهو خليفته على الأمة ، ووارث عرش المملكة ، التي اجهد معاوية في اقامتها ، وجعل يزيد من بعده تحقيقاً لرغبته ، وبلوغاً لامنيته .

لقد مات معاوية [1] وانتقل الأمر الى يزيد ، فاصبح يحمل وسام إمرة المؤمنين وقد عاش مع بطانة سوء ، يلهون ويشربون ويعربدون ، وعرف بالمجون والصيد ، ومنادمة النساء ، واللعب بالفهود والقرود ، وما اسوء حظ أمة يسوس أمرها رجل هذا عمله ، وما أضيع الحق في عهده ، وما أعظم محنة المسلمين في أيامه .

مات معاوية وقام يزيد من بعده ، ولم تبرح عن مخيلته جهود أبيه التي بذلها في تحقيق رغبته ، بأن يصبح خليفته من بعده بمختلف الأساليب التي انتهجها ، ووضع أمام عينيه ما أشار أبوه اليه ، وأكد عليه في الحذر من المعارضة وأمره بالمسارعة في القضاء على رجالها كما جاء في وصيته له .

تقلد يزيد زمام الحكم ، وواجهه لأول مرة ، إذ لا سابقة له فيه وهو يختلف عما اعتاده في حياته من لهو وعبث ومجون ، فلا بد أن يشعر بثقل المسؤولية ولا قدرة له على تغيير خطته فلا بد أن يتخذ بطانة سوء تدير كفة الحكم ، ويشاورهم في الأمر .

---

(١) كانت وفاة معاوية في شهر رجب سنة ٦٠ هـ .

وقد كان يزيد يتزايد في تقريب المسيحيين ويستكثر منهم في بطانته الخاصة ، كما أنه يقع بينهم على من يمتزج به وينسجم معه ولقد اطمان اليهم .

ان تربية يزيد لم تكن اسلامية خالصة ، أو بعبارة أُخرى كانت مسيحية خالصة ، فلم يبق ما يستغرب معه أن يكون متجاوزاً، مستهتراً مستخفاًبما عليه الجماعة الاسلامية ، لا يحسب لتقاليدها واعتقاداتها أي حساب، ولا يقيم لها وزناً،بل الذي يستغرب ان يكون على غير ذلك[1] .

كما ذهب اليه بعض من انحرف عن الواقع فراح يبرر موقف يزيد وانه تنصل من قتل الحسين ، خلافاً لما أجمع عليه المؤرخون : (من أن يزيد أمر ابن زياد بقتل الحسين) وأما تنصله من ذلك فانه وقف أمام غضبة المجتمع على عظيم ما جنت يداه .

ولقد سر يزيد بقتل الحسين ووصل ابن زياد ثم لم يلبث إلاّ يسيراً حتى بلغه بغض الناس له ولعنهم فندم[2] . وسنرى في سيرتنا هذه حقيقة الأمر وواقع الحال .

---

(١) العلائلي ٥٩ .

(٢) راجع ابن جرير وابن الأثير وابن واضح ، وغيرهم .

بدايـة المعرُكـَة

فوجيء المسلمون بنبأ خلافة يزيد بعد وفاة معاوية ، وهنا تقع على عواتقهم المسؤولية الكبرى أمام هذا الحدث العظيم ، وأسرع المعارضون لمواجهة الحسين ، فقد آن الأوان لتحمل مسؤولية تنفيذ ما خطط من قبل للقيام بثورة ضد تلك الأوضاع . التي واجهتها الأمة في حياة معاوية ، وقابلوها بالصبر والتحمل وهم ينتظرون عسى ان يتغير الوضع بعده الى ما هو أحسن، ولكن اسناد الحكم ليزيد أمر لا يمكن تحمله.

ولم يكن الحسين (ع) بحاجة الى من يثير عزيمته ، فان الواجب يحتم عليه القيام بالمسؤولية مهما كلّفه الأمر في الجهاد لحماية الدين ، ولا طريق للسكوت فانه يعرض الأمة الاسلامية الى خطر لا يمكن تداركه ، عندما تنشط العناصر المتداخله تحت ظل الحكم القائم . والذين كونوا من أنفسهم كتائب لنصرة السلطة والقضاء على المعارضة ، لأن حساب تلك العناصر ان الانتصار لمبادئهم وقد اقترب وانهم لا بـد أن ينتقموا من المسلمين ، والحسين هو الشخصية المسؤولة عن حماية الإسلام من تحكم المتدخلين ، وان المهمة الملقاة على عاتقه مهمة ضخمة ، هي انقاذ الأمّة ، وقد سبق للمعارضين اقتناعهم مدة خلافة معاوية ، وقد آن الأوان لوفاء الحسين بوعده ، إذ حل الموعد وأصبح الحكم بيد يزيد ، وسكوت الحسين عن القيام بجهاده معناه إقرار لخلافة يزيد ، وفتيا بإباحة ما يرتكبه من المنكرات في حكمه ، وقد أعلن الحسين (ع) معارضته لولاية العهد ، وقابل معاوية بالشدة من قبل .

كان اهتمام يزيد بأمر الحسين أكبر شاغل، وأعظم عقبة كئود تقف أمامه ، فاتخذ الطرق التي يسلكها في مقابلة خصمه ، وأول شيء فعله أن سلك طريق إثارة الضغائن القبليـــة ، والقوة والتهديد ، فاظهر عما ينويه في منهاج حكومته الجديدة بقوله مخاطباً أهل الشام :

نحن أهل الحق وأنصار الدين ، فابشروا يا أهل الشام ، فإن الخـير لم يزل فيكم وسيكون بينكم وبين أهل العراق ملحمة ، فإني رأيت في منامي قبل ثلاث ليالي : كأن بيني وبين أهل العراق نهراً يطرد بالدم ،فجعلت أجهد أن اجوز ذلك فلم أقدر حتى جائني عبيدالله بن زياد فجازه بين يدي وأنا أنظر اليه .

فأجاب أهل الشام بقولهم :

امض بنا يا أمـــير المؤمنين حيث شئت فنحن بين يديك وسيوفنا هي التي عرفها أهل العراق يوم صفين .

فقال لهم : لعمري أنتم كذلك [١] .

وهذا يدل على أمر مبيت وتخطيط للمعركة مسبق ، وقـــد أظهره يزيد تحت ستار من الكذب يثير المشاعر ، ويلهب الأحاسيس القبليـــة والمنازعات الاقليمية فيستعد للطوارئ التي ستأتي ومواجهـــة الخطر الماثل هناك ، فان أمامه أعظم مشكلة تهدد دولته بالزوال . ففتح بيوت

---

(١) الخوارزمي ج ١ ض ١٧٩ والفتوح لأحمد بن اعثم الكوفي المتوفى سنة ٣١٤ هـ ص ٢٩٢٧ ج ٦/٥ .

الأموال ووزعها على أهل الشام ، والتف حوله أعوانه وكتب الى جميع البلاد باخذ البيعة له ، وكان على المدينة مروان فعزله ، وولى مكانه الوليد ، وأول ما فكر به عند ولايته هو ارغام المعارضين لفكرة أبيه من قبل على البيعة له اليوم طوعاً أو كرهاً ، فكتب لعامله الوليد ابن عتبة على المدينة المنورة :

من عبدالله يزيد أمير المؤمنين الى الوليد بن عتبة . أما بعد : فإن معاوية كان عبداً من عبيد الله أكرمه واستخلفه .... وكان عهد إليّ وأوصاني أن احذر آل ابي تراب وجرأتهم على سفك الدماء ، وقد علمت يا وليد إن الله منتقم للمظلوم عثمان من آل ابي تراب بآل أبي سفيان لأنهم أنصار الحق ، وطلاب العدل ، فاذا ورد عليك كتابي هذا فخذ البيعة لي على أهل المدينة ، ثم كتب صحيفة صغيرة . أما بعد فخذ الحسين وعبدالله بن عمر، وعبدالله بن الزبير بالبيعة أخذاً عنيفاً ، ليس فيها رخصة فمن أبى عليك فاضرب عنقه والسلام [1].

كانت هذه المبادرة من يزيد في أخذ البيعة من المعارضين بالقوة باكورة حكمه ومنهاج حكومته الجديدة . والمقصود هو الحسين (ع) أما ابن عمر فاخذ البيعة منه تاييداً فهو أسرع الناس لذلك وابن الزبير معلوم بنشاطه المحدود .

---

(١) ابن واضح تاريخ اليعقوبي ج ٢ ص ٢١٥ والفتوح لابن أعثم ١٠/٥

وورد الكتاب على أمير المدينة الذي عرف بالهدوء والسياسة ولايمكنه مخالفة ، الأمر والتهاون في القضية ، فماذا يصنع لو امتنع الحسين ؟ وهو أمر محتم ، تقرره الوقائع السابقة ، فكيف المخرج من هذا المأزق ! !

وقد جاء عنه انه قال : انا لله وانا اليه راجعون ، يا ويح الوليد بن عتبة في هذه الامارة ما لي وللحسين بن فاطمة [١] .

فماذا يصنع ؟

أيستعمل الشدة طبقاً للأوامر الصادرة من يزيـــد ونزولاً لرغبة الكتلة الأُموية التي واصلت إلحاحهـــا بأن يسرع الوليد بالأمر بقوة وحزم ، وعلى رأسهم مروان بن الحكم ، فقد كان يحثه على قتل الحسين(ع) وقـــال للوليد : والله لو كنت في موضعك لم أُراجع الحسين في كلمة واحدة حتى أضرب رقبته [٢] .

أم انه يترك الأمر لعوامل المـــداراة والسياسة فيستميل الحسين للبيعة ، وهو المستحيل ، أو يقتنع منه بالسكوت عن المعارضة ؟

وأصبح موقف الوليد بعد ورود الكتاب اليه مرتبكاً ينذر بخطر عظيم ، فهل يتحدى كل الحواجز التي تقف أمامه عندما يتعرض للحسين بسوء فيكسب رضا أميره وأنصاره ويتحمل سخط الله وغضبة الأُمة ، أم يلتزم بالتريث وسلوك طريق الاستقامة ، ولا يتعرض للحسين بسوء اذا لم يغيّر وجهة نظره في بيعة يزيد .

---

(١) الفتوح ٥/١١ .

(٢) نفس المصدر / ١٢

فكان الوليد تختلج في نفسه نوازع متباينة ، فهو ملزم بحكم منصبه أن ينفذه ، وهو يعلم ما سيجري عليه من آثار اجتماعية وسياسية ، فقرر أن يسلك طريق الحذر من وقوع الكارثة التي يخشاها عندما ينفذ أمر يزيد ، في استعمال الشدة مكان اللين والمداراة ، فأرسل الى الحسين بن علي (ع) يدعوه ، وكان الحسين (ع) قد بلغه موت معاوية فاحسّ بما عزم عليه الوليد ، فأحضر أهل بيته ذوي النجدة والبسالة لعلمه بما يؤدي اليه الأمر من خطر العواقب ، وأمرهم بأن يقفوا على الباب تأهباً للوثبة عندما يعرض له أي خطر لأنه يعلم بحقيقة الأمر وربما يؤدي الموقف الى اصطدام عند امتناعه عن البيعة .

ودخل الحسين (ع) على الوليد وأبقى أهل بيته على الباب وهم على أتم الاستعداد ، وقال : إن دعوتكم أو سمعتم صوتي قد علا فاقتحموا الباب[1] .

فلما دخل استقبله الوليد بالتبجيل والترحاب ، وكان مروان جالساً وعليه مسحة الغدر والغضب ، وتعلو سحنته علامات التأثر ، وهو مرتبك من خطورة الموقف وسوء الوضع ، وخيبة الأمل ، عندما يمتنع الحسين من الاستجابة لما يطلبه يزيد .

وابتدأ الوليد بادب ولين فنعى معاوية واسترجع الحسين .

---

(١) الخوارزمي ج ١ ص ١٨٣ وابن الجوزي في تذكرة الخواص ص ٢٣٤ والارشاد ص ٢٠٠ .

ثم قال الوليد : إن يزيد استحب اقتراح البيعة عليك فماذا ترى ؟

* * *

انـــه لأمر غريب وموقف عظيم وقعـه . أمن الحسين تطلب البيعة ليزيد ؟ ! فمن هو يزيد ؟ ! وبماذا ورث تراث محمد ؟! فبماذا يجيب الحسين عن هذا الأمر ؟ ولكنه عليـــه السلام تلقى ذلك بهدوء وتصبر ، وكان جوابه طلب اجتماع عـــام في مسجد الرسول يحضره الصحابة وأبناء المهاجرين والأنصار ، وتعرض هنـاك قضية البيعة ليزيد علناً [1] ، وهذا بمثابة استفتاء شعبي أو انتخاب حر لخليفة جديد ، ومن يا ترى يقدم على انتخاب يزيد مع وجود من هو أهل للخلافة ، ولا أقـل من وجود كتل معارضة ، وأغلبهم من أهل الحل والعقد ،وهذاالاجتماع في نظر الواقع يشجع المعارضين لبيعة يزيد . واقتنع الوليـــد بجواب الحسين حباً للسلامة ودفعاً للخطر .

وخرج الحسين (ع) وهو يتهادى بين أهل بيته ومواليه ويقول :

لا ذعرت السوام في فلق الصبح ... مغيراً ولا دعيت يزيدا

يوم أعطى مخافة الموت ضيماً ... والمنايا ترصدنني أن أحيدا [2]

أما مروان فكان ينتظر النتيجة الحاسمة ، وهي بيعة الحسين (ع)

---

(١) الخوارزمي ج ١ ص ١٨٢ . والطبري ص ٦٠ .

(٢) التاريخ الكبير ج ٤ ص ٣٢٨ ابن عساكر .

عن رضاً منه فإن امتنع يقتل ، كما أمر يزيد بذلك ، ولقد خاب أمل مروان عند اقتناع الوليد بجواب الحسين ، فاعلن بما يكنّه من سوء التدبير لهذا الاجتماع السرّي ، وقال : لا تدع الحسين يخرج من عندك بلا بيعة فيكون أولى منك بالقوة ، وتكون أولى منه بالضعف ،فاحبسه حتى يبايع او تضرب عنقه .

ألقى مروان هذه الكلمة عن حقد يأكل قلبه ، وعداء أعمى بصيرته وسلبه معرفة المنطق الصحيح ، وهو كما قال علي (ع): لسان العاقل وراء قلبه وقلب الأحمق وراء لسانه .

ومرت هذه الكلمة على مسامع الحسين فوثب وثبة الأسد وقال : بانفةٍ وحمية : يا ابن الزرقاء أأنت تقتلني أم هو ؟ كذبت ولؤمت[1]

ولولا النظر الى العواقب السيئة المترتبة على الفتك بمروان لما أفلت من قبضة الحسين ، ولكنه كان أبعد نظراً ، وأصوب رأياً وأعلم بعواقب الأمور ، ووقف مروان أمام وثبة الحسين وغضبته موقف الجبان الرعديد مصفر اللون ترتعد فرائصه ، وتستك أسنانه .

وخرج الحسين (ع) وقد صمم على تنفيذ خطته ومن هنا كان ابتداء المسيرة الظافرة في نهضته ، وبانت الطلائع المحزنة لمصيبته وآن أوان الاستعداد للنهضة وتفجير الثورة .

* * *

(١) التاريخ الكبير ج ٤ ص ٣٢٨ ابن عساكر .

خرج عليه السلام والدنيا ضيقة في عينه على سعتها فقد آن أوان المحنة وبدت علائم الابتلاء، ومن هنا أعلن ثورته، ورفع شعار المطالبة بالاصلاح والسير بسيرة جده فكان هذا هو المجلس الأول لانطلاق الحركة ومن هنا أعلن ثباته على المطالبة بحقوق الأُمة ، وأنه على الحق وليس له من غاية إلاّ نصرة الحق .

ولا بد هنا للحسين أن يعلن منهاج نهضته ويوضح عوامل ثورته فقد جاء في بنود الوصّية التي تعتبر دستوراً للنهضة ، وطريقاً للثورة إذ يقول :

انى لم أخرج أشراً ولا بطراً ، ولا مفسداً ولا ظالماً ، وإنما خرجت لطلب الاصلاح في أُمة جدي .
أُريد أن آمر بالمعروف ، وأنهى عن المنكر وأسير بسيرة جدي وأبي علي بن أبي طالب ، فمن قبلني بقبول الحق فالله أولى بالحق ، ومن رد عليّ هذا أصبر حتى يقضي الله بيني وبين القوم الظالمين وهو خير الحاكمين [١]

وهذه الفقرات هي تجسيد اوضاع العصر الذي تعيشه الأُمة الإسلامية من جراء ما خلفته السياسة الأُموية ، في عهد معاوية من فساد وانحطاط ، وضياع الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر .

---

(١) مقتل العوالم ص ٥٤ والسيد الأمين في اللواعج ص ٢٨ والفتوح ٣٥

إن تلك الأوضاع السائدة وليدة استهتار بالقيم ، وبعد عن الالتزام بنواميس الدين ، وتغيير للخطط التي أوضحها الرسول (ع) لأمته لمسيرتهم في الحياة .

لقد ضاع الحق وقل انصاره ، وانتشر الباطل ، وكثر أعوانه ، فالحسين أولى من كل أحد في المطالبة باعادة حقوق الأمة ، لأنه يمثل دعوة الحق باجلى مظاهرها ، وبذلك طالب الأمة لمعاونته، وقبول دعوته فهو لم يجعل أسباب قبول دعوته بشرفه الذي لا يجاريه أحد فيه ، ولا منزلته التي يعترف بها كل مسلم ، وإنما طالب الأمة بالحق الذي يجب مناصرته،فالحسين داعٍ للحق وهو ممثله والناس إذا أستجابوا للحق، فذلك سعادة المجتمع والخير للأمة .

فكانت نهضته (ع) للحق من حيث الحق ولم يثنه قلة الناصر وكثرة الواتر كما لم يقعد به قوة خصمه وتعاون العناصر الموتورة ضده فأعلن الجهاد على حكومة يزيد الماجن المستهتر ، وقرر الهجرة ؛ ليعلن الثورة من هناك، وتكون مكة قاعدة انطلاقها ومهد التكتل الاسلامي، لأنها كانت مزدحمة بوجوه المسلمين وأبطالهم آنذاك إذ قصدوا البيت الحرام لأداء العمرة في شهر رجب من كل مكان .

في مكة المكرمة

هاجر الحسين من دار الهجرة في العشر الأواخر من شهر رجب ،واتجه شطر البيت الحرام قبلة المسلمين ، ومنزل الوحي ليؤدي فريضة الجهاد التي لا يسوغ له أن يتقاعد عنها او يتاخر عن القيام بالواجب .

وكانت مكة مزدحمة بالمعتمرين من جميع اقطار العالم فدخلها ركبه في الخامس من شهر شعبان ونزل شعب علي (ع) .

وأثارت هجرته من المدينة موجة سخط على الدولة في جميع أرجاء المملكة الاسلامية وتحدث الناس بهذا النبأ العظيم ، والحادث الذي يهم كل مسلم ويلزمه التساؤل عن أسبابه وأخذت وسائل الاعلام الاسلامية تنشر هذا النبأ في الأقطار .

وعندما حل الحسين بمكة أقبل أهل مكة ومن كان بها من المعتمرين وأهل الآفاق يختلفون اليه ، ويجتمعون عنده وتركوا عبدالله بن الزبير ، وكانوا قبل ذلك يختلفون اليه ، ولزم ابن الزبير الكعبة يطوف بالبيت ويأتي الى الحسين (ع) [1] .

وتعرف الناس على أسباب الهجرة ، وأوضح لهم الحسين (ع) منهاج الدعوة وتصميمه على الثورة وحتمية المعاونة بين جميع المسلمين لرد خطر إمارة يزيد على الأمة الاسلامية .

* * *

تحدث الناس بهذا النبأ العظيم، وكثرت الآراء والتكهنات ، وأحاط الخوف باعدائه ولا يدرون ماذا يكون وراء ذلك ، أيجتمع المسلمون على مبايعة الحسين ليتداركوا خطر انتقال الأمر ليزيد ، وبهذا سعادة الأمة ، ولقد أصبح الأمويون أمام حركة إسلامية كبرى وتيار ديني يتدفق من جميع الجهات ، ليلتحقوا بالحسين استجابة لدعوته وتخلصاً

---

(١) الحسين علي جلال ج ٢ ص ١٢ .

من العهد الأُموي فقد سئم الناس ما يلقونه في ذلـــك العهد من أُمور وأحداث كثيرة خلفت في النفوس آثاراً مريرة ، كما ظهرت في المجتمع الإسلامي عادات غير مألوفة وانتشرت العصبية القبلية .

وليس من الغريب أو المستبعد أن يستجيب الناس لدعوة الحسين كما أن الحسين ، لم ييأس من استجابة الناس له ، وكل ذلك يهدد الكيان الأُموي تهديداً جعلهم يتهيبون اقتحام الحسين بشكل سافر ، وكانت ملامح الخطر تبدو في الأُفق وتظهر بوادر تلك الحركة الإسلامية فقد بدأ التجمع في مكة واطلعهم الحسين على الأمر الذي دعاه الى الخروج وأوضح لهم منهج دعوتـه وأسباب ثورته وهي كما أعلنها في بيانه الأول بانـه لم يخرج إلاّ لطلب الإصلاح والأمر بالمعروف ، والنهي عن المنكر ، والسير بسيرة جده .

وأقبل الناس على دراسة هذه البنود ، وهم يشجعون الحسين على النهضة ويلتفون حوله في مكة ، وأصبح المعتمرون من جميـع البلدان الإسلامية لا يفارقون مجلسه ولم يخل الوقت من مفاوضات ومشاورات.

وليس من السهل على الأُمويين أن يغضوا الطرف عن الحسين وهو يخرج من المدينة معلناً غضبه على الدولة بصورة علنية ، وليس فيهـــا شيء من السرية والتكتم ثم نزل مكة وكان فيهـــا جمع من المسلمين لا يستهان بـه من المعتمرين والمجاورين فكان نزوله في مكة هو أعظـــم صاعقة تنزل عليهم ؛ إذ وافتهم الأنباء بأن الحسين تعقـد عنده الأندية للتشاور ، وتكثر الاجتماعات ، ويرتاد مجلسه جميـع المسلمين من أطراف

البلاد من الذين وافوا مكة لأداء العمرة .

وغمرت المجتمع ألوان من التكهنات في النتائج وكثرت الأحاديث حول هذا الحادث المهم .

وارتحل المعتمرون لأقطارهم وهم يحملون أنباء مكة وأخبار هجرة الحسين وغضبه ، ومعارضته لبيعة يزيد ، وقد أحدث ذلك هياج اهتز له عرش يزيد وسلب قراره .

وهكذا بلغه نبأ الكوفة وهي تغلي كالمرجل عندما بلغهاوفاة معاوية فتحركت الفئآت المكبوتة والمغلوبة على أمرها ، أيام سلطان معاوية وهي ترزحُ تحت نير المذلة والاستعباد ، وكثرت الاشاعات في توجه الحسين الى مكة ، فاجتمع الناس لدعوته كما سيأتي .

* * *

بقي الحسين عليه السلام في مكة أيام الحج فكان وجوده في مكة محفزاً لقدوم عدد لا يستهان به من وجهاء الناس وزعماء الأُمة ، وذوي الآراء منهم الى مكة للحج والاجتماع بالحسين للوقوف على رأيه ومعرفة آخر ما وصلت اليه دعوته .

وكان الموسم في تلك السنة مزدحماً بالشخصيات الاسلامية ومن يهمه الوقوف على نهاية هذه المعركة التي تقرر مصير وحدة المسلمين وعزتهم إن استطاعوا الاطاحة بيزيد وهدم سلطانه الذي اقيم على إثارة النزعات القبلية ، فمعارضة الحسين ووجوده في مكة أمر لا يتحمله

سلطانهم ، ولا تتسع له صدورهم ، ولا يمكن التعرض له بهذه السرعة ولو تعرضوا له لعرضوا أنفسهم الى ما هو أعظم منه لنقمة المسلمين عليهم، لأنهم يحسبون للموقف ألف حساب كما أنه من المستحيل تحويل الحسين عن رأيه ، أو اقناعه بكل وسيلة ، فلا بد من تفكير في العواقب ، ولابد من معالجة الموقف بما يضمن السلامة للدولة ، فكثرت الآراء وآخر ما نتج عن تلك الاجتماعات وحصل من ذلك التشاور أنهم قرروا اغتياله وقتله ولو كان متعلقاً بأستار الكعبه ، فأرسلوا ثلاثين رجلاً من الأبطال والمعبّر عنهم في الروايات بشياطين بني أُمية .

وكانت فكرة اغتيال الحسين سلاحاً ذا حدين ، فقتل الحسين هو أُمنية الدولة ، إذ تقطع بذلك طريق المعارضة من جميع الجهات .

ثم تصبح الدولة عند تنفيذ الخطة صاحبة الحق في البحث عن مرتكبي الجريمة ، وأقطاب المؤامرة ، وبهذا تستطيع السلطة أن تسوق لساحات الإعدام أكبر عدد ممكن من أبطال الاسلام الذين لا تود بقائهم .

وقد أدرك الحسين (ع) خطورة الموقف ، فاعلن السفر وقرر الخروج من مكة يوم التروية وكان هدفه المحافظة على حرمة الحرم وقدسيّته كما صرح بذلك لمن كان يحاول اقناعه بالتريث وترك الإستعجال في السفر .

في الكوفة

ماجت الكوفة عندما بلغها موت معاوية بن أبي سفيان وحدثت بها هزة سياسية ، وتحول اجتماعي، فقد تحركت قوى المعارضة للحكم وتنفس المجتمع الذي خيم عليه كابوس حكم غاشم ، وأمتد عليه نفوذ سلطان جائر .

والكوفة هي التي تمثل المعارضة الحادة، وتشبعت فيها روح الحقد للدولة الأموية ، وكانت الكوفة معرضة لسخط السلطة وانتقامها ؛ لما صدر منها من مقابلة سافرة ، ومعارضة مكشوفة وعداء ظاهر ، وأهمها أنها انضمت لجانب علي(ع) في حروبه الثلاثة : الجمل ،وصفين، والنهروان ، فهي في نظر السلطة تشكل أعظم خطر على الدولة ، فكانت موضع الاهتمام والمراقبة ومحلاً للعقوبة الجائرة .

كما أنها تتسم بطابع عدم الاستقرار، لكثرة اختلاف النزعات وتقلب الآراء وذلك لتفرق عناصرها ، وتعدد قومياتها ؛ واختلاف عقائدها .

وكانت الشيعة على موعد مع الحسين (ع) والاتصالات بينه وبينهم مستمرة وهم يستنهضونه لتفجير الثورة ضد الحكم الأموي ، وقد التف حولهم جميع الفئات التي تشاركهم بالتحفز للخلاص من ذلك العهد الغاشم

وكان الحسين (ع) قد أمر شيعته بالتريث ، وعدم التسرع ما دام معاوية حياً وذلك رعاية للظروف واحكاماً لخطط الثورة .

ولما بلغهم موت معاوية وهو بداية التحول الى عهد الانطلاق من نير عهود العبودية ، فأول شيء قاموا به هو عقد الاجتماعات، والمداولة حول مراسلة الحسين (ع) ، ودعوته الى القدوم اليهم ، فقد آن أوان النهضة وحل موعد الاستجابة لمطالبهم ، ولكنهم لم يقدموا على المراسلة إلاّ بعد أن يلمسوا اتجاه الغالبية قبل الدخول في هذا الصراع العنيف ولا بد أن يتعرفوا على القوى التي تشترك معهم في هذا الصراع في الإقدام والتضحية كل ذلك قد حسبوا له حسابه .

أما النتائج فذلك رهين بامور أكثرها خارج عن الإرادة ، فقد يأتي القدر بما ليس في الحسبان ، وارادة الله فوق كل شيء .

وهنا لا بد من عقد اجتماع عام لطرح الفكرة أمام الأنظار ،فعقدوا أول أجتماع في بيت سليمان بن صرد الخزاعي ، وهو أحد زعماء الكوفة ومن الصحابة وشجعان العرب المشهورين ، وحضر وجهاء الشيعة وأعيان البلد ورجال المصر في ذلك الاجتماع .

فقام سليمان فيهم خطيباً وحمد الله وأثنى عليه ثم قال : إن معاوية قد هلك وان حسيناً قد أعلن على القوم خلافه ، وخرج الى مكة وانتم شيعته وشيعة أبيه .

فإن كنتم تعلمون انكم ناصروه ، ومجاهدوا

عدوه فاكتبوا اليه ، وإن خفتم الفشل والوهن فلا تغروا الرجل في نفسه .

فأجاب أكثر الحاضرين وقالوا . لا بل نقاتل عدوه ونقتل أنفسنا دونه قال سليمان: فاكتبوا اليه فكتبوا اليه وذلك في أواخر شعبان [1] .

بسم الله الرحمن الرحيم

الى الحسين بن علي (ع) من سليمان بن صرد ، والمسيب بن نجبة ورفاعة بن شداد البجلي ، وحبيب بن مظاهر وشيعته المؤمنين من أهل الكوفة سلام عليك فأنا نحمد اليك الله الذي لا إله الا هو . اما بعد فالحمد لله الذي قصم عدوك الجبار العنيد الذي إعتدى على هذه الأمة ، فابتزها أمرها ، وانتزعها حقوقها ، وغصبها فيئها وتأمَّر عليها بغير رضاً منها ، ثم قتل خيارها وأستبقى شرارها ، وجعل مال الله دولة بين جبابرتها . وأغنيائها فبعداً له كما بعدت ثمود وأنه ليس علينا إمام ، فاقبل لعل الله أن يجمعنا بك على الحق ، والنعمان بن بشير في قصر الامارة لسنا نجتمع معه في جمعة ولا عيد وقد حبسنا أنفسنا عليك ، ولو اقبلت الينا أخرجناه حتى نلحقه بالشام [2] .

---

(١) الفتوح لابن أعثم ج ٥ ص ٤٤ .

(٢) الخوارزمي ٢/١٩٤

وأرسلوا الكتاب مع عبدالله الهمداني وعبدالله بن وائل وأمروهما بالإسراع والنجا من المراقبة فأسرعا وقدمــــا الى الحسين في مكة لعشر مضين من رمضان .

وبعد مضي يومين من تسريح الكتاب بعثوا مــــع قيس بن مسهر الصيدواي ، وعبد الرحمن بن عبدالله بن ابي الكنود، وعمارة بن عبيد الله السلولي ومعهم نحو من ثلاث وخمسين صحيفة، أو مائة وخمسين صحيفة[1] من الرجل والاثنين والأربعة. ثم بعد يومين آخرين أرسلوا هاني بن هاني السبيعي وسعيد بن عبدالله الحنفي ومعهما كتاب هذا نصه :

بسم الله الرحمن الرحيم

للحسين بن علي من شيعته من المؤمنين ،
أما بعد فحيهلا فان الناس ينتظرونك ، ولا رأي لهم غيرك فالعجل العجل والسلام عليك[2].

واشترك في مراسلة الحسين ودعوته عناصر من غير الشيعة كالخوارج فكتب اليــه من زعمـــائهم : شبث بن ربعي، وحجار بن أبجر ويزيد بن الحارث ويزيــــد بن رويم وعزرة بن قيس وعمر بن الحجاج الزبيدي ومحمد بن عمير التميمي .

أما بعد : فقد اخضر الجناب وأينعت الثمار فاذا شئت فاقدم على جند لك مجندة والسلام عليك[3] .

---

(١) سبط ابن الجوزي ص ٢٤٤ ، التذكرة .

(٢) سبط ابن الجوزي ص ٢٤٤ ، التذكرة . والشيخ المفيد ص ٢٠٣

(٣) مقتل ابي مخنف مخطوط .

وتواردت الكتب على الحسين من الكوفيين وهي تدل على استغاثة مما أصاب الأُمة من نكبات الانحراف عن الدين ، وتلاقت الرسل عنده ووردت عليــــه الرسائل من مختلف الناس ، ولم يحصلوا على الجواب . إلى أن ورد اليه كتاب من خلّـص شيعته وهم يؤكدون عليه ويخبرونه باتفاق الناس ، واستجابتهم لدعوته ، ويقولون : ان الناس ينتظرونك، ولا رأي لهم غيرك فالعجل العجل والسلام .

* * *

وهذا الهياج الشامل والصرخة المدوية وإستغاثة هذا العدد الهائــــل ووصول آلاف الكتب من إناس يستصرخون الحسين لانقــــاذهم من براثن الظـــالمين ، كما وصلت قائمة بأسماء العشائر الذين ينتظرون قدومه والمناصرين له يبلغ عددهم مائة ألف مقاتل ، هو أوضح دليل على حصول الظرف المناسب للإسراع بالإستجابة ، وأصبحت الاجابة حتمية نظراً لما يقتضيه الوضع في معالجة المشكلة من أقرب الطرق ، وأنجح الوسائل ، وكان القادة للدعوة هم رجال الشيعة من زعمـــاء الكوفـة ، ورؤسائها والذين يمثلون كتلاً قوية لها سيادتها ، وقــــد وردت كتبهم بما تطمئن اليه النفس،وكل هذا لم يبعث في موقف الحسين إلا التريث وعدم الاسراع في الاجابة،ولكنه قرر عليه السلام أن يرتاد الوضع بمن يثق به من أهل بيته فيكون رائد حق ومخبر صدق، فانتدب لهذه المهمة ابن عمه مسلم ابن عقيل .

ولا نغفل أهمية هذه السفارة ، ومكانة مسلم من هذا الاختيار ، فهو يدل على سموه وعلو شأنه ، في تدبير الأمور فقد منحه الله موهبة عظيمة ، نال بها اختيار الحسين له واعتماده عليه كما جاء في كتابه باني باعث اليكم أخي وابن عمي وثقتي من أهل بيتي مسلم بن عقيل .

ولا شك من قيام مسلم بن عقيل في مهمته أحسن قيام وسار كما يحتمه عليه واجبه الديني ، ولكن التاريخ ظلم حقه فأسدل الستار على مواقفه الخطابية ، وتوجيهاته مدة بقائه في الكوفة ، وكما ياتي ان هناك حلقة بل حلقات ـ من تاريخ حياة هذا البطل المجاهد مفقودة وسيكشفها التحقيق ، ويزيل غموضها التتبع ، فقد اخذ الكتاب يوجهون الأضواء على حادثة الطف التي هي أهم حادثة في التاريخ الإسلامي .

مسلم بن عقيل

(٦)

أُنيطت بمسلم بن عقيل بن ابي طالب مهمـــة السفارة ومسؤولية اكتشاف واقع الحال في الكوفة،بعد أن تواترت الكتب على الحسين(ع) بالدعوة وإعلان البيعة له ، فأرسل (ع) رائداً صادقاً ونائباً محنكاً يسبر غور ذلك المجتمع ، ويقف على حقيقة أمر الدعوة، وأن يكتشف الحال، ويعرف الأوضاع وزوّده بكتاب منه ، معتمداً عليه واثقاً بكفائـته ، لهذه المهمة وجاء فيه

أما بعد فقد فهمت كلما اقتصصتم . وقـد بعثت اليكم أخي وابن عمي ، وثقتي من أهـل بيتي مسلم بن عقيل ، وأمرته أن يكتب إلي انه قد اجتمع رأي ملأكم وذوي الحجى منكم على ما قدمت رسلكم ، وقرأت في كتبكم فاني أقدم اليكم وشيكاً إن شاء الله ، فلعمري ما الامام إلاّ العامل بالكتاب ، القائم بالقسط ، الدائن بالحق ، الحابس نفسه على ذات الله [1].

وهذا الكتاب يعتبر وثيقة سياسية لها أثرها في كشف حقائق لا غنى للباحث عن الوقوف عليها،لإيضاح بعض ما أُبهم من جوانب سيرة مسلم ،

(١) الطبري ج ٦ والشيخ المفيد ص ٢٠٢ .وتذكرة الخواص ص١٩١ .

وحسن قيادته لأن هذه الوثيقة تحدد مسؤولية مسلم في سفارته، فهو رائد يتعرف أوضاع ذلك المجتمع الهائج في الدعوة لاستنهاض الحسين(ع) والإستغاثة به فلم يؤمر مسلم بثورة ضد العناصر المعارضة لقدوم الحسين، ولم يعهد اليه إقامة حكومة مؤقتة إلى أن يقدم الحسين ، وإنما أُنيطت بـه مهمة الإستطلاع على الآراء ، والوقوف على حقائق الأُمور ، من معرفة اتجاهات الناس وأوضاعهم ، فهو رائد حق ورسول صلاح .

* * *

وسار مسلم بن عقيل نحو الكوفـة . حاملاً أعظم مسؤلية ، وممثلاً لأكبر شخصية إسلامية في عصره، فهو رائد حق ، ورسول إمام حق، استغاث بـه الناس لينقذهم من براثن الظلم والاستعباد .

وكان الناس بانتظار قدوم الحسين (ع) وهم يتطلعون أخبـاره والكوفـة تغلي كالمرجل في التأهب لما سيحدث عند قدوم الحسين من معارضات ، أو خلاف من بعض الفئآت المعارضة .

وكان قدوم مسلم يُعد انتصاراً وفتحاً جديداً للشيعة ، ومن وافقهم في دعوة الحسين من العناصر الأُخرى .

وعندما دخل الكوفة أحدث دخوله موجة فرح وتباشر ، ودخل الناس من مختلف الطبقات أفواجاً أفواجاً للسلام عليه ، والترحيب فيه وبعد عقد اجتماع حضره وجوه البلد ، تلى عليهم كتاب الحسين (ع) وانه

استجاب لدعوتهم وأرسل ابن عمه مسلماً ممثلاً عنه وسفيراً يتحمل المسؤولية الى أن يقدم الحسين (ع). وهذه أُمنية حققتها الكوفة بعد عناء طويل فقد بذل زعماؤهم كلما في وسعهم أن يستجيب الحسين لمطالبهم في حياة أخيه الحسن وبعد وفاته، والآن بعد مضي زمن طويل يستجيب لدعوتهم ويوعدهم بتحقيق أُمنيتهم بعد أن ياتيه جواب رسوله مسلم ابن عقيل.

وبعد تلاوة الكتاب علت الأصوات بالاستجابة، وهتفوا بالبيعة ورحبوا بالسفير القادم وتبادروا نحو مسلم بن عقيل لبيعة الحسين (ع) على السير تحت لواء الاسلام والتضحية دونه مهما كلفهم الأمر، وقد عمهم الفرح وتباشروا بتحقيق الأُمنية، وانتشر الخبر في الكوفة، فتهافت الناس على مسلم وازدحمت وفود العشائر في دار المختار بن ابي عبيدة.

وهذه الظاهرة تبعث على الاطمئنان والثقة من حسن الوضع، ونجاح المهمة، ولم يهمل ابن عقيل ناحية الاجتماعات الخاصة لمداولة الرأي في جواب الحسين، فكان يختص بأهل الرأي والحجى من زعماء الكوفة حول الأوضاع وقدوم الحسين، ويكون الجواب بالترحيب وطلب الإسراع في القدوم.

كما أنه أعطى حالة البلد العامة أهمية فقد لمس الاستقرار الشامل إذ الكوفة يسودها هدوء وليس فيها حركة مقاومة لدعوة مسلم، ولا معارضة لقدوم الحسين، واطمأن مسلم بعد بذل الجهد في التعرف على الأوضاع وكانت الجموع تروح وتغدو وهم يكررون عبارات الولاء،

والتضحية والفداء ، بما يبعث على الأمل بالنجاح ، واعتماداً على ما لمسه من هذه الظاهرة ، وما وقف عليه من اقبال المجتمع ظاهراً ، ومــا تكنّـه الصدور فامره الى الله .

هناك بادر بالكتابة الى الحسين (ع) يخبره باجتماع الرأي وإنتظـار الجميـع لقدومه فارسل كتاباً يقول فيه : الرائد لا يكذب أهله ، وقد بايعني ثمانية عشر ألفاً فعجّـل بالإقبال حين ياتيك كتابي هذا [1] .

وأرسل الكتاب مع وفد من أهل الكوفـة وعلى رأسهم عابس بن شبيب الشاكري ، وهو بطل من أبطال العرب ، ومعروف باخلاصه وولائه لأهل البيت عليهم السلام ، وقدوم الوفد يزيد الموقف وضوحاً ، ويعطي فكرة التوجه جلاءً فلا غموض في الموقف إلاّ ما يحدث من قدر مما لا سلطان للانسان في رده .

المعارضة

ويقض أنصار الأُمويين ، ومن سار على شاكلتهم في الخط المعاكس، فوجدوا الخطر يحيط بهم والحكم الأُموي مهدداً بالاطاحه، عندما انتشرت الدعوة للحسين ع بالكوفة ، وتهافت الجموع للبيعة وتصدر الزعماء لقيادة الحركة ، وكان النعمان بن بشير يتجاهل الوضع ، ولم يبد منه أيّ عمل ضد تلك الحركة ، وربما كان تريثه عن مكيدة ودهاء ، فهو سياسي اتخذ

---

(١) التاريخ الكبير لابن عساكر ج ٤ ص ٣٣٤ .

السكوت وسيلة لنجاحه . في تدبير الأمور الى أن يرى رأي السلطة الحاكمة في الشام .

وقد اختاره الأمويون لكبر سنّـه وصحبته وبرودة مزاجه بعد أن تعاقب على الكوفة ولاة قساة ، أثقلوا كاهل العرب في الإهانـة فكانت ثورات تتفجر بين آونة وأخرى فتخمد بقوة وبمنتهى القسوة ، وكانت الخطة التي سار عليها النعمان بن بشير لم ترق لأنصار الأمويين وأحلافهم ، فتجمعوا لدرء الخطر لوجود مسلم، وإنتشار نبأ قدوم الحسين،وراحوا يستنهضون السلطة الحاكمة وطلبوا من النعمان بن بشير تدارك الأمر ، وإبداء رأيه حول هذه المشكلة ، إذ الناس في هياج عندما دخل مسلم بن عقيل مزوداً بكتاب الحسين ، وبايعه كثير منهـــم وظهرت الحرورية بصورة علنية ضد الأمويين .

وهنا لا بد أن يعلن الأمير عن رأيه في مقابل هذه الأمور التي تجري بسرعة نحو انهيار الدولة .

فصعد المنبر وحمد الله وأثنى عليه ثم قال:
أما بعد فاني لا أقاتل إلا من يقاتلني ، ولا أثب إلا على من يثب علي ،ولا آخذ بالظنة أحداً
فأجابه أحدهم : هذا رأي المستضعفين .
فزجره النعمان قائلاً :
لأن أكون من المستضعفين في طاعة الله ، خير من أن اكون من الجبارين في معصيته .

وهذا البيان من الأمير يعلن عن حياد تام ، وحب للسلامة وفيـــه

خيبة أمل أنصار الأُمويين ، كما انه في الوقت نفسه ضيّع الفرصة على بعض الفئآت المندسة، والتي تقف وراء الحوادث لوقوع الخلافات ، واتساع الشقة والوثبة لغايتهم على جناح الانتهازية .

وقد صدر عنه كلام في تهديد وتوعيد لمن خالف أمره وخرج عن طاعة إمامه [1] .

وكان موقف الأمير في حبه للسلامة هو أنفع من التسرع في إثارة الحرب ، لأنه يعلم ضعف الجانب الأُموي ، فكان منهجه منهج مداراة ، حتى تقوى الجبهة الأُموية بارسال من يتولى ادارة كفة شؤونها .

وهنا قرر زعماء التكتل الأُموي رفع الأمر الى يزيد واطلاعه على الأمر ، ولإخباره بموقف الوالي وضعفه ، ووقّع الكتاب جماعة ، منهم عمر بن سعد وعبد الله بن مسلم بن ربيعة الحضرمي ، وعمارة بن عقبة بن أبي معيط ، وغيرهم .

وأسرع البريد الى الشام فوافى يزيد بهذا النبأ الهام فضاعف تخوفه من الحسين ، إذ كان يعير قضيته أكبر اهتمام، وهو في مكة والآن أصبحت الكوفة وهي ذات السيادة تقف الى جنب الحسين (ع) علناً .

فاضطرب حبل استقراره ، ولجأ الى أهل الرأي والمشورة من كبار أنصاره ومعاونيه ، وكان ابرز مشاوريه سرجون مولى معاوية، وهو

---

(١) الفتوح ٥/٥٨ .

رجل مجوسي يحقد على العرب ، فاشار عليه بعزل النعمان، وتولية عبيد الله ابن زياد ، ويقال : إن سرجون كان يرعى الرابطة التي بينه وبين ابن زياد ، لأن سرجون مجوسي العقيدة وكانت مرجانة على عقيدته ، فاراد أن يقدم ابن مرجانة ، ويوليه المصرين ، ليفتك بالعرب ، ويوقد بين المسلمين نار حرب يكون وقودها المسلمون . فكتب الى عبيد الله بن زياد.

* * *

أما بعد فانه كتب الي شيعتي من أهل الكوفة يخبرونني أن ابن عقيل يجمع الجموع ويشق عصى المسلمين فسر حين تقرأ كتابي هذا حتى تأتي أهل الكوفة ، فتطلب ابن عقيل طلب الخرزة حتى تثقفه فتوثقه أو تقتله أو تنفيه [1] .

أستلم ابن زياد عهده ، وأصبح أمير المصرين ، البصرة والكوفة فأقام أخاه عثمان على البصرة وخطب الناس وهددهم ان خالفوه .

وقال :

يا أهل البصرة إن أمير المؤمنين يزيد قد ولاني الكوفة ، وأنا سائر اليها غداً ، وقد آستخلفت عليكم أخي عثمان بن زياد ، فاياكم والخلاف والارجاف، فوالذي لا إله إلاّ هو،

---

(١) الطبري ج ٦ ص ٢٠٠ .

لو بلغني عن رجل منكم خلاف لأقتلنه ، ولأقتلن عريفه ، ولآخذ الأدنى بالأقصى ، حتى تستقيموا لي ، فاحذروا ان يكون لي فيكم مخالف فأنا ابن زياد الذي لم ينازعني عم ولا خال [1] .

(١) ابن أعثم ٥ / ٦٤

نحو الكوفة

تجهز ابن زياد من ساعته ليرحل عن البصرة ، وفي تلك اللحظات قدمها رسول الحسين (ع) سليمان مولاه ، ومعه كتب لأشرافها منهم مالك بن مسمع البصري ، والأحنف بن قيس ، والمنذر بن الجارود ، ومسعود بن عمر ، وقيس بن الهيثم ، وكانت الكتب تتضمن دعوة الحسين لهؤلاء يستنهضهم لمؤازرته في نهضته ضد الوضع القائم الذي أضر بمصالح المسلمين .

وكان المنذر بن الجارود شديد الحذر من ابن زياد بالرغم من مصاهرته له ، فخشي أن يكون الرسول مدسوساً اليه ، من قبل ابن زياد ، فقدمه اليه لتبرأ ساحته ، وكان ابن زياد على أهبة الترحال ، فقدم الرسول ضحية فداء قبل سفره بقليل فقتله وصلب جسده . وأول شيء فكر فيه ابن زياد لتحقيق مهمته في الكوفة هو سلوك طريق التخذيل عن مسلم بشتى الوسائل ، ووجد أقوى عامل لتحقيق ذلك هو جلب رجال من البصرة لهم مكانتهم في الكوفة ، ولهم منزلة مرموقة بين القبائل ، فهم عندما ينزلون الكوفة ويقدمون على أبناء عمومتهم لا بد ان يمنحوا الكرامة والتبجيل ، ومن هناك يسيرون في الخط الذي ضربه لهم فانتخب

من وجهاء البصرة وزعماء المصرين جماعة يستطيع بهم ان يسند قوته ، وان يرسلهم في ميدان التخذيل ومجالس المفاوضات مع أبناء عمومتهم في الكوفة ، وبالطبع إن هؤلاء الوفود لهم أثرهم في الاستجابه لما يطلبون (ولكل قادم كرامة) ، كما أنه صحب من أبطال الجند المدرب خمسمائة فارساً .

وسار ابن زياد بسرعة فائقة ومعه حراس أقوياء وجيش بكامل عدته ومعه جماعة من أشراف البصرة ، فكان لا يمر بحيّ من أحياء العرب إلا وظنوا إن هذا الركب هو ركب الحسين (ع) وهم يستبشرون بقدومه إذ سبق أن علموا بدعوة أهل الكوفة له ، وكان استبشار الأعراب في البادية يبعث فيه نشاطاً لدخول الكوفة ، قبل أن يدخلها الحسين(ع) فسار بسرعة هائلة ، عجز عن مسايرته أصحابه ، ولم يلحقه إلاّ مولى من مواليه اسمه مهران وقد أعياه النصب في القادسية ، فقال ابن زياد : يا مهران على هذه الحالة إن أمسكت حتى تنظر الى القصر فلك مائة ألف . قال : لا والله ما استطيع .[1]

وتأخر مهران وسار ابن زياد بمفرده حتى دخل الكوفة .

كيف دخل الكوفة :

يحيط الغموض بكيفية دخول ابن زياد الكوفة ويكتنف هذا الموضوع جهالة تدعو الى كثير من التساؤل :

---

(١) الطبري ج ٦ ص ٢٠١

فهل دخلها في وضح النهار بهيئة أمير جديد تحوط به حراسه ويتبعه جنده ويستقبله أعوانه ؟

أم دخلها متنكراً لا يعرف من هو ؟

وهل صحيح أنه دخل بزي أهل الحجاز مُعتماً بعمامة سوداء فظن الناس انه الحسين ؟ .

وهل وقعت مصادمات عند دخوله كما في بعض النصوص ؟ أم انه دخل بصورة سلمية ؟

والذي يظهر من التتبع ويوضحه سير الحوادث ، هو أن توجه ابن زياد الى الكوفة ، وتولية أمرها قد سبق خروجه من البصرة، وذلك عن طريق جهاز الدولة، ليكون أنصار الأُمويين على أهبة الاستعداد لقدومه، خشية من الطوارىء التي تعترض دخوله .

وعندما شاع نبأ توجهه قويت عزائم العثمانية ، ونشط الأُمويون وأُصابت الخوارج خيبة أمل لعلمهم بعداء ابن زياد لهم ، إذ عاملهم في البصرة بشدة حيث قتلهم بدون رحمة . وشردهم في البلاد ، وهنا لا بد أن يعدوا العدة للتخلي عن كل مشاركة في أي أمر يثير غضبه عليهم ، كما لا بد من أن يظهروا بمظهر الولاء للدولة ، حقناً لدمائهم ، وابقاءً على نفوسهم ، فيتعاونوا مع ابن زياد للقضاء على عدوهم .

ومقتضى واقع الأمر أن يزيد لم يعتمد على ابن زياد كفرد يتمتع بقوة وله خبرة سياسية فقط ، فيدخل الكوفة أعزل من السلاح والجند ،

بل لا بد وأن يكون مزوداً بقوة ذات عدة وعدد كافٍ ، لخوض معركة حاسمة ، تقرر مصير العهد الأُموي ، بالإضافة الى العناصر الموالية للأُمويين ، فهي على استعداد للوثبة عندما يجمع شملهم قائد له خبرة ودهاء ، وكان قدوم عبيد الله فاتحاً ، وقد توجه الى الكوفة بجيش قوامه خمسمائة فارس على اقل احصاء [1] .

وقد صحب معه جماعة من وجوه أهل البصرة ورؤساء القبائل من الذين لهم نفوذهم بالكوفة وعشائر ينتمون اليهم، وهؤلاء يقومون بدور الدعاية والتخذيل .

ويظهر من بعض المؤرخين القدامى: انه عند قدوم عبيد الله الكوفة اصطدم بجيش الشيعة الذين سارعوا لصده عن الدخول ، ولكنه أسرع فدخل القصر وأغلق بابه [2] .

* * *

وكيف كان فقد استولى ابن زياد على مركز الحكم في الكوفة، ودخل قصر الإمارة وكان قد تجمع فيه أعيان قومه ، وكبار أنصاره الذين كانوا ينتظرون قدومه وكان القصر فيه من الذخيرة والسلاح شيئاً وافراً ، إذ لم يتعجل زعماء الدعوة الى المبادرة للسيطرة على المال والسلاح في قصر الإمارة ، ولعل ظروفهم لم تساعد على الإسراع والمبادرة .

---

(١) الطبري ج ٦ ص ٢٠٠ .

(٢) المقدسي : البدء والتاريخ .

وعلى أي حال فقد تغيرت الأحوال ، وتبدلت الأوضاع عند دخول ابن زياد وجيشه ، وتحول مجرى كثير من الحوادث الى العكس ، كما تحول اتجاه كثير من الناس بمجرد دخول الأمير الجديد ، فقد استطاع كسب عدد كبير من الزعماء الذين وقفوا على جانب الحياد، من حركة التحرر من حكم الأمويين ، وأصبح بامكانه التغلب على الموقف بتلك السرعة .

بداية العمل

ولما أصبح أراد أن يستعجل الحوادث ، ويتدارك الأمر بسرعة وبشدة . وكان من عادة كل أمير جديد أن يدعو للصلاة جامعة ، ويقرأ على الناس كتاب توليته ويتناول سياسته بشيء من التفصيل ، وفاقاً للظروف الحاضرة .

ولما اجتمع الناس للصلاة خرج ومعه الأشراف من الكوفة والبصرة. وصعد المنبر ليعلن مهمته وسياسته فقال :

أما بعد فان امير المؤمنين ولاّني مصركم وثغركم وفيئكم وأمرني بانصاف مظلومكم واعطاء محرومكم ، والإحسان إلى سامعكم ومطيعكم ، وأنا متبع فيكم أمره، فأنا لمحسنكم كالوالد البر ، وسيفي وسوطي على من خالف أمري وعهدي [1] .

فلما كان في اليوم الثاني نادى بالصلاة جامعة :

---

(١) الحسين بن علي لأبي نصر ص ٧٦ (ابن أعثم ٥/٦٦)

فلما اجتمع الناس خرج اليهم بزي هو خلاف
ما خرج به امس ، فصعـــد المنبر فحمد الله
وأثنى عليه ثم قال :
أما بعد فانه لا يصلح هذا الأمر إلا في
شدة من غير عنف ولين في غير ضعف وأن
آخذ منـــكم البريء بالسقيم والشاهد بالغائب
والولي بالولي .

وبهذا استفز شعور الناس وخوفهم، فقام اليه رجل يقال له أسد بن
عبدالله المري فقال :

أيها الأمير ان الله تبـارك وتعالى يقول :
(وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ) إنما المرء بجده
والسيف بحده والفرس بشده وعليك أن تقول
وعلينا أن نسمع فلا تقدم فينا السيئة الحسنة[1].

سكت ابن زياد عند سماعه لهذه المجابهة الصريحة والرد الصحيح ، ولم
يتخذ الشدة مع هذا الرجل الذي يعتبر موقفه موقف معارضة للمنهج
الذي خطه ابن زياد في مسيرة ولايته ، ولا يستبعد ان سكوته ونزوله
عن المنبر ودخوله القصر ، كان اعلانا لغضبه ، ولا بد أن يثأر من هـذا
الرجل بأسرع وقت ممكن .

ودخـــل قصر الامارة واجتمع بأعوانه لاطلاعهم على مخططه
الذي وضعه في رد خطر دعوة الحسين ، ومبايعته ، وبعد قليل أصدر
أوامره وشرع في تنفيذ مخططاته ، وأول خطوة خطاها ان جمع العرفاء

---

(١) ابن اعثم ٥/٦٧ .

وأخذهم بشدة ، وأمرهم بأن يكتبوا له أسماء من تحت عرافاتهم ومن فيهم من طلبة يزيد والحرورية والخوارج ، ومن يشك فيه فمن قام بما يامره بهُ برّىء ومن لم ينفذ أمره برئت منه الذمة وحلّ دمه وماله، وأيّما عريف وجد في عرافته أحد من هؤلاء لم يرفعه صُلب على باب داره ، وأُلغيت عرافته[1] .

وقام بكل حزم تسانده القوى المعادية لأهل البيت ، وقد شق طريقه لبث روح الفرقة وتفتيت ذلك الجمع الذي التف حول مسلم بن عقيل ، فانتشر دعاته في البلد تهديداً وتوعيداً ، وأشاعوا أن جيش الشام على الأبواب ، كما اتصل بعض زعماء البصرة بعشائرهم يخذّلونهم ، ويخوفونهم سوء العاقبة ، وانتشر بيان ابن زيادالذي يعتبر إنذاراً قاسياً وهويتضمن البنود التالية :

١ – احصاء العرفاء لمن يرى فيه الخلاف لبني أُمية وفي ضمنهم الحرورية والخوارج .
٢ – يقوم العرفاء بالإحصاء فيقدموا قوائم بالأسماء وصحائف بالأعمال .
٣ – يقوم العرفاء بالمراقبة الشديدة على من يتهم بالميل لجانب مسلم بن عقيل .
٤ – أي عريف يوجد في عرافته أحد ممن يتهم بالانحراف عن يزيد وعدم الرضا ببيعته فإن العريف يحكم بالصلب على باب داره .

---

(١) الإرشاد للمفيد ص ٧٩

٥ - أي عريف لم يكتب عن أحد فيلزمه
أن يتعهد بعدم المخالفة وأن لا يصدر من أي
أحد في عرافته شيء يؤدي إلى قلق الدولة .

وانتشر الرعب في البلد ، وأخذ العرفاء ينفذون بنود هذا المنشور امتثالاً لأمره وهو الذي عرف بالشدة والغلظة ، وهو يحمل قلباً لم تدخله الرحمة .

واول تنفيذ لهذا البيان قام العرفاء بتقديم قوائم بأسماء من عرفوا بالإنحراف عن الأمويين من الشيعة وغيرهم .

وانتشرت في البلد أنباء قدوم جيش الشام ، وقام المخذلون بقسط وافر من نشر الرعب في البلد ، فأخذ الأب يمنع ولده ، والأخ أخاه من المشاركة في المعارضة ، والانضمام لمسلم بن عقيل .

وأخذت القبائل تمسك بزعمائها حفظاً لهم من سطوة ابن زياد ، فقد أمسك بنو أسد بزعيمهم حبيب بن مظاهر ومذحج بهاني بن عروة وغيرهم وبقي الآخرون يترددون على مسلم بن عقيل ، مع الحذر والمراقبة الشديدة ، وقام العرفاء بواجبهم يصحبهم جند ابن زياد ، والعريف في اللغة هو من يعرّف أصحابه ومنه الحديث « فارجعوا حتى يرفع الينا عرفاؤكم امركم » وهو القائم بأُمور القبيلة والجماعة من الناس يلي أُمورهم ويتعرف الامير منه احوالهم [1]

---

(١) الزبيدي تاج العروس ج ١ ص ١٩٤ .

وتسمية العريف من التنظيمات العسكرية الاسلامية. إذ جعلوا من كل عشرة من الرجال لرجل وسمّوه عريفاً وجعلوا أمر كل عشرة من الرجال إلى أمير سمي أمير الاعشار، وكان يقود امراء التعبئة وهم امراء الوحدات في التنظيم العسكري الحديث.

وبذلك أصبح العرفاء يقودون الخليّة وهي الحضيرة، أما أُمراء الأعشار فيقودون قوة لا تقل عن مائة مقاتل وهم يقابلون امراء السرايا حالياً [1].

وأصبح الموقف في الكوفة مضطرباً والناس في حيرة من هذا الأمر المفاجيء فقد أحدث قدوم ابن زياد تحولاً غريباً، وقد ظهرت قوة الحزب الأُموي للوجود. بعد أن أشرفت على العدم، وأبعد النعمان بن بشير ورحل الى الشام واستولى ابن زياد على الحكم بسرعة فائقة، فوزع من يعتمد عليهم على المراكز المهمة، والوظائف الحساسة، وأسند قيادة الجيش لجماعة آخرين ووزع الأموال، وواصل اتصالاته بمختلف الطبقات لإحكام خطة القضاء على مسلم، ومعالجة مشكلة اتباعه، وتتابعت فلول العناصر الحاقدة، وتجمعت في الكوفة منضمة الى الكتل المقيمة في الكوفة من عناصر المواجهة، والذين يهمهم عرقلة انتصار دعوة الحسين لأنهم قد أحكموا الخطة لتصفية الحساب مع الاسلام وقام اليهود الذين اجلاهم عمر بن الخطاب إلى الكوفة بمهمة التنفيذ للمخططات.

---

(١) عبد الحميد حسين: الفتح الاسلامي في العراق ص ٦٨.

موقف مسلم بن عقيل :

لم يكن مسلم بن عقيل ليجهل الخطط العسكرية أو هو بعيد عن المواقف الحربية ، أو بمعزل عن الأمور السياسية ، حتى يؤخذ عن غرة ، ويباغت بهذه المباغتة ، فلم يتخذ أشياء لردها أو يقف مكتوف اليد امامها .

إنه من أهل بيت اصطدموا بحروب ، وخاضوا معارك في سبيل اعلاء كلمة الحق ، وعالجوا الامور من طرقها المشروعة . وهو كما قلنا رائد لتحقيق امور قد تخفى على كثير من الناس ، فهو لم يؤمر بحرب ، أو تشكيل حكومة ، واعلان ثورة، بل كانت مهمته محدودة ، فهو معتمد يشرف على امور الناس في توجيه مسيرة الدعوة ، استعداداً لمقدم الحسين بتدبير ما يتعلق بنجاح الحركة من الامور المشروعة .

وأهل البيت لم تتركز دعوتهم على عوامل العنف ، والدخول في أُمور عن طريق مخالفة الدين الاسلامي، ولم تكن سياستهم كغيرهم تظهر للوجود في قوالب التفرقة في نشر ما يؤدي إلى الانقسام ، من تحريك النعرات القبلية،واثارة الأَحقاد العشائرية ، واستعمال لغة الدّس والكذب والدعاية في الارهاب ، والخوف ، والاغراء بالألفاظ المعسولة .

بل سارت دعوتهم على ممر الأيام تأخذ طريق الاستقامة والاعتدال وعدم اراقة الدماء إلاّ بحق ، والتحفظ عن الاعتداء ومبادرة الخصم ، أو الأخذ بدون جناية .

ومما زاد الموقف آنذاك تعقيداً هو تمسك الأمير السابق بالحياد وعدم المبادرة الى أخذ الإجرآءات ضد مسلم بن عقيل ، بل سارت الأمور في الكوفة بهدوء، ولا يحتاج الموقف الى أخذ احتياطات أكثر مما اتخذه رجال الدعوة في نشرها ، وجلب أكبر عدد ممكن من ذلك المجتمع الكبير اليها .

وقد كانت العناصر المختلفة والفئآت المتنازعة تعمل بالخفاء لاحباط الحركة ، وفشل الدعوة ، فكانوا ينضمون الى الجهة الموالية للامويين ، ويشجعونهم في المبادرة من جهة ، ويشاركون رجال المعارضة من جهة أخرى ، ليلعبوا الدور الذي يضمن سلامة مصالحهم ، وتحقيق أهدافهم وفي ذلك الجو الهادئ،والاقبال الهائل على مبايعة مسلم ، انفجرت الكوفة عما تخبئه الأقدار وتضمره الحوادث ، وإذا بها تموج كالمرجل وتسرع الى الانقلاب كالسيل من رؤوس الجبال ، وإذا بتلك الجموع تتجه اتجاهاً عكسياً .

الحملة القاسية :

لقد فوجيء مسلم بن عقيل (ع) بقدوم ابن زياد واتخاذه تلك الحملة القاسية من أخذه الناس بالشدة ومعاملته لهم بالقسوة والعنف فالرعب قد انتشر بالكوفة ، والخذلان أخذ دوره في صفوف الناس ، والاعتقالات متواصلة ، والصلب على الأبواب والقتل في الساحات .

وكان موقف مسلم موقف الحكيم المتريث الذي ينظر الى عواقب

الأُمور بدقـة ، فلم يقدم على ايقاع البلد في هوة حرب أهلية ، ولم يتعجل بمن معه من أنصاره فيهاجم ابن زياد ، وليس من خطته المهاجمة ، ولا هو مأذون في ايقاد الثورة فهي عقيمة النفع سيئة النتائج .

كما أن علو نفسه ، وشرف محتده لم يسمحا له بان يستعمل الغدر ، والخيانة حينما دعى للفتك بابن زياد في دار شريك .

وما يروى أن جارية شريك اعترضته عندما أراد تنفيذ الخطـة فذاك أمر لا صحة له ، فإن مسلم بن عقيل لم يكن بتلك الدرجة من جهل العواقب في قبح القتل بالغدر ، والأُمور السيئة المترتبة على تنفيـذ تلك الخطة ، ولو أنه قام بتنفيذها فهل يا ترى يصفو الجو ، وتطوى صحيفة سيادة الأُمويين على الكوفـة وينتهي كل شيء ؟ أم تتضاعف المشكلة ، بوجود الكثير من الزعماء فيقومون مقام ابن زياد ؟ هذا من جهة .

ومن جهة أُخرى أن الخطة لو نفذت لكانت فتحاً جديداً لبني امية في اسناد وصمة الغدر والفتك لأهل البيت وبهـذا العمل تقوم دعاياتهم المغرضة ضد دعوة الحسين ، بان فاتحة عهده مبني على الغدر والخيانة ، فكيف تطمئن النفوس اليه، ويظهر ممثل الحسين وسفيره بصورة لا تتفق مع واقعه ، فهو قد جاء ممثلاً عن الحسين وليس هذا من رأي الحسين ، ولو فعله مسلم لخالف الحسين وأصبح خارجاً عما رسمـه له من مخطط السفارة .

ولقد تمسك مسلم بما شرعه الله وسار على ما يقتضيه نظام دعوة الحق.

دور التكتم :

انتقلت الدعوة من دور الاعلان إلى دور التكتم ، فقد اعتقل اكثر زعماء الشيعة،وانقلب اهل الاطماع لجانب ابن زياد وطلبوا وده،فاختفى اكثر من اشترك في الكتابة للحسين ، وحبست البيوت رجالها خوفاً من ابن زياد وأمسكت الامهات بأولادها ، والقبائل بزعمائها وبقي مسلم (ع) يواجه هذه المشكلة بصبر وتأنّ ، ولم يتسرع في تفجير الثورةوصار خلّص اصحابه يختلفون اليه لمعالجة المشكلة ـ من طرقهـــا المشروعة تجنباً من خطر المسارعة في الأمر قبل احكامه .

وكان أهم شيء يشغله هو كتابه للحسين في طلب القدوم إلى الكوفة وقد اصبح الوضع يسير على خط معاكس ، اذ انحرفت عنه الأغلبية ، وأصبح الأمر بيد العرفاء والمتقربين للدولة طمعاً في السلامة .

* * *

لقد كان مسلم يركن إلى جهة قوية متماسكة ، قوامها زعماء مخلصون لهم أتباع اقوياء ، وحلفاء أوفياء ، كحبيب بن مظاهر والمسيب بن نجبة وسليمان بن صرد الخزاعي ، ورفاعة بن شدّاد ، والمختار بن ابي عبيدة ، وعابس بن شبيب الشاكري ، وغيرهم من زعماء الكوفة وأعيان الشيعة وهم ابطال المصر ، وقواد الثورة وبامكانهم الاستيلاء على الحـــكم وطرد النعمان بن بشير عندما كانت الامور مواتية لولا أن القضية كانت تسير

على مخطط مرسوم ، لا يصح تجـــاوزه ، لأن المصلحة تدور حول السير عليه .

وقد سار مسلم بن عقيل على خط اسلامي صحيح وسلك طريقـــاً سلمياً ولم يدخل في معركة دموية ، ويوقع البلد في معركة داخلية .

ولكن المفاجئة الغريبة التي حدثت بقدوم ابن زيادفقد ارتبك الوضع واضطرب حبل الاستقامة . واصبحت القضية على ابواب الخطر .

في بيت هاني :

هناك انتقل مسلم بن عقيل من دار المختار بن ابي عبيدة الى دار هاني ابن عروة فانه أمنع جانباً لمكانته وزعامته ، وكان هاني ممن أدرك النبي، وقد وصف المؤرخون عظمته في قوتـه وعزتـه في عشيرتـه، ومنعته في بلده : فانـه كان يركب في أربعة آلاف دارع وثمانية آلاف راجل ، فاذا اجابتها أحلافها من كندة وغيرها ، كان في ثلاثين ألف دارع [1] .

* * *

وكان ابن زياد قد سار في خطة ارهابيـــة ، وأعمال تعسّفية من اعتقالات متواصلة وهجوم على البيوت الآمنة ، وقتل جماعي .

وظهر التشفي والانتقام بين الأفراد وساد الخوف وانتشر الرعب .

---

(١) مروج الذهب ج ٣ ص ٢٩ .

فكانت الكوفـة كزورق بين عواصف تتلاطم عليه الأمواج ، وهو بعيد عن ساحل السلامة .

وأقام مسلم في بيت هاني مكرماً معززاً ، ويتردد عليه اصحابه ، ومن هناك اتخذوا التجمع استعداداً للوثبة ، عندما يداهمهم أمر يلزمهم الدفاع عن مسلم ، وحماية جانبه ، أو عندما يقدم الحسين عليه السلام .

وهذا التجمع أشبه شيء بتجمع أفراد فان أكثر الزعماء قد اعتقلوا وبعضهم سافروا الى الحجاز لأداء فريضة الحج ومصاحبة الحسين، كعابس ابن شبيب البطل الشهير ، وان القيادة في الثورة لها جانب مهم وبدون شك أن الثورات يتوقف نجاحها أو فشلها على القيادة .

وقد تحكمت خطة التفرقـة وهي المادة التي سار عليها الأمويون في حكمهم ، وقد انقسم المجتمع إلى عدة فئآت ، كما تحكمت الدعايات والتهريج والاشاعات الكاذبـة .

وعلى أي حـــال فالكوفة باتت تغلي بعوامل الثورة والعناصر متناحرة ومسلم له أنصاره، وابن زياد جاد في عمله ، والحياديون انقسموا إلى قسمين ، قسم دخل مع ابن زياد ، وقسم ينتظر قدوم الحسين ومسلم لا يرغب في اراقة الدماء ، وهو ينتظر قدوم الحسين فهو أولى بالأمر ، وأعرف بالواقع، وكيف كان فان ابن زياد واصل نشاطه وبث جواسيسه في القضاء على دعوة مسلم .

* * *

لقد كان موقف هاني يهم ابن زياد ، فهاني زعيم وله مكانته وأثره فلم يقدم على ابن زياد فيسلّم عليه ، فسارع للقضاء على هاني قبل أن يأتي الحسين ، ليصفو له الجو وليتخلص من المعارضين ويكشف عن مسلم واتباعه .

لأن القضاء على هاني هو هدم لأكبر حصن للحركة ، وقد انكشف له أن مسلم في بيت هاني ، وتجري هناك الاجتماعات السرية ، فاحضر الزعماء ، واظهر التلطف بوجوه البلد ورؤسائها ، وذكر هاني بن عروة، فانه لم يسلم عليه ، وهو يتشوق لرؤيته ، فقالوا : إنه مريض . اعتذاراً عنه ، وحفظاً لمقام هاني .

فقال : لو علمت بمرضه لعدته ، ثم طلب منهم الذهاب اليه، فارسل جماعة وهم اسماء بن خارجة ، ومحمد بن الاشعث ، وعمر بن الحجاج ، فركب هؤلاء اليه وسألوه المسير إلى السلطان فان الجفاء لا يتحمله وألحوا عليه [1] .

فركب معهم ، ولم يدر في خلده أنه يؤخذ على حين غرة ، أو تخذله عشيرته وحلفاؤه ، وهو عزيز الجانب له عدة وعدد .

ولا يعلم ما أضمرته الأقدار له فخاطبه ابن زياد بلهجة الجفاء والغلظة فاجابه هاني بعزة وثبات واشتد غضبه عندما طلب منه أن يأتيه بمسلم بن عقيل وهدده بالقتل إن لم يفعل فقال هاني : اذاً تكثر البارقة حولك وهو يقصد عشيرته وأحلافه .

---

(١) الارشاد للشيخ المفيد . وبحر العلوم في رجاله .

وكان ابن زياد قد دبر الامر ، وأحكم الخطة ، وغامر مغامرة شديدة فتجرأ على هاني وأهانه بكلامه ، وهاني لا يستطيع الدفاع عن نفسه ثم اعتقل في القصر .

وكان لنبأ اعتقال هاني وقع مؤلم ، وجرت تحركات فاشلة وارتج القصر لهذا الحادث ، ووقف ابن زياد موقف عدم المبالاة ، وكان هذا أول خطر يحيط بحركة مسلم ، فاعتقال هاني يعرقل سير العمل السري وقتله لا يبقي أثراً للعمل فتقرر أن يقوم مسلم بالافراج عنه وعن بقية المعتقلين ، لأنه بالفعل يملك قوة تمكنه أن يدافع عن نفسه ، ويمكنه خلاص هاني ، وشاع اعتقال هاني وغضبت مذحج حتى أحاطوا بالقصر يحاولون الافراج عن هاني[1] .

وبينما هم كذلك إذ خرج عليهم القاضي شريح فأخبرهم بسلامته ، وأنه لا يرضى تجمعهم وعندما اعتقل هاني لم يجد مسلم طريقاً للبقاء في دار هاني لانه اعتقل وتحولت الدار الى مأتم عزاء .

الزحف على القصر

عندما انتشر خبر اعتقال هاني ماجت الكوفة واستعدت الجموع المناصرة لمسلم ، وهي على أكمل عدة لانتظار أمر الزحف على ابن زياد لانقاذ هاني ، وأراد مسلم (ع) أن يكشف خبر هاني ، فارسل عبد الله بن

(١) الطبري ج ٦ ص ٢٠٦

حازم الى القصر ، ليأخذ الخبر ، فعاد عبدالله بما يسيء خبره ، من سجن هاني وضربه [1] .

وأُقيمت النياحة في بيت هاني ، وحضرت نساء من مراد وهن يندبن ويقلن واثكلاه ، يا عزتاه ، وهنا رُفع شعار الثورة : « يا منصور أمت » فتجمعت الجموع واحتشدت الجيوش ، وزحفوا نحو قصر الامارة ، وكان ابن زياد في المسجد والناس حوله ، وقد أحاط بـه زعماء الكوفة يخذلون الناس ، ويهددونهم ، من مخالفة الأمر ، وقام فيهم خطيباً :

« أيها الناس اعتصموا بطاعـة الله وطاعة أئمتكم، ولا تختلفوا ولا تفرقوا فتهلكوا وتذلوا وتقتلوا وتحرموا . إن اخاك من صدقك ، وقد أعذر من أنذر .

ولما انتهى من خطبته التهديدية واراد أن ينزل واذا بجلبة والناس يهرعون ، وحراس الأبواب يفرون ، ويقولون : قد جاء ابن عقيل ، فاستولى الرعب على ابن زياد وهرب الى القصر هو ومن معه من الأشراف وأغلقوا الأبواب عليهم.

* * *

كادت هذه الحملة أن تنجح ، لكن الأقدار معاكسة وكانت الحملة قوية في العدة والعدد فقـــد زحفت على القصر افواج العرب ، ورؤساء

---

(١) رجال بحر العلوم العلوم ج ٤ ص ٢٦ .

القبائل ، يحملون رايات الحرب ، ويعلنون الثورة الماحقة للعهد الأموي، وكانت القيادة بيد مسلم ، وقد عبأ أصحابه حسب مـــا تقتضيه الخطط العسكرية ، وركب مسلم بن عقيـــل ونادى بشعاره « يا منصور أمت » فاجتمع اليه أربعة آلاف من أهل الكوفة،وتقدم المختار بجيشه ومعه راية خضراء وعبدالله بن نوفل بن الحارث براية حمراء [1] .

وسار مسلم وسط الجمع بعد أن أحكم تعبئته ميمنة وميسرة ، وكان ابن زياد وسط جموع أصحابه ، فانهزم مرعوباً الى القصر ، وأدخل معه خواصه وحراسه ، واحاط مسلم بالقصر ، وضرب عليه الحصار بجيش كامل الاستعداد ، ومقسم الى كتائب فكان عبد الرحمن الكندي على ربع كندة وربيعة ، وكان مسلم بن عوسجة على ربع مذحج وأسد وابو ثمامة الصائدي على ربع تميم وهمدان ، وعلى قريش والانصار العباس بن جعدة ابن هبيرة .

وتتعاقب الجيوش إلى المسجد ، وابن زياد معتصم بقصره يدير وجه الحيلة حتى تتابعت أعوانه وجنوده ، ولكن لا قابلية له على المقابلة ما لم يستعمل خطة التخذيل والارهاب ، فارسل زعمـــاء العشائر يبثون في الناس روح الخوف ويحذرونهم من وصول جيش الشام، فهو على الأبواب وانبث الرجال في البلد يخذلون الناس وينشرون الرعب ، وجعلت المرأة تجيء إلى ابنها وتقول له : ارجع الى البيت يكفونك ويقول الرجـــل

---

(١) البداية والنهاية ج ٨ ص ١٥٤ .

لابنه واخيه : كأنك غــداً بجنود الشام فماذا تصنع معهم فتخاذلوا وقصروا[1] .

واقام ابن زياد باحكام الخطة فأمر عبدالله بن الحصين الحارثي أن يخرج بمن اطاعه من مذحج فيسير في الكوفة ويخذل الناس ويحذرهم العقوبة وأمر محمد بن الاشعث أن يخرج بمن اطاعه من كندة وحضر موت، فيرفع راية أمان لمن جاء من الناس[2] .

وتجمعت فلول المعارضة ، وسارع المخذلون بنشاط قوي وارتج البلد وكثر المرجفون في المدينة،وعلت الاصوات: جيش الشام جاء جيش الشام فهناك ظهر الضعف في جيش مسلم ، وبانت علائم التخاذل ولعبت المطامع دورها ، هذا وقد انتشرت في المدينة تلك الحملة من الدعايات وارتفعت ضجة في أرجائها تنذر الناس من خطر مداهم هو وصول جيش الشام وتقدم الأشراف والعرفاء بالانذار .

وكل يقول الحقوا باهلكم ولا تتعرضوا للقتل،فان هذه جنود أمير المؤمنين قد اقبلت، وقد أعطى الأمير عهداً ، إن اقمتم على حربه ولم تنصرفوا من عشيتكم بأن يحرم ذريتكم العطاء ، ويفرق مقاتلتكم في مغازي أهل الشام على غير طمع، وأن يأخذ البريء بالسقيم والشاهد بالغائب ، حتى لا يبقى لكم منه بقية من أهل المعصية ، إلا أذاقها وبال ما جنت أيديها

---

(١) البداية والنهاية ص ١٥٥ .

(٢) الطبري ج ٦ ص ٢٠٥

وهذا الكلام يعتبر انذاراً خطيراً وتهديـداً وتوعيداً فانصرف من استولى عليه الرعب ، وفر بنفسه من خطر مقابلة جيش الشام الفاتك ، وبعضهم انصرف برجاء التفاهم والحل بدون إراقة الدماء، وسرت التصفية في جيش مسلم ولم يبق الا أهل الثبات وعدتهم ٥٠٠ نفس .

الحلقة المفقودة

ظهر التصدع في صفوف جيش مسلم وبان الانقسام بعـــد التخاذل الذي أحدثته الدعاية ، والحرب النفسية ولم يبق معه إلا خمسمائة رجل كما قدمنا ، وهنا تقع اسئلة واستفسار عن مجرى الحوادث في هـذا المجال ، من محاصرته للقصر إلى أن حوصر هو في محلة كندة ، عندمـــا وافاه جيش الكوفـة بقيادة محمد بن الأشعث فهل يصح أن مسلم عندما تفرق أصحابـه واتباعه وبقي في خمسمائة من أصحابه ، صلى المغرب وليس معه إلاّ ثلاثين. فلما خرج من المسجد ليس معه إلا عشرة،فلما خرج من كندة وليس معه رجل يدلّه على الطريق ؟!

أجل اين المخلصون من أنصاره ؟ ثم كيف يستطيع مسلم أن يخرج بمفرده وجواسيس ابن زياد تلاحقه ، فكيف غفلوا عنه ويخرج سائراً في أزقـة الكوفة ، ولا يعرفـه أحد ، حتى انتهى به المطاف الى دار طوعة وأقعده العطش على بابها فتخرج وتجري بينهما محاورة :

يا رجل ما جلوسك على باب داري ؟
أُريد شربة ماء !

فتدخل وتـأتي بالماء فيشرب ولم ينصرف
فتخرج اليه وإذا به في مكانه فتقول :
ما جلوسك في باب الدار ؟ لا أُحلّ لـك
ذلك إنصرف لأهلك .

فيقوم مسلم وهو يقول : ليس لي أهـــل
ولا عشيرة .

فتقف المرأة هنا موقف حنان وشهامة ،
فقالت لـه:من اين أنت ؟

فانتسب لها فعرفته وأضافته تلك الليلة .

وهي قصة طويلة ذكرها المؤرخون ولا أُريد أن أقول أن شخصية طوعة هي شخصية وهمية لا وجود لها في مجال هذا العرض التاريخي ، كلا فإن طوعة لها ضلع في هذه الحركة ومشاركتها مع أهل الكوفـة في تهيئة جو السخط ضد الأُمويين ، ولكن الإطار الذي برزت فيـــه صورتها في هذا الحادث هو غير إطارهـــا الواقعي ، ويمكن وضعها في غيره ، ولكن لا نريد ان نتمحل في الفرضيات والوهميات ، فان طوعة امرأة عربية موالية لآل محمد (ع) شانها شان كثير من نساء الكوفـــة اللواتي أثبت التاريـخ مواقفهن الحاسمة في مناصرة أهـــل البيت، ومن الممكن أن يكون وقوع مضايقة مسلم ومن معه من قبل جيش ابن زياد كان في محلة كندة ، قرب دار طوعة ، فقامت بواجبها من مساندة مسلم وتشجيعه واعطائه الماء اثناء حملاتــه .

ونعود الى الحلقة المفقودة من تاريخ هذا الحادث العظيم فحين نترك

مسلم بن عقيل يخوض معركة قوية وقد ضرب الحصار على ابن زياد ، وأقام الكوفة واقعدها ، فمن حقنا أن نتسائل : ان زعيم جبهة قوية ، وقائد جيش عربي فيه أبطال من رجال الكوفة، كيف انهارت تلك الجبهة بهذه السرعة ويهزم ذلك الجيش ويبقى مسلم بمفرده وليس معه أحد يدله على الطريق ؟!

فلنطو صفحة هذا العرض ونلتقي ببطلنا المجاهد في حرب الشوارع .

حرب الشوارع

وأياً كانت التوجيهات في موقف مسلم فنحن مع بطلنا المجاهد في محاصرته للقصر ، ومضايقته لابن زياد ، ونتركه في هذا الموقف ونلتقي به في شوارع كندة وهي محلة من محلات الكوفة عندما اعتصم بها فكانت مقابلة شديدة ونزال في الشوارع ، ومسلم بن عقيل يصول كالأسد ، وقد وصفه بعض مشاهديه بأنه كان يأخذ الرجل في يده ويرمي به فوق البيت[1] .

وقد اشترك في حربه الرجال والنساء والأطفال فالرجال بالسيوف والرماح ، والنبال ، والنساء بالنار في اطنان القصب ، تلتهب ناراً فترميه بها من أعلى السطوح[2] والأطفال يرمونه بالحجارة ، وهو يقابل ذلك بشجاعة وبسالة وثبات ويحمل عليهم ويقول :

---

(١) مروج الذهب ج ٣ ص ٦٨ .

(٢) المسعودي مروج الذهب ج ٣ ص ٦٨ .

أقسمت لا أُقتل إلاّ حُرّا وإن رأيت الموت شيئاً نكراً
كل امرىء يوماً ملاق شراً ويخلط البـــارد سخناً مراً
ردّ شعاع الشمس فاستقرا أخاف أن اكذب أو أغرا

ويصف موقفه بعض ادباء العصر الحاضر تعليقاً على هـــذا الرجز بقوله : وهـــذا الرجز هو في الناحية الفنية بأعلى درجة في البلاغة والتصور عما يختلج في النفوس .

إنه من الناحية النفسية صادق كل الصدق معبراً تعبيراً دقيقاً عن الموجات النفسية ، التي كانت تترفـــع في نفس الشاعر ، وهو في موقفه الضيق الحرج ، فهو قبل كل شيء مصمم على أن يحتفظ بحريته ، ولو أدّى هذا الى قتله وهو يعلن في صراحة وصدق أن الموت شيء منكر ، ولا يقول كما يقول غيره ممن يغالطون أنفسهم ، أن الموت شيء محبب إلى نفسه ، وانما يعبر عن نفسيته تعبيراً صادقاً فالموت لا يحبه ، ولكنه لا يفر منه ما دام ، قد صمم على الاحتفاظ بحريته ثم يحاول أن يهدأ في روعه ويجعل هذه الموجة العالية الرهيبة تنحسر عن نفسه دون أن تجذبها في تيار من الهلع والفزع .

فيحدث نفسه بأن الدنيا منقلبة ، وكل امرء لا بد أن يلاقي فيها ما يسوؤه وهو يعرض هذا الحديث النفسي في صورة فنية بارعة .

فالبارد الحلو لا بد أن يخلط يوماً بساخن مر ، والأيام الناعمة القليلة لا بد أن يشوبها هجير الغيظ ، ولفحة الحر بل إن شعاع الشمس المتدفق

في حيوية ونشاط لا بد أن يرتد في النهاية ويستقر، فكل ضياء لا بد بعده من ظلام ، وكل صباح باسم لا بد أن يرتد إلى غروب حزين ، وإذاً فما المشكلة النفسية التي يعانيها ؟ انه لا يحاول أن يخفيها عنّا ، ويضلنا عنها ولكنه يعلنها في صدق ترتاح اليه النفس ، إنه حريص على الحياة ، ولكنه حريص ايضاً على الحرية ، وحرصه على الحياة يغريه على تسليم نفسه إلى اعدائه ، ولكن حرصه على الحرية يجعله متردداً لأنه يخشى بل يخاف أن يكذب عليه اعداؤه ، ويخدعوه فيقتلوه دون محاولة منه لتنفيذ عهده ، بأن يموت في سبيل الحرية ، او يأسروه فيفقد حريته التي يحرص عليها حرصه على الحياة أرأيت كيف استطاع أن يصور موقفه الضيق الحرج هذا التصوير الفني الرائع الذي يستمدروعته في تعبيره عن نفسيته تعبيراً صادقاً لا رياء فيه ولا تضليل ،ان هذا هو السر الذي يجعل هذه السطور القليلة من الرجز تؤثر في نفوسنا تاثيراً قوياً ، يجعلنا نشعر بما كان يعانيه قائلها من صراع داخلي هائل لا يعدله إلا صراعه الخارجي مع اعدائه[1] .

* * *

ومضى مسلم في جهاده وسط تلك الجموع التي ازدحمت في شوارع محلة كندة ، وهو يدفعهم الى الانسحاب والفرار من بين يديه ، وكانت

---

(١) حياة الشعر في الكوفة ص ٣٧١ – ٣٧٢ .للدكتور يوسف خليف .

الحجارة من السطوح تنصب عليـــه، والنيران تلتهب باطنان القصب ، تتساقط من على الجدران الى الأرض لتعرقل هجماتـه .

وأدى ثباتـــه في المعركة الى التغلب والانتصار على تلك الجموع ، وقد عجز ابن الاشعث عن التغلب والانتصار في هذه المعركة ، فاعطاه الأمان غدراً . فلم يجبهم الى ذلك .

وناداه مرة أُخرى : لك الأمان يا مسلم لا تقتل نفسك ، فلم يامن منهم ، واستمر في القتال على شدة عطشه ، وضعف بدنه ، ونزف دمه ، من كثرة جراحاتـه ، فأعاد ابن الأشعث عليـه الأمان مرة أُخرى ، وقـــال :

انك لا تكذب ولا تغر إن القوم بنو عمك ، فلم ياخذ بقوله ، واتجه الى الجيش المحارب له ، ووجه سؤاله اليهم فقال : ألي الأمان ؟

قالوا نعم : إلا عبيد الله بن العباس السلمي أحد القواد فانه قال : لا ناقتي فيها ولا جملي، وتنحى عن العسكر ، وكان مسلم قد استولى عليه الضعف فاسند ظهره الى الحائط ، وتقدم اليه ابن الأشعث بالأمان فقال : مسلم لو لم تؤمنوني ما وضعت يدي في أيديكم .

وبهذا ينتهي دور البطل المؤمن والشهيد الخالد الذي تحمل في سبيل أداء رسالته أعظم المصاعب ، وواجه أشد المشاكل .

انه لم يعد يغامر بنفسه وبمن اتبعه فيخوض معركة يوقد نارهـــا خصوم الاسلام وشعارهم « اينما أصابت فتح » .

وقد حافظ على استقرار البلد وأمنه ، ولم يسعر فيه حرباً داخلية يستغلها أعداء الاسلام ويتقد جمرها بين القبائل فلا تنطفىء إلاّ ببحار من الدم. وليس وراء ذلك من نجاح للنهضة التي يمتد أثرها على ممر الدهور فلو وقع في البلد ذلك لوئدت الثورة في مهدها .

التسليم :

وانتهى الأمر بتسليم مسلم بن عقيل ، واستيلاء أعدائه عليه بعد أن قطعوا الأمان على أنفسهم ، وتعهدوا بعدم أي ضرر يصيبه ، وهو عربي المحتد هاشمي النسب ، علوي النزعة ، يحتفظ بالنظم الاسلامية ، والتقاليد العربية فظن بهم خيراً ولا خير فيهم .

انهم خدعوه بأمانهم ، ولا أمان لهم « إذ لا إيمان لهم » وأصبح ذلك البطل أسير أعداء لا يعرفون الرحمة ، وتحت أمر خصوم لا عهد لهم بالرفق جفاة غلاظ قد تجردوا من عروبتهم كما انسلخوا من عقيدتهم ، فأحاطوا به وانتزعوا سيفه . فقال :هذا اول الغدر .

فقال له محمد بن الاشعث أرجو أن لا يكون عليك باس .

فقال مسلم : وهل هو الا الرجاء ؟ أين أمانكم ؟!! إنا لله وانا اليه راجعون .

وسار مسلم معقائد الجيش تحوطبه الجند المدججون بالسلاح، وقلوبهم تتقد بنار الغيض لكثرة ما كبّدهم من خسائر في الارواح ، وقد تسابق المبشرون لابن زياد بالخبر .

واخترق مسلم الشوارع بالحالة التي هو عليها من كثرة الجراحات وآثار ضرب الحجارة ولهب النار من القصب ظاهر على جسمه ، انه يعلم بالشر الذي قــــد كمن له وراء دخوله على ابن زياد وآيس من وفاء القوم بأمانهم ، وعرف تقرير مصيره ، لأن الأمر يعود لابن زياد ، وهو الذي عرفت سيرته ، ولم تترك له امه سمية مجالاً لاكتساب أي فضيلة ، فعاش وقد ملأ وطابه من الرذائل .

* * *

كان مسلم يفكر والانكسار باد عليه،فاعترض عليه أحد مرافقيه وقال له : إن الذي يطلب مثل الذي تطلب لا يتأثر ؟! .

فاجابه مسلم لم يكن هذا التأثر لنفسي وانما لأهلي المقبلين .

وحق لمسلم أن يفكر وأن يتأثر لما وراء حادثته من حوادث ، وما يتلوها من مآسي ، انه يفكر كيف يتدارك مشكلة كتابه الذي وجهه الى الحسين يطلب منــــه بسرعة التوجه للكوفة ، وهو لا يعلم بهذه النتائج المعكوسةوقد أصبح مسلمبن عقيل بمفرده،وهو الآن فيطريقه إلىخصمه وعدوه الشديد ، والجيش محيط به، والسيوف مسلولة على رأسه،والرماح مشرعة إلى صدره ، وينظر من جهاته الأربع فلا يرى إلا شامتاً قـــد ظهر الفرح على وجهه ، أو غاضباً قد أحرق الغيض قلبه .

إنه يواجه وجوهاً لا تعرف الحياء ، ولا عهد لها بالخجل ، وقد اشتد عليه الأمر ، فالوقت قائض والدمـــاء تنزف من بدنه ، واقتيد إلى باب

القصر ، فوجد هناك جماعة من الأمراء ومن أبناء الصحابة ممن يعرفهم ويعرفونه ، وهم ينتظرون أن يؤذن لهم على ابن زياد .

هذا ومسلم مخضب بالدماء وجهه وثيابه، وهو مثخن بالجراح، وفي غاية العطش ، وإذا قلة ماء هناك فأراد أن يتناولها ليشرب منها ، فقال له رجل من أولئك وهو مسلم بن عمر الباهلي : والله لا تشرب منها حتى تشرب من الحميم .

فقال له : ويلك يا بن باهلة أنت أولى بالحميم ، والخلود في الجحيم مني ثم جلس متسانداً الى الحائط من التعب وشدة العطش .

هكذا يكون تغير الأحوال ، وانقلاب الأوضاع ، وهكذا تكون القسوة والغلظة ، وهكذا يكون تغير الزمن وتصرفه ، رجل أسير مثخن بالجراح دمه ينزف جسمه ناحل يمد يده الى ماء أمام عينيه ، ويمنع بأقسى رد وأقبح لفظ ، بمحضر من وجوه العرب والأمراء وابناء الصحابة ، اين الحميّة ؟ واين النخوة العربية ؟ إنهم دخلاء لا صلة لهم بالدين ، ولا معرفة لهم بالتقاليد العربية .

وهنا توجه مسلم لابن الأشعث قائلاً : اني أراك عاجزاً عن أماني فهل عندك خير تستطيع أن تبعث من عندك رجلاً يخبر الحسين بحالي ويقول له عني ليرجع بأهل بيته .

فقال ابن الأشعث والله لأفعلن ثم كتب بما قال مسلم الى الحسين (ع) وأرسله مع رجل فلقيه الرسول بزرود .

مع ابن زياد :

احتشد القصر من مختلف الناس يهنئون الامير بالنصر ويشاطرونه الفرح بالقضاء على مسلم بن عقيل وأسره ، وهم ينتظرون نهاية مسلم ، وحكم ابن زياد فيه .

وهنا يدخل مسلم وقد طرز الدم أبراده النقية ، وصبغ جبهته بلونه القاني وأثر ضرب الحجر في جسمه .

انه موقف مؤلم ، وساعة حرجة ، ولكن ابن زياد يرى ذلك حلماً ، وهي أسعد ساعة تمر عليه ، أهذا سفير الحسين مسلم بن عقيل ؟ أهذا الذي أزعج الدولة قدومه، وهزّ كيانها نبأ وصوله الكوفة، وبالأمس أزعج ابن زياد ، وأدخل الرعب في قلبه فلاذ بالفرار كالمخدرة المحجوبة بقصره.

يا له من نصر لقد انهار البناء الذي كان يحتمي به أعداء الأُمويين ، وانحلت الجبهة التي تساند الثائرين ، عندما قضى على القيادات الثورية التي كانت معقد آمال الجماعات المكبوتة ، والفئات التي تطلع إلى التخلص من مظالم الامويين وعسفهم .

هذا مسلم بن عقيل الذي ازعج قدومه يزيد بن معاوية في الشام، وفقد ابن زياد استقراره في الكوفة واصبح الكيان الاموي مهدداً بقدومه ، لقد زال كل شيء ، ها هو بين يدي ابن زياد ، وينتظر الناس حكمه فيه.

ويقوم ابن الأشعث قائد الحملة لقتال مسلم في الشوارع ، ويخبر ابن زياد بانه اعطى الامان لمسلم .

فأجابه ابن زياد باستنكار وتهور ، وما انت والامان ؟!! كأننـــا ارسلناك لتؤمنه اننا ارسلناك لتأتينا به .

وهنا عرف ابن الاشعث نوايا ابن زياد السيئة ، وذهب تعهده لمسلم وأمانه له ادراج الرياح ، ودخل مسلم يرتدي أبراد العز وحمية قريش ، وكرامة العروبة، وعزة الدين ، فلم يسلم على ابن زياد. فاعترضه الحرس.

لِمَ لم تسلم على الأمير ؟!!

فاجابه : ما هو لي بأمير .

فقال عبيدالله : لا عليك سلّمت أو لم تسلم فانك مقتول .

قال مسلم : ان قتلتني فقد قتل شر منك من كان خيراً مني .

فغضب ابن زياد ، وخرج عن اتزانه إلى وحش أهوج .

فقال : يا شاق يا عاق خرجت على إمامك وشققت عصى المسلمين ، وألقحت الفتنة .

فأجابه : كذبت يا ابن زياد ، والله ما كان معاوية خليفة باجماع الامـــة ، بل تغلب على وصي النبي بالحيلة ، واخذ منه الخلافة بالغصب وكذلك ابنه يزيد ، وأما الفتنة فانك القحتها انت وأبوك زياد بن علاج من بني ثقيف ، وأنا ارجو أن يرزقني الله الشهادة على يدي شر بريته فوالله ما خالفت ، وما كفرت ، ولا بدلت

وانما انا في طاعة امير المؤمنين الحسين بن علي، ابن فاطمة بنت رسول الله (ع) ونحن أولى بالخلافة من معاوية وابنه ، وآل زياد .

فقال ابن زياد وقد اشتد غضبه : لقد منتك نفسك امراً احالك الله دونة ، وجعله لاهله .

فقال مسلم : ومن اهله يا أبن مرجانة ؟

قال : اهله يزيد ومعاوية .

فأجابه مسلم : الحمد لله وكفى بالله حكماً بيننا وبينكم .

فقال ابن زياد: اتظن أن لك من الأمر شيئاً.

قال : لا والله ما هو الظن، ولكنه اليقين.

فقال : قتلني الله ان لم اقتلك .

قال مسلم : انك لا تدع سوء القتلة ، وقبح المثلة ، وخبث السريرة ، والله لو كان معي عشرة ممن اثق بهم ، وقدرت على شربة ماء لطال عليك ان تراني في هذا القصر [1] .

فاقبل ابن زياد على مسلم بلغة الجاهل المتهور والاحمق الطائش والظالم المستبد ، وجرت بينهما محاورة طويلة ومشادة عنيفة ، ذكرها المؤرخون واعرضنا عن عرضها بكاملها [2] .

---

(١) الفتوح ٥/٩٧ ـ ٩٩ .

(٢) البداية والنهاية لابن كثير ج ٨ ص ١٥٦ .

نهاية المأساة

كانت نهاية ابن عقيل البطل أن يأمر ابن زياد في قتله بصورة وحشية فقد أصعدوه على السطح ، وهو يهلّل ويكبّر ويسبّح ، ويصلي على ملائكة الله ويقول : اللهم احكم بيننا وبين قوم غرونا وخذلونا .

وهناك نفذ فيه حكم ابن زياد في القتل الذي جرى على يد بكر ابن حمران .

وكان الناس خارج القصر وهم ينتظرون نهاية الموقف ، وما يؤول اليه أمر مسلم وكانوا يفترضون الامور ويظنون الظنون ، فلما شعروا واذا بجثة مسلم تهوي من أعلى القصر ، وبعدها أتبعوها بالرأس الشريف .

وعندما أمر ابن زياد باصعاده إلى القصر ، التفت مسلم الى محمد بن الأشعث فقال : والله لولا أمانك ما إستسلمت .

قم بسيفك دوني قد اخفرت ذمتك .

وتوجه الناس باللوم على ابن الأشعث الذي خان عهده ، ولم يف بأمانه لمسلم كما أنه أخذ سيفه ودرعه ، وقد هجاه الشاعر :

وتركت عمك لم تقاتل دونه   فشلاً ولولا انت كان ممنعاً
وقتلت وافد حزب آل محمد   وسلبت أسيافاً تقيه وادرعا [1]

(١) محمد رضا امين : الحسن والحسين ص ٨١ .

ولما نزل قاتل مسلم قال له ابن زياد : ما كان يقول وأنتم تصعدون به؟ قال : كان يسبح ويستغفر فلما اردت قتله قلت أُدنُ مني الحمد لله الذي أمكنني منك ، وأقادني منك فضربته ضربة لم تغن شيئاً .

فقال : أما ترى في خدش تخدشنيه وفاء من دمك أيها العبد ؟ !!

فقال ابن زياد وفخراً عند الموت ، قال ثم ضربته الثانية فقتلته[1] .

هاني بن عروة:

وكان هاني بن عروة سجيناً في القصر ، ليس له من يجيب طلبته فقام ابن الاشعث يتشفع فيه وقال : إنك عرفت منزلة هاني في المصر ، ومكانته في العشيرة وقد علم قومه اني انا وصاحبي سقناه اليك ، فانشدك الله لما وهبته لي : فاوعده أن يفعل .

ولكن بعد أن أمن كل خطر من أهل الكوفة ، واستولى على زمام الامور ، أراد أن يضرب الرقم القياسي في الشدة والاهانة لزعماء العرب ، فيرهب به قلوب الآخرين فأمر باخراج هاني إلى السوق ، حتى انتهى إلى مكان تباع فيه الغنم ، وهاني مكتوف اليد ، وينادي يا مذحجاه ، ولا مذحج لي اليوم ، واين مني مذحج ؟ فلما رأى ان أحداً لم ينصره ضرب يده فنزعها من الكتاف ثم قال : أما من عصا أو سكين أو حجر يدافع به الرجل عن نفسه ، فوثبوا عليه فشدوه ثم قيل له :

---

(٢) علي جلال الحسيني ج ٢ ص ٧٧ .

أُمدد عنقك فقال : ما أنا بها بسخيء وما أنا معينكم على نفسي فضربه غلام تركي لابن زياد فلم يصنع السيف فيه فقال هاني إلى الله المعاد اللهم إلى رحمتك ورضوانك ثم ضربه التركي فقتله [1] .

ثم أمر ابن زياد بسحبه في الاسواق امام اعين عشيرته واحلافه تحدياً للكرامة العربية وسحقاً للقيم كما أمر بصلب جثته وجثة مسلم بن عقيل بالكناس، منكوسين وارسل برأسيهما إلى الشام .

وكان يزيد على أحر من الجمرة وينتظر النتائج ، إذ وافـــاه البشير بورود النبأ مع هاني بن حية الوداعي، والزبير بن الأروع التميمي يحملان رأسي البطلين مسلم بن عقيل وهاني بن عروة . ومعهما كتاب فيـــه ما أراد .

فأجابه يزيد بكتاب قال فيه :
بلغني أن حسيناً قد فصل من مكة متوجهاً إلى العراق فاترك العيون عليه وضع الارصاد على الطرق ، واحترس واحبس على الظنة ، واقتل على التهمة . وبهذا يفوض ابن زياد من قبل أميره وسيده أن يتحكم في الأُمور وأن يأخذ على الظنة ، ويقتل على التهمة .

وانتهت المأساة بتلك الصورة التي تبعث على الدهشة والاستغراب من تلك النهاية المحزنة إذ لم يكتف القوم بقتل مسلم وهاني ولكنهم أمروا بان تربط ارجلهما بالحبال ويسحبان في الاسواق .

(١) المجالس ١/٧٩ .

انها حالة مؤلمة ، وحادث عظيم ، فالاسواق مزدحمة ، وإذا بجلبة الغوغاء يخترقون الطريق ، وينفرج الناس سماطين ، وتمر جنازة مسلم ابن عقيل سفير الحسين وممثله وإلى جنبه جنازة هاني بن عروة رئيس مذحج وزعيم الكوفة وهما يجران بارجلهما بالحبال .

هكذا جرت مراسيم تشييع جنازتي هذين المجاهدين في بلد اسلامي ، في الكوفة العربية الثائرة وهكذا فليكن الانتقام والتشفي بالمسلمين من خصومهم ، وفي العرب من اعدائهم من الدخلاء على العروبة .

لقد جاء القدر بما لم يكن في الحسبان ، ويقع ما لم يكن متوقعاً ، من سوء الوضع وسرعة التحول بهذه الصورة المفاجئة .

وامام هذه المفاجئة الغريبة ، يقف الانسان متسائلاً :

كيف استطاع ابن زياد السيطرة على الموقف وأخمد ذلك الهياج ، الذي غمر الكوفة لتفجير ثورة شاملة ضد سلطان الامويين الغاشم ، فاصبح البلد بعد ذلك الوضع الثوري يستسلم ويفقد كل امكانياته ، للحفاظ على سمعته وكرامته ؟!! .

ولقد كان مسلم بن عقيل تسانده جبهة قوية تضم ألمع الشخصيات العربية وهو سفير الحسين وممثله ، فكيف انهارت الجبهة ؟ وأين الزعماء الذين ساندوه ، فيصبح وحده في ذلك البلد الذي بايعه فيه ثمانية عشر الفاً ، فأين ذهب

هؤلاء ؟! واين شيعة الكوفة التي اشتهرت بأنها علوية بوجه عام ؟!!

إلى غير ذلك مما يسبق إلى الاذهان التساؤل عنه ، ومعرفة العوامل التي ادت إلى هـذه النتائج المحزنة .

ويبدو الجواب واضحاً ـ على ما اعتقد ـ بتأمل بسيط والقـاء نظرة فاحصة ، مجردة عن كل عوامل الانحراف عن الواقـع ، فنلقي الأضواء على مجتمع الكوفة ، ومعرفة العناصر المختلفة فيهـا ، والاراء المتفرقة بين أهلها ، والقوميات المتعددة والقبائل المتناحرة والعصبيات القبلية التي تحكمت في ذلك المجتمع .

نعم بعد التعرف على ذلك يستطيع الانسان أن يحكم بما هو الواقع ،

* * *

إن ابن زياد لم يدخل بلداً متماسك القوى ، متحد الاتجاه ، متفقاً في الآراء بل كانت الكوفة مركزاً للتجمع من جميع القوميات ، من عرب، وفرس ونبط وغيرهم .

كما ان فيها من اهل الاديان المختلفة ، والمذاهب المتفرقة ، عدد غير قليل فاصبحت مرتعاً خصباً لدسائس اليهود الذين سكنوا الكوفة ايام الفتح والتحق فيهم من أجلاهم عمر بن الخطاب من المدينة وفيها للخوارج مركز اجتماعي ، والعثمانية هم الحزب الحاكم .

اما الشيعة فلهم مكانة مرموقة اذ هم يمثلون جانب المعارضة للسلطة فهم قاعدة ثورية ينضم اليهم كل من يسأم الحياة تحت ظل الحكم الاموي .

وقد انضم الخوارج إلى الشيعة لاتحاد الهدف في بغض الامويين واشتركوا في مراسلة الحسين ، وعند قدوم ابن زياد استسلموا له خوفاً منه . فرجحت كفة ابن زياد باستعماله خطة الارهاب ، والقضاء على المعارضة .

والى جانب الارهاب ، وتطبيق العقوبات عمد الى نشر الدعايات في البلد ، حتى بلغت الى حد الاساطير ، وهو يقصد التغلب على الوضع ، وتفتيت معنوية الجماهير .

وقد مر بيان البعض من ذلك، ولزيادة الايضاح ننتقل لدراسة مجتمع الكوفة عسى أن تتضح العوامل التي ساعدت ابن زياد ، فهل هي عوامل نفسية يتصف بها أهل الكوفة فوسموا بالخيانة والغدر .

أم أن هناك عوامل خارجية واجتماعية وسياسية، وكذلك يبدو بجلاء مقدار صحة ذلك التقسيم غير العادل : (الكوفة علوية ، والبصرة ، عثمانية ، والشام اموية) .

الكوفة :

هي من أهم العواصم الاسلامية ، ولها اثرها في التاريخ السياسي ، والحضاري فقد ازدهرت فيها الثقافة الاسلامية ، كما أنها ذات موقع جغرافي له اثره للاهتمام بمركزها على الصعيدين السياسي والتجاري ، إذ كانت مصدراً لكثير من المواد التي تحتاجها البلدان الأُخرى ويرتادها التجار من مختلف الأقطار النائية .

الكوفة انشأت سنة ١٧ ايام الفتح الاسلامي لتكون معسكراً ثابتاً للجيش الاسلامي، فكان المقاتلون يفدون اليها من ارجاء الجزيرة العربية فيقيمون في المعسكرات كجنود مدربين على اهبة الاستعداد ، لخوض المعارك عندما يداهم البلاد الاسلامية عدو ، فكانت تضم اكبر عدد واقوى جند للحرب وهم ينتظرون صدور الأوامر بالخروج إلى الغزو ، أو امداد غيرهم من الجيوش الاسلامية في مختلف الارجاء ، وقد تدفق الجيش منها إلى بلاد فارس وغيرها من البلدان التي فتحها المسلمون ، ولهذا كان الكوفيون يشددون على الأُمويين غضبهم في تصرفاتهم بأموال الأمة ، لأن الكوفيين يعتبرون أنفسهم هم الجيش الفاتح ، وعلى عواتقهم تم انتشار الاسلام ، وبسواعدهم فتحت فارس والروم .

وكانت الكوفة من أول تأسيسها مقسمة الى سبعة كادرات ، وذلك لحشر مقاتلة القبائل وفقاً للقيادات والتعبئة عند النفير والخروج للجهاد في المواسم ، والاعطيات بعد العودة من قبل رؤساء الأسباع .

والتقسيم لم يكن حسب المحلات من البلد ، بل قطعات قبلية بالنسبة إلى النسب أو الحلف وهي كما يلي حسب ما جـــاء في تخطيط الكوفة وتاريخها :

١ ـ كنانة وحلفاؤهم ، وكانوا يلقبون باهل العالية .

٢ ـ قضاعة وغسان ، وبجيلة ، وخثعم ، وكندة ، وحضرموت ، وهم من اليمانيين وكانت السيادة فيهم لطائفتين وهما : بجيلة ويرأسها جرير ابن عبدالله البجلي وكان مقرباً للخليفة عمر وقد خصص لقومـــه عطاء سنوياً .

والقبيلة الثانية كندة وهي تحت امرة الاشعث بن قيس .

٣ ـ مذحج ، وحمير وهمدان وهي العناصر اليمانية .

٤ ـ تميم ، والرباب من العناصر المضرية التي لم يبق منها سوى تميم .

٥ ـ أسد وغطفان ، ومحارب ، ونمير ، من بكر بن وائل، وتغلب ومعظمهم من ربيعة .

٦ ـ اياد ، وعك ، وعبد القيس اهل الهجر الحمراء .

فبنو عبد القيس نزحوا من البحرين (الهجر)تحت قيادة رئيس من سلالة ملكية ، هو زهرة بن حوية السعدي أحد اعلام الفتح واقطابه .

واما الحمراء فكانوا حلفاء عبد القيس وهم اربعة الآف جندي فارسي يرأسهم رجل يسمى ديلم ، ولهذا عرفوا بحمر الديلم ، هم الذين التجأوا

إلى سعد بن ابي وقاص بعد معركة القـــادسية من بقية جيش الفرس وتحالفهم مع عبد القيس بعد معركة القادسية وقد لعب هذا الفيلق دوراً رئيسياً ،وكان هو الجيش المقدم في عهد زياد وابنه عبيدالله كما انه السابق لحرب الحسين وقد باشر المعركة ، وكان عدد افراده اربعة الآف وقيل خمسة آلاف تحت قيادة عمر بن سعد .

٧ ـ وهذا الرقم قد خلت منه جميـع المصادر ، ولعله لقبيلة طي ، ذات الشان من القدم وقد قل شأنها بعد مرور الزمن .

كان هذا التقسيم ايام الفتح ، وبعد أن دخل الامام علي الكوفة،وأقام حكومته فيها سنة ٣٦ غيرّ نظام الاسباع في الـــكوفة ، وعبئها على الترتيب التالي :

١ ـ همدان ، وحمير .

٢ ـ مذحج واشعر ، ومعهم طي ، ولكن رايتهم خاصة بهم .

٣ ـ قيس وعبس ، وذبيان ومعهم عبد القيس ، واحلافهم .

٤ ـ كندة وحضرموت وقضاعة ومهرة .

٥ ـ الازد ، وبجيلة ، وخثعم ، والانصار .

٦ ـ بكر وتغلب ، وبقية بطون ربيعة عدا عبد القيس .

٧ – قريش ، وكنانة ، وأسد ، وتميم وظبّـة .

وبهذا التقسيم يبدو لنا ظهور بعض القبائل، وهي اما كانت مندمجة مع غيرها أو انها نزحت بعد عهد التقسيم الاول ، وقد راعى الإمام علي في هذا التقسيم بعض التقارب وامتزاج هذه القبائل من عدة وجوه .

وفي سنة ٥٠ هجرية أي في امارة زياد بن أبيه جعل الاقسام العسكرية في الكوفة على غرار ما كان في البصرة حيث اصبحت الاسباع اربعة :

الربع الأول : أهل العالية .

الربع الثاني : تميم وهمدان .

الربع الثالث : ربيعة وبكر وكندة .

الربع الرابع : مذحج وأسد .

وفي هذا النظام العسكري الجديد حاول زياد تحقيق اهداف سياسية كدمج همدان وهي القبيلة الشيعية مع تميم التي تبغض همدان .

* * *

وعلى هذا استقر التقسيم العسكري في الكوفة ، وله رؤساء مشهورون يعرفون برؤساء الارباع وهم على استعداد دائم للاستجابة عند دعوتها ، وسوقها لميادين القتال ، خوضاً لمعركة جديدة أو أمداد لجيش يطلب الاغاثة ، وكان للمقاتلين عطاؤهم الخاص ، ورواتبهم من بيت المال.

فالكوفة اذاً قد اشتهرت بالصبغة العسكرية ، لانها اصبحت مقراً لجند الدولة فكان فيها من الجند في عهد يزيد سنة ٦٠ ـ ٦٤ وفيها ٢٠ الف جندي على أهبة الاستعداد كلهم من ابناء فارس .

وقد عرفت الكوفة واشتهرت بـ (كوفة الجند) فقد تولّت فتح فارس ، ومدت الجيوش الاسلامية بالعون، واشترك جند الكوفة بحرب

الروم ايضاً ، عندما استعان بهم ابو عبيدة بن الجراح وطلب من عمر أن يمده بجند الكوفة .

فكتب عمر إلى سعد بن ابي وقاص : أن يندب الناس إلى حمص ، فان ابا عبيدة قد أُحيط به فتوجه الجيش من الكوفة ، وكسب نصف المعركة ، وتمّ له النصر .

وكتب اليهم عمر بن الخطاب يشجعهم بقوله : يا أهل الكوفة أنتم رأس العرب وجمجمتها وسهمي الذي ارمى به ، إن أتاني شيء من هنا وها هنا .

كما مدحهم عمر ايضاً بقوله جزى الله أهل الكوفة خيراً يكفونّ حوزتهم ، ويمدون أهل الامصار .

وقال رجل من أهل الشام إلى رجل من أهل الكوفة عندما قدموا على عمر : يا أهل الكوفة انتم كنز أهل الاسلام ، ان استمدكم أهل البصرة مددتموها ، وان استمدكم أهل الشام مددتموها .

* * *

والكوفة كما قدمنا هي مركز للتجمع من جميع القوميات ، فقد كان فيها بقية الفرس الذين زال ملكهم عن العراق والنبط الذين كانوا تحت سيطرة الفرس ، وكان في العراق يهود وصابئة ينتشرون في سواده وقد اجلى عمر بن الخطاب اليهود من المدينة ، فالتحقوا بيهود العراق وكان

هناك جماعة من النصارى ايضاً ، كما انها تضم كثيراً من المذاهب والاديان المختلفة وقد سكنها المسلمون بعد فتح فارس ، ولـكن الاضطرابات لم تكن لتهدأ يوماً ما ، ولم تزل الكوفة موضع انتشار الخلافات والمشاحنات التي تنجم عن الاضطراب، وعدم الاستقرار حتى قال فيهم عمر بن الخطاب للمغيرة بن شعبة : وأي نائب اعظم من مئة الف لا يرضون عن امير ولا يرضى عنهم امير !

واستمرت الكوفة في هذا التبرم بالولاة والتمرد عليهم وقد اشتد الأمر أيام عثمان بن عفان وكان المغيرة بن شعبة والياً من قبل عمر بن الخطاب فشكى أهل الكوفة الى عثمان فعزله وولى مكانه سعد بن أبي وقاص ثم عاد فعزل سعد بن أبي وقاص وولى الوليد بن عقبة ورغم ما كان الوليد يظهر التقرب للكوفيين والتحبب اليهم والرفق في معاملتهم حتى بقي خمس سنوات وليس على داره بواب ولكن الكوفيين شكوا منه اذ حصلت منه خلافات ومخالفات للدين والعادات العربية فاضطروا إلى رفع الشكوى عليه عند عثمان وشهدوا عليه بالفسق ، وقد وقعت خلافات بين القبائل بسبب الوليد إذ حكم على جماعة بالقتل كانوا قد ارتكبوا جريمة عظم وقعها على قبيلة من عوقبوا فأظهروا العداء للوليد ولعثمان واتسعت شقة الخلافات وكثرت الفتن والمشاغبات فكانت غير مستقرة على رأي .

* * *

والأمر الذي لا شك فيه ولا خلاف حوله ، هو أن الجيش الاسلامي

الذي نزل الكوفة نزلها قبائل ، وان كل قبيلة اختطت لها خطة مستقلة وأن الحياة الاجتماعية بدأت في الكوفة حياة قبلية .

وتمضي الحياة في الكوفة قبلية ، كما بدأت فيها الاحساس بالقبلية ، وفيها غلبت روح القبلي ، على كل شيء ومن هنا غلب على الحيـــاة فيها طابـع الجاهلية [1]

وكان من نتيجة هذا أن اخذت العصبيات كل حياة القوم الاجتماعية في جميـع اتجاهاتها ، فقد أمضوا اوقاتهم هناك يثيرونها ويتحدثون بها ، ويتعقبون باحاديثهم ، ما كان منها في الجاهلية وما اتصل منها في الاسلام وكأنما ذهبت وصايا النبي (ص) وما دعى اليه من نبذ التفاخر، والتكاثر مثل قوله في خطبة الوداع :

أيها الناس إن الله اذهب عنكم نخوة الجاهلية
وفخرها بالآباء كلكم لآدم ، وآدم من تراب [2].

وعلى هذا فالكوفة تتصف بطابـع الخلافات لضعف الروابط بين اهلها ولاختلاف العناصر والقوميات ، وتحكم العصبيات القبلية مما جعل الخلافات بين العرب انفسهم يزداد على مر الزمن ويتسع باتساع البـــلد وكثرة السكان .

كما تضاعفت عوامل الفرقة بين الأُمويين والكوفيين وتعددت أسباب الخلافات لعوامل كثيرة واتسعت شقتها ومن ذلك :

---

(١) شوقي منيف التصور والتجديد في الشعر الأُموي ٨٠/٨١ .

(٢) المصدر السابق .

ابعاد جماعة من زعمائهم وعلى رأسهم مالك الأشتر النخعي ، عندما نقدوا سيرة ولاة عثمان ، فأمر باخراجهم الى الشام [1] .

وان تلك القبائل العربية ذات النخوة والشرف، والقدم في الحروب ، قد ساءها ما تتمتع به بنو أُمية ، من تملك الاقطاعات الكبيرة ، وتوفر المال عند رجالها ، دون غيرهم من رجال العرب الذين سكنوا الكوفة ، وهي القاعدة الحربية التي أُعدت للفتح والدفاع ، وقد تعود ساكنوها على الحرب والفتح أيام عمر بن الخطاب ، فلم يتهيأ ذلك ايام عثمان فلا غزو ولا غنائم ، ولا حرب ولا فتح ، كما ان تولي مهام مناصب الدولة لبني أُمية خاصة وهو من أهم الأسباب التي وسعت شقة الخلاف بين الأُمويين والكوفيين أيام الخليفة عثمان .

فقد كان معاوية على الشام ، وعبدالله بن ابي سرح على مصر، والوليد ابن عقبة على الكوفة واعقبه سعد بن العاص ، وعلى البصرة عبدالله بن عامر وكان ممثله الخاص والمتولي على الأمر باسمه : مروان .

* * *

وعلى أي حال فقد تركز الخلاف بين الكوفيين وبين الأُمويين خاصة ويرجع ذلك لعهد عثمان ، فقد كانت الكوفة حسب وضعها السياسي ومنهجها العسكري ، أن تقف للولاة الذين تقعد بهم قابلياتهم عن أداء

---

(١) البلاذري انساب الاشراف ٤٣ .

واجبهم موقف المعارضة بشدة ، لأن الكوفيين يرون في انفسهم انهم جند الفتح وابطال الاسلام ، وهم قوة الدولة وعلى اكتافهم قامت الفتوحات ، اذ بذلوا كل امكانياتهم في تحقيق النصر ، فلا يقعد بهم عن المعارضة خوف ولا يمنعهم عن شهرة السيف سلطة، فهم على استعداد بأن يشهروا السلاح في وجه الحاكم الذي لا يرتضون سيرته،فقد طعنوا على سعد بن ابي وقاص أيام عمر بن الخطاب وتبرموا .

وكان الخليفة في المدينة يحس بهـــذا الخطر ويراقب الاحداث عن كثب وكانت في ايام عمر مقابلات ومشادة بينهم وبين الحكام تداركها عمر في تحقيق رغبات الكوفيين بعزل الوالي من ايام عمار بن ياسر فقد وقع اختيارهم على ابي موسى الأشعري ولكنه لم يسلم من طعنهم .

* * *

وكان للخوارج نشاط في الكوفة ، ولهم مركز اجتماعي وهم يتفقون مع الشيعة في بغض الأمويين والسعي للاطاحة بحكمهم لأنهم لم يجدوا في العهد الأموي الا التعذيب والجور في الحكم ، فقد سكن جماعة من خوارج البصرة ايام زياد بن أبيه فانالهم الأذى منه، وعذبهم انواع العذاب .

وكان زياد بن أبيه شديداً في سياسته قاسياً في حـــكمه ، وهو على الخوارج أشد ، منهم على غيرهم فقد اخذهم بعنف وشدة حتى التجأوا إلى الاختفاء والتشرد ، وذلك انه جعلهم تحت رقابة الرؤساء منهم فاذا أحسوا منهم بمخالفة قدموهم لينتقم منهم أشد الانتقام .

وخرج الخوارج مرة وكانت معهم امرأة فظفر بها زياد فقتلها ثم عراها فلم تخرج النساء بعد ذلك فهرب اكثرهم إلى الكوفة خوفاً من القتل والتنكيل ، والتحقوا بجماعة الخوارج المقيمين بالكوفة بعد وقعة النهروان وكان لهم نشاط محسوس ، لأنهم ايام المغيرة بن شعبة لم يواجهوا امراً يدعو إلى تفريقهم لأن المغيرة لم يرغب في منازلتهم وتتبعهم فلم يعاملهم معاملة زياد بن ابيه في البصرة حفاظاً للامن والاستقرار الداخلي ومع ذلك فهم يشاركون المغيرة بن شعبة في مهمته التي قام بها في الكوفة والتي أقدم عليها بكل جرأة رغم ما كان يخشاه من سوء العاقبة ولكن الخوارج قد أيدوا جانبه ، لأنهم يشاركونه في ذلك وهو شتم علي ابن ابي طالب على منبر الكوفة إذ هم يشتمون علياً ، في نواديهم والمغيرة يشتمه على المنابر ويخاتلهم ويحتال لجلبهم فلم تحصل بينهم وبينه فرقة فقويت شوكتهم .

وحسبي من البيان ما قدمت في هذا العرض لاعطاء صورة عن مجتمع الكوفة التي رسم لنا المؤرخون لها صورة تمثل التقلبات ، ووسموها بطابع الغدر والنفاق والخيانة ، والتذبذب ، والتردد ، وجعلوا ذلك وسيلة للطعن على الشيعة اذ اهمل المؤرخون كل جانب من جوانبها الاجتماعية ، ولم يلتفتوا الى تلك العوامل المهمة التي أدت بمجتمع الكوفة الى انحلال الروابط ، وكثرة الفتن ، ونشر الفوضى في الاتجاهات .

واني لا اتكلف اختلاق الادلة ولا انا بحاجة الى التمحلات في التوجيه

بل اقول بامانة وإخلاص : إن الكوفة لم تكن شيعية على الإطلاق ، ولم تكن نزعتها العامة نزعة علوية .

نعم ان ذلك الاطلاق في التسمية جاء متاخراً عن ذلك العصر ، يوم اشتد الصراع العقائدي بين المذاهب ، واستطاعت السياسة أن تفصل الشيعة عن المجتمع الاسلامي ، وسار بعض علماء الحديث والفقهاء في ركاب الدولة ، فمنعوا من قبول رواية الشيعي ،لأنه مبتدع ـ كما يقولون ـ وقسموا الشيعي إلى معتدل ، ومحترق ، ورافضي .

فالأول هو الذي يحب الشيخين ، ويقدم علياً على عثمان .

والمحترق هو الذي يقدم علياً على الثلاثة ، والرافضي هو الذي يبغض الثلاثة ويتبرأ منهم .

وبدون جدل ان الكوفة بمجموعها ما عدا العثمانية تقدم علياً على عثمان بل الغالبية يبغضون عثمان وهم الذين اطلقوا الشرارة الأولى عليه. فاطلاق التشيع على الكوفة انما هو اصطلاح استعمله المحدثون ولا نطيل الحديث حول هذا الموضوع فلسنا بصدد البحث عنه ونعود إلى مسايرة ركب الحسين (ع) والحديث عنه :

نَحْوَ العِرَاق

العراق منطلق الثورات ، ومهد العروبة ، والاسلام ، ومضرب المثل في شجاعته واقدامه ، كما عرف بطابعه السياسي ، المناوىء لكل سلطة غاشمة .

عاش العراق في عهدمعاوية وهو يرزح تحت نير الاستبداد والتعسف واصبح يكابد الآم الفرقة ، ومشكلة إنحلال الروابط الاجتماعية ، عندما طبق الامويون سياسة (فرّق تسد) لاقامة دعائم سلطانهم في فسحة التباعد . والعراق يأمل التخلص من ذلك العهد الأسود ، والخروج منه بين آونة وأُخرى .

وكان الحاح الكوفة على الحسين بالقدوم اليهم هو غاية ما يصبو اليه ذلك البلد ، وقد لاحت في الافق علائم النصر ، إذ بلغهم عزم الحسين على التوجه إلى العراق ، بعد ورود كتاب سفيره ورائده مسلم بن عقيل وبعد أن وردت اليه كتبهم ، ونزلت بساحته وفودهم ، وهم يحملون الرسائل من الرجل والاثنين ، والثلاث ، والاربع ، وكلهم بانتظاره كما ارسلت الكوفة ستين شيخاً من شيوخ البلد ، واعيان المصر لمرافقة ركب الحسين عند خروجه من مكة. وقد لازمه ذلك الوفد حتى نزل في كربلاء وقتلوا معه .

وباتت الكوفة تتهيأ لاستقباله بفرح وسرور وكلهم بانتظاره ، وعلى استعداد لنصرته ، ولم يبلغه (ع) خلاف نشأ في الكوفة عاصمة

العراق ، ضد استدعائه والاستغاثة به ، فالأندية تلهج بذكره ، واكثر القبائل ملتفة حول رسوله مسلم بن عقيل ، يحثونه على الإسراع لدعوة الحسين فالبلد كله مستجيب له .

هذا وكان هو على موعد مع زعماء الكوفة ، منذ وقوع الهدنة بين الحسن (ع) وبين معاوية . كما تقدم .

وشاع نبأ عزم الحسين (ع) على الخروج إلى العراق بدون تحديد للوقت وتعيين للزمن .

واهتم يزيد لنبأ عزم الحسين على الخروج إلى العراق ، فاتخذ شتى الوسائل للحيلولة بينه وبين العراق ، فاخذ يراسل جماعة من أعيان الصحابة لعرض وجهة نظرهم على الحسين في خروجه إلى العراق،ومنعه عن ذلك .

فكتب إلى ابن عباس كتاباً جاء فيه : وجاءه أي الحسين رجال من أهل هذا المشرق فمنّوه الخلافة ، وعندك منهم خبرة وتجربة : فان كان فعل فقد قطع أواشج القرابة ، وأنت كبير أهل بيتك والمنظور اليهم ، فاكففه عن السعي في الفرقة ثم كتب ابياتاً منها :

يا قومنا لا تشبّوا الحرب إذ سكنت
وأمسكوا بحبال السلم واعتصموا

فأجابه ابن عباس بقوله :

إني لأرجو ألا يكون خروج الحسين لأمر تكرهه

ولست أدع النصيحة له في كل ما يجمع الله به
أمر الأمة ، وتطفى به النائرة [١] .

وكتاب ابن عباس هذا لا يعبر الاّ عن تهدأة لخاطر يزيد حرصاً لمعالجة الأمر ، وتدارك الفادحة،وكان رأي ابن عباس هو صرف الحسين عن اتجاهه للإستجابة لدعوة أهل الكوفة ، ولذلك أشار عليه أن يسلك طريق الانعزال وان يترك اعلان الحرب على يزيد ، والا فالشخوص إلى اليمن ، ويراسل أهل العراق ، فإذا لم يفعلوا ما يأمرهم ، فهنا ينطوي على نفسه ، إلى أن يأتي أمر الله ، وهـــذا ما يدل عليه كلام ابن عباس للحسين (ع) :

بلغني انك تريد العراق ، وأنهم أهـــل غدر ، وانما يدعونك للحرب ، فلا تعجل وان أبيت الا محاربة هذا الجبار ، (يعني يزيد) وكرهت المقام بمكة فاشخص إلى اليمن ، واكتب إلى أهـــل الكوفة ، وانصارك بالعراق فيخرجوا أميرهم ، وان لم يفعلوا ، أقمت بمكانك ، إلى أن يأت الله بأمره فان فيها حصوناً وشعاباً [٢].

وكأنّ ابن عباس قد جاء بشيء جديد ، وان القضية غير مدروسة وان الحسين في أمر مبهم فجاء ليوضح الطريق،أو يحل المشكل بسكوت الحسين (ع) والإبتعاد عن يزيد ، فاشار عليه بالذهاب إلى اليمن لأن

---

(١) تاريخ ابن عساكر ج ٤ ص ٢٢١ التهذيب .
(٢) المسعودي مروج الذهب ٣/٦٤ .

فيها حصوناً وشعابا ، وهي ارض عريضة طويلة ، وفيها شيعة للإمام علي ، فهو يريد من الحسين أن يكون بعزلة عن هذا العالم ، بعيداً عن المجتمع ومشاكله ، إذ يعيش في البلاد النائية ويلتحق بالجبال ، ويترك واجب الجهاد ، وكان الحسين لا تهمه إلا نفسه ، ولا يخشى إلاّ من عداء يزيد له ولأهل بيته ، وهو بمعزل عن المجتمع الإسلامي ، الذي اصطدم بعقبة كؤود تنذر بأخطر العواقب .

وكان عبدالله بن عمر يشير على الحسين بترك الجهاد ، والدخول في بيعة يزيد بن معاوية ، وهو يمزج أقواله بنوع من النصيحة والاشفاق . دخل إبن عمر مع إبن عباس علي الحسين (ع) وهو يحاول أن يثنيه عن عزمه على الخروج فقال له :

يا أبا عبدالله قد عرفت عداوة هذا البيت لكم وظلمهم أياكم ، وقد ولى الناس هذا الرجل ، يزيد بن معاوية ولست آمن أن يميل الناس اليه لمكان هذه الصفراء والبيضاء ، فيقتلوك ويهلك فيك بشر كثير ، فاني سمعت رسول الله (ص) يقول: « حسين مقتول فلان خذلوه ولن ينصرونه ليخذلنهم الله إلى يوم القيامة ، وأنا أشير عليك أن تدخل في صالح ما دخل فيه الناس وتصبر كما صبرت من قبل [(١)] .

فقال له الحسين منكراً عليه : يا أبا عبد الرحمن أنا أُبايع يزيد وأدخل في صلحه وقد قال رسول الله (ص) فيه وفي أبيه ما قال ؟ !!.

---

(١) الخوارزمي ١/١٩١ .

ويشتد ابن عمر في المعارضة وهو يحاول أن يثني الحسين عن عزمه ، وقام يصور الموقف ومخاوفه ، وهو يرى أن دخول الحسين في بيعة يزيد تضمن للحسين السلامة .

فأجابه (ع) بقوله :

اف لهذا الكلام ابداً . ثم وجه اليه الأسئلة التالية :
هل أنا عندك على خطأ من أمري هذا ، فان كنت عندك على خطأ فردني فاني اسمع ؟!!
فقال ابن عمر : اللهم لا . ولم يكن الله تعالى يجعل ابن بنت رسوله على خطأ ليس مثلك في طهارته ، وصفوته من الرسول... ولكن أخشى ان يضرب وجهك بالسيف ، وترى من هذه الامة ما لا تحب ، وإن لم تحب أن تبايع اقعد في منزلك .

فقال له الحسين (ع) بعد كلام طويل :

اتق الله يا أبا عبدالرحمن ، ولا تدعن نصرتي . واذكرني في صلاتك ، فوالذي بعث جدي محمد (ص) لو أن أباك عمر بن الخطاب أدرك زماني لنصرني كنصرته جدي وأقام ، من دوني كما قام بين يدي جدي .
يا ابن عمر فان كان الخروج مما يصعب عليك ويثقل فانت في اوسع العذر ، ولكن لا تترك الدعاء في دبر كل صلاة ، واجلس عن القوم ،

ولا تعجل بالبيعة لهم ، حتى تعلم إلى ما تؤول
اليه الامور [1] .

فالحسين يوجه نصحه لابن عمر في عدم المسارعة لنصرة يزيد ، وأن لا يزج نفسه في المعترك السياسي ، الى جانبهم بعد أن أحجم عن نصرة الحسين .

كما نصحه (ع) بأن يتجه للدعاء والصلاة ، ويترك معاونة يزيد حتى ينظر ما يؤول اليه أمر الأمة ، ولو أخذ ابن عمر بنصيحة الحسين لكان أعود على المسلمين وخير لابن عمر ، والحسين أدرى باتجاه ابن عمر ومنحاه السياسي ، لذلك نصحه أن يترك مؤازرة يزيد .

وكان محمد بن الحنفية ممن يرى عـــدم رجحان خروج الحسين إلى العراق ، ويرى الأرجح بقاءه في مكة ، وهناك يتصل بأنصاره .

وقال له : يا أخي أرأيت أن تقيم فانك أعز من
في الحرم وأمنمه [2] .
فأجابه الحسين (ع) بقوله : يا أخي قد خفت
ان يغتالني يزيد في الحرم فأكون الذي يستباح
به حرمة هذا البيت .
فقال له ابن الحنفية : فان خفت ذلك فسر الى
اليمن فانك أمنع الناس ولا يقدر عليك أحد .
فقال الحسين (ع) : انظر فيما قلت.

وعرض ابن الزبير على الحسين (ع) الاقامة في مكة ، ويبايعه الناس

---

(١) الفتوح لابن أعثم ٥/٤٣-٤٤ .
(٢) الارشاد ص ٢٠٣ .

فاجابه (ع) بقوله : لأن أقتل بمكان كذا وكذا أحب إليّ بان تستحل بي حرمة مكة .

قال البلاذري : وانما أراد ابن الزبير بذلك أن لا يتهمه ، وان يعذره في القول[1] .

وقال لابن الزبير مرة أُخرى : لأن أُقتل خارج مكة بشبر أحب إلي أن اقتل فيها ، ولأن اقتل خارجاً منها بشبرين أحب إليّ أن أُقتل خارجاً منها بشبر[2] .

وعبدالله بن الزبير لم يكن شيء اثقل عليه من مكان الحسين في الحجاز ولا أحب اليه من خروجه إلى العراق طمعاً في الخلافة ، وعلماً بانه لا يتم له أمر إلا بعد خروج الحسين (ع)[3] .

ويؤيد هذا قول ابن عباس لابن الزبير عندما آيس من منع الحسين (ع) من الخروج إلى العراق ، ولقيه ابن الزبير على الباب قال ابن عباس : يا ابن الزبير قد أتى ما احببت قرت عينك هذا ابو عبدالله يخرج ويتركك والحجاز ثم قال :

يا لك من قبرة بمعمر
خلا لك الجو فبيضي واصفري

ايس ابن عباس من اقناع الحسين (ع) والاستجابة لرأيه وكيف

---

(١) انساب الاشراف خط .

(٢) نفس المصدر .

(٣) أبو الفرج : المقاتل .

يستجيب لأمر فيه انتصار خصمه عليه وضياع الحق الذي من أجـــله اعلن ثورته ؟

فلو أقام الحسين بمكة ، فإن الأُمويين لا يرون للبيت حرمـــة ، ولم يسلم الحسين من غدرهم وهو في حمى البيت كما تقرر في خطة الإغتيال ، ومن أجل ذلك أسرع في اليوم الذي يتوجه فيه الناس لمشاعر الحج .

ولأن لم تنجح الخطة في الاغتيال فلا أقل من حصره بمكة ، وصده عن الخروج لاية جهة،فاما أن يعلن الحرب في الحرم،وهوالمحرم فيه سفك الدم ، أو يستسلم لعوامل الضغط والإرهاب ، أو يقتل عند خلو البيت من وفوده ، فكان إصراره وهو أعلم بهذه العوامـل وأن الأمر يمتـد الى عوامل أُخرى .

فكان عليه السلام في إسراعه رعاية للمصلحة العامـة ، ومحافظة على حرمة البيت وتحقيقاً لأهدافه البعيدة المدى . وعندمـــا سئل (ع) عن أسباب خروجه يوم التروية قال : لو لم أعجل لأُخذت أخذاً .

فهو (ع) على بينة من أمره ، وأما المخذلون له فإنهم يحسبون للأمر حسابه حسب ما توحيه اليهم دوافعهم النفسية . وكان هؤلاء الذين أشاروا عليه أكثر خبرة وتجارباً عندمـا يرى له بعضهم العزلة عن المجتمع ، والآخر يرى له أن يكف عن المعارضة ، وذاك يدعوه للبيعة وكانهصنع جميلا وأسدىمعروفا !!!.

ان الحسين (ع) كان عالماً بتلك التحركات ووضع الأُمور في ميزان

الحكم ، وقدر للظروف حسابها ، فلم تكن معارضته يشوبهـــا تردد بين إقدامه إن ساعدته الظروف ، أو رجوعه عن ذلك إن خذله أنصاره ، ولم يدر في خلده أن يترك يزيد على دست الحكم يتحكم في أُمة محمد كيف شاء ، وهو في قيد الحياة ، فكان (ع) مستعداً منـذ البـداية للتحمل في المجابهة والمواجهة .

ولقد لمس أثناء إقامتهفي مكة ما يحمله المسلمون من التحسس بواجب الجهاد ضد يزيد وحملهم مسؤولية نشر الدعوة ومناصرة الإسلام وأوضح لهم منهج ثورته وغاية مسيرته .

وبمزيد الأسف أن الذين ألحوا على الحسين بعـــدم الخروج لم يقفوا الموقف الذي يحتمه عليهم واجب الاسلام من نصرة الحق ، فقد كانوا يقفون امام الحسين لمنعه عن الخروج ، لأنهم ينصرونه لو مـــكث في مكة ، ولكنهم راحوا يلحون عليه في مبايعة يزيد والدخول في طاعته.

فهذا أبو سعيد الخدري مناصحاب رسول الله(ص)،قد أجهد نفسه باقناع الحسين في ترك الخروج من مكة إلى الكوفة لا لشيء هناك يعود لمصلحة الأُمة ،أو انه يقوم بما يحتمه واجب الصحبة ، ولكنه أراد أن يلزم الحسين بالبيعة ليزيد وأن يدخل فيا دخل فيه الناس . وما ذلك من ابي سعيد إلاّ استجابة ليزيد عندما ندبه لهذه المهمة .

والغريب كل الغرابة أن يقوم ابو سعيد باقناع الحسين بعدم الخروج

على يزيد ويعتبر يزيد اماماً فيدعو الحسين لمبايعته إن صح(*) ما روي عن ابي سعيد انه قال غلبني الحسين على الخروج وقد قلت له إتق الله ولا تخرج على امامك[1] .

وكانت هذه المواقف من الناصحين ـ كما يقولون ـ هي مثار جدل وحوار طِويل وأخذ ورد، ووضع علامات استفهام حول هذا الموضوع.

وهي أول حجر يضعه المغرضون في طريق نهضة الحسين وإخفاء معالم ثورته ، فذهب البعض من المؤرخين والكتاب ينتزعون من هـــذه المواقف صورة اسفاف وبعد غور في معرفة نتائج المعركة وكأن الحسين ارتجل نهضته فوقع في الخطأ الذي أخطأ اولئك الكتاب في تصوره .

ولعل أشد ما يبعث عليه من الدهشة والاستغراب ، هو ما يجابهنا به بعض الكتاب من أقوال يرددونها مرة بعـــد أُخرى ، وهي بعيدة عن الواقع ، بل هي تحامل مكشوف ، ونزعة أُموية حاقدة .

(*) غريب كل الغرابة أن يصدر هذا القول من ابي سعيد الخدري !! وهو المعروف باستقامته وقد عرف بحبه للامام علي وموالاته له . يقول الاستاذ كرد علي في خطط الشام ج ٦ – ٢٥١ :

عرف جماعة من كبار الصحابة (ع) بموالاة علي في عصر رسول الله ، مثـــل سلمان الفارسي القائل: بايعنا رسول الله، على النصح للمسلمين والائتمام لعلي بن ابي طالب، والموالاة له. ومثل ابي سعيد الخدري الذي يقول : أُمر الناس بخمس ، فعملوا باربـع ، وتركوا واحدة .

ولما سئل عن الاربـع قال : الصلاة . والزكاة وصوم شهر رمضان والحج قيل له فما الواحدة التي تركوها .

قال : ولاية علي بن ابي طالب .

قيل له : وانها لمفروضة . قال : نعم هي مفروضة معهن .

ونحن نستغرب من ابي سعيد رضي الله عنه مناصرته ليزيد اللهم إلا من باب التقية . المؤلف

---

(١) تاريخ الاسلام ج ٢ ص ٣٤٢ .

انهم يرددون قولهم : ان الحسين لم ياخذ بقول الناصحين له عند خروجه الى العراق ، وانه لم يأخذ بقول شيخ الصحابة عبد الله بن عمر .

وقد أشرنا الى أقوال الناصحين - كما يقولون - وانها لا تتعدى حدود إلزام الحسين بعدم المعارضة لحكم يزيد ، أو يدخل فيما دخل فيه الناس ، يعني المبايعة ليزيد .

وقد صرح بعضهم [1] بما هو أفظع وأبعد من حدود التعقل وموازين الآداب فنسب الخطأ إلى الحسين بخروجه الى العراق وانه شق عصا المسلمين .

ولا نتكلف هنا بالرد على هذا الشيخ الذي يعيش في أوهام الطائفية ، ويخضع لسلطان التعصب الأعمى ، فالأمر أوضح من أن نجهد أنفسنا بالبيان :

فالشمس لا تنفك ناصعة وإن سمجت محاسنها بعين الأرمد

وهلم معي لنقف على قول محيي الدين بن العربي لنعرف مقدار ما يتمتع به هذا الشيخ من عقلية وما يحمله من معرفة بالأمور .

يقول ابن العربي في قواصمه :

وما خرج اليه (أي الحسين (ع) إلا بتأويل ، ولا قاتلوه إلا بما سمعوه من جده

(١) هو الشيخ محمد الخضري المصري في محاضرات تاريخ الامم الاسلامية .

المهيمن على الرسل ، المخبر بفساد الحال ، المحذر من الدخول في الفتن ، وأقواله في ذلك كثيرة فمنها :

انه ستكون هناك هنات وهنات ، فمن أراد أن يفرق أمر هذه الأُمة وهي جميع ، فاضربوه بالسيف ، كائناً من كان . فما خرج الناس إلا بهذا وأمثاله [١] .

* * *

بهذه الصورة يبرز ابن العربي على مسرح شطحاته ، وبهذا الشكل الغريب يمثل دور خرافاته ومفتعلاته .

انه يمثل على المسرح أي دور مضحك ، ويظهر أمام القراء بشكل غريب من المهازل والسخرية ، والاستهزاء بعقول الناس ، فهو بدوره هذا يحاول أن يسحر القراء ، فيبرز أُولئك الفسقة الفجرة ، قتلة أولاد الأنبياء ، بأنهم مجتهدون ، فلهم حسنة ، أو انهم من الصحابة حسب تعبيره : انهم سمعوا من الرسول . وقد اعترف ابن العربي بما ينقض هذا الرأي ، فوصف قتلة الحسين بأنهم الغوغاء من الناس ، فهنا قد ناقض نفسه بنفسه . ثم ياتي بحديث أحدثته يد الوضاعين والكذابين ، الذين ساندوا حكام الجور وأئمة الضلال .

---

(١) القواصم لابن العربي ٢٣٢ .

ان قول ابن العربي يحتم علينا الوقوف مدة لرده ونقضه ، ولكننا لا نجد أنفسنا بحاجة الى ضياع الوقت معه ، فقد كشف بنفسه عن جهله - وعلى أهلها دلت براقش - بما صدر من شذوذه في شطحاته الفكرية ، ورموزه السحرية .

وحسبنا في رده بهذا الموضوع ، ما ثبت من حقائق ، تدل على الموجات العصبية الطاغية ، والتي دلت على شذوذه الفكري ، وانحرافه عن الواقع .

ولا نكلف أنفسنا بايراد مستند على رده ، بعد أن وقفنا على كثير من آرائه وأوضحها شذوذاً ، وأعظمها تجنياً : هو ما ذهب اليه في براءة فرعون ، وانه مؤمن ولقي ربه راضياً مرضياً طاهراً مطهراً .

وجاء قوله في فصوص الحكم (قولاً جازماً في إيمان فرعون ، إيماناً لازماً ، فانه قد لقي ربه طاهراً مطهراً ، سالماً من العيب ، بريئاً من الذنب) . هذا هو قول ابن العربي .

وهكذا جاء في مقدمة كتاب (ايمان فرعون) لجلال الدين الدولابي ، والرد عليه لملا علي القارىء ، فان الرجل قد خالف القرآن واعتقاد المسلمين فلا يستبعد مخالفته هنا .

وبعد إيراد هذا ، ندع ابن العربي وهذيانه ، ونتجاوزه تاركين تقدير ذلك للقراء .

كما نترك لهم غيره ممن يلقون الأقوال بدون تعقل وتفكر .

إنا ندع الرد على الجميع لمحل آخر إن شاء الله ، ولنتابـــع مسيرتنا مع ركب الحسين (ع) فالمسافة بعيدة ونحن في بداية الطريق !

المعارضة بالقوة

ولما شاع نبأ توجـــه الحسين إلى العراق في تلك اللحظة الحرجة ، والسرعةالغريبةاصبحت السلطة امام اهم مشكلةتقف امام نفوذهاوذهبت المحاولة التي اتخذوها في مكة إذ فشلت المؤامرة التي دبروها لقتله غيلة ، فلم يكن امامهم إلا حصر الحسين أو صده عن الخروج بالتهديد والتوعيد إذ لم يمكنهم المقابلة العلنية ، واعلان الحرب عليه ، مراعاةً للمجتمع وجرياً مع الظروف .

وبادر عمرو بن سعيد بن العاص والي مكة وامير الحج وقائد كتيبة الاغتيال ، فأرسل للحسين مع يحيى بن سعيد بن العاص جيشاً ، وحاول جاهداً أن يصرف الحسين عن التوجه إلى العراق ، وطلب منه أن يقيم بمكة آمناً سربه ، وليس عليه شيء ..

فكان رد الحسين ليحيى بن سعيد ولجنده المحيطين بـــه رداً بالقوة عندما حاول ارجاع الحسين وهدده بالمنع من التوجه إلى العراق ، ولكن الحسين واصحابه وقفوا موقف البطولة، وبلغ الأمر إلى التدافع والضرب بالسياط دون أن يشهر السلاح[١] .

---

(١) البلاذري : انساب الاشراف خط ص ٢٤٠ .

ورجع يحيى بن سعيد إلى أخيه خائباً وذهبت الجهود التي بذلها لحصر الحسين في مكة أو صده عن السفر إلى العراق ، وبهذا فشلت خطة الاغتيال وسار الحسين متجهاً إلى العراق ، فان الكوفة بانتظاره لتحتضنه اعتزازاً به ودفاعاً عنه وأن تقيم باسمه دولة اسلامية تسير على العدل وتحكم بالكتاب والسنّة فهو ابن رسول الله وأبوه علي وقد عاش معه أهل الكوفة مدة بأمن واستقرار .

* * *

ترك الحسين مكة المكرمة وودع بيت الله وكعبة المسلمين وقبلتهم ، وانطلق ركبه المكون من صفوة أهل بيت النبوة وحملة الرسالة ، وقد رافقته ابطال العراق الذين قدموا اليه ليبلغوه دعوة الثوار واستنهاضهم به وهم يحملون اليه رسائل الدعوة ، ومواثيق البيعة وكان عدد هؤلاء ستون شيخاً من أعيان الكوفة وزعمائها .

كما التحق به عدد كبير من حجاج بيت الله الحرام فكان حدث خروجه عليه السلام هو أعظم حدث في تاريخ الاسلام كما انه في الوقت نفسه اعظم عقبة تصطدم به الدولة الأموية .

وهذا الحادث هو أقوى وسيلة اعلام للثورة ضد الامويين ولم يكن ذلك من باب المغامرة السياسية ولا وسيلة عاجز عن ادراك ما يصبو اليه في مهمته ، ولا حركة من حركات التجارب التي يامل القائمون بها الوصول إلى نتائج الصواب وان كان الخطأ يكتنفها .

انما هي حركة اصلاح دينية ، وابتداء مسيرة اسلامية تتجـــه نحو هدف معين ، وغاية يتحقق فيها للمسلمين أعظم عوامل الظفر .

كانت انطلاقة الحركة من مكة تحمل للامة كل خير ، وتجسد لهم كل حقوقهم في الحياة ، وسيرتهم في الزمن .

لقد ترك الحسين مكة تموج لحادث خروجه بهذه السرعة بعد أن أعلن السبب الذي من أجله سارع في الخروج ، وذلك لصيانة البيت ، ورعاية حرمته ، ولا يستغرب من عهد يزيد أن ترتكب جريمة قتـــل الحسين في الكعبة ، ولو لم يخرج لوقع الحادث الذي صمم عليه الأمويون وارسلوا من ينفذ لهم خطتهم .

* * *

وبعد أن انفصل الركب عن مكة ، ولقيه الحجاج المتوجهون اليها لأداء فريضة الحج كان ذلك مثار استغراب للوضع ، وطرح الأسئلة عن اسباب هذه المبادرة ، وتساءل الناس عن ذلك فكانت الحقيقة هي مضايقة الامويين له ، وعزمهم على اغتياله ، ولو في المسجد الحرام ، وحمل كل ركب الى بلده ذلك النبأ المحزن ، وبقي حديث الناس ، في جميع الاقطار الاسلامية ، هو حديث الحسين وغضبه على الحكم القائم ، فانه نهض للاصلاح ، ونصرة الحق ، وناهيك بما تحمله هـذه الانباء من أثر سيء على الوضع السياسي ، وفتح باب المؤاخذة على العهد الجديد .

فكان ركب الحسين يجوب الفيافي وقلوب المؤمنين تشايعه ، وآذانهم

صاغية لأخباره ، وعيونهم شاخصة لطلائع النصر ، وعلامات الظفر ، وباتت الأيام حبلى ولا يعلم أحد ما تلد في الغد .

وبمزيد الأسف جاء ما لم يكن بالحسبان فانطوت صحيفة ذلك الأمل وانقلب الوضع وتغيرت الحالة وإذا بالكوفة تنتظر الحسين لتسقي سيوفها من دمه ، وتطعم نبالها من لحمه ، تريد ان تحتضن جسد الحسين لتوزعه السيوف ، وتطعنه الرماح وتسحقه الخيول بحوافرها ، لتطحن اضلاعه .

الكوفة تنتظر الحسين لتثب عليه وثبة الأسد وتنشب أظفارها بذلك الجسد الطاهر .

الكوفة تنتظر الحسين لتسبي عياله بدل أن تحميهم ، وتروع أطفاله بدل أن تؤويهم .

الكوفة تنتظر الحسين (ع) الذي قدمت له الدعوة واستصرخت به ولكنها لا تقيم له ما يجب من الضيافة وبدلاً من ذلك فقد ضرب الحصار عليه ، ومنع من الماء والغذاء ، وقابلوه بوجه لا يعرف الخجل ، جرى في علم الله ذلك وقضي الأمر فلا راد لقضاء الله « فانا لله وإنا اليه راجعون » .

كانت الكوفة تنتظر الحسين وتلهج بذكره وتستعد لاستقبال ركبه الذي انفصل من مكة ، فكان الواجب المحتم كما يقتضيه الحال أن تستقبل هذا الركب المقبل بجيش يعبر عن قوتها واستعدادها ويعطي صورة

الولاء الصادق وتصديقاً لما سبق من الدعوة ، والاستعداد للنصرة ،وبذل النفوس في القضاء على الحكم الأُمـــوي وإقامة حكم عادل ، كان هذا هو الأمر المتوقـــع والشيء الذي أدت اليه نتائج الهياج الشامل ضد الحكم القائم .

* * *

وسار الحسين نحو العراق لا يـــلوي على شيء ، وكان في مسيرته ترافقه آمال غالبية من الناس الذين ساءهم وضع المجتمع ، فهم يركزون على دخول الحسين الكوفة أهدافاً بالغة الأهميـــة ، من حيث إصلاح الوضع الاجتماعي والسياسي .

وقد رافق ركبه كثير من الحجاج وغيرهم لينضموا الى جانبه عندما يصل الكوفة والأوضاع كما هي من دون تبدل وتحول .

ولما بلغ وادي العقيق،فنزل ذات عرق لقيه رجل من بني أسد يسمى بشر بن غالب وارداً من العراق ، فسأله عن أهلها فقـال : القلوب معك والسيوف مع بني أُمية . فقال (ع) : صدق أخو بني أسد ويحكم الله ما يريد .

وهنا تظهر امارات بعض التبدل في الموقف ، ولكن لنفوذ شخصية الحسين وهيمنته على الأُمور لم يتأثر بتلك المؤثرات التي طرأت ما دامت القلوب معه ، وهو على ثقة بأن تلك الظاهرة التي جعلت من المجتمع

من يخالف ضميره ووجدانه ، لا بد أن تزول بسرعة ، أمـــام شخصيته وأهدافه السامية في التوجيه ، والإصلاح ، والرعاية ، وما دامت الجهة التي استدعته متماسكة ، وهي تحت رعاية سفيره وابن عمـــه مسلم بن عقيل .

ومن بطن الحاجر وجه اليهم كتـــاباً يقول فيه : بسم الله الرحمن الرحيم من الحسين بن علي الى اخوانه من المسلمين والمؤمنين ؛ سلام عليكم فإني أحمد اليكم الله الذي لا إله إلا هو (أما بعد) فإن كتاب مسلم بن عقيـــل قد جاءني يخبرني فيه بحسن رأيكم واجتماع ملئكم على نصرنا ، والطلب بحقنا ، فسألت الله أن يحسن الصنيع وأن يثيبكم على ذلك أعظم الأجر ، وقد شخصت اليكم من مكة يوم الثلاثاء لثمان مضين من ذي الحجة ، يوم التروية ، فإذا قدم عليكم رسولي ، فانكمشوا في أمركم ، وجدوا فإني قادم عليكم في أيامي هذه إن شاء الله ، والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته .

وأرسل الكتـــاب مع قيس بن مسهر الصيداوي .

* * *

ونلمس هنا ان الأمر أصبح يدعو الى مزيـــد من الاهتمام لمواجهة صراع قد يحدث مما كان يخشى حدوثه ، فهو (ع) يامر أصحابه بالثبات

ويذكرهم بوجوب الاحتراس ، والحذر من أن تنفصم وحدتهم ، حتى يقدم اليهم ، وهناك تنتهي كل خلافات المجتمع من ذوي النفسيات اللئيمة ، والهزيلة في بنائها الأخلاقي ، وهو (ع) باستطاعته أن يثير الحماس الديني ، ويلتف المجتمع حوله .

وسار قيس وهو يحمل كتاب الحسين (ع) ، فلما وافى القادسية ، وقد أُقيمت على الحدود شرطة ابن زياد تحت قيادة الحصين بن تميم ، فأراد أن يفتشه ، فاخرج الكتاب ومزقه ، وحمل الى ابن زياد ، فلما مثل بين يديه قال له :

من أنت ؟

قال : أنا رجل من شيعة أمير المؤمنين علي ابن أبي طالب .

قال : فلماذا مزقت الكتاب ؟

قال : لئلا تعلم ما فيه .

قال : وممن الكتاب وإلى من ؟

قال : من الحسين إلى جماعة من أهل الكوفة لا أعرف أسماءهم .

فغضب ابن زياد وقال : والله لا تفارقني حتى تخبرني بأسماء هؤلاء القوم ، أو تصعد المنبر فتسب الحسين بن علي ، وأباه وأخاه ، وإلا قطعتك إرباً إرباً .

فقال قيس : أما القوم فلا أُخبرك بأسمائهم

وتظاهر بالطاعة ، لما يطلبه من السب .
ثم صعد المنبر بقلب أقـــوى من الصخر ، وألقى على الجمـــوع المحتشدة في القصر نظرة وابتسامة ، والكل يرمقه ببصره ، ثم حمد الله وأثنى عليه وقال :
أيها الناس إن الحسين بن علي من خير خلق الله، وابن فاطمة بنت رسول الله ، وأنا رسوله اليكم ، وقد خلفته بالحاجر فأجيبوه وانصروه، وان الكذاب ابن الكذاب هو عبيـــد الله بن زياد فالعنوه ، والعنوا أباه .

* * *

انه مشهد بطولي يفوق حد الاطراء والتمجيد ، انه وحي الايمان ورسوخ العقيدة ، ومنطق الحق .

لقد كانت كلماته صواعق تنهـــال على رأس ابن زياد لما البسه من خزي واذلال .

لقد جن ابن زياد كالكلب المسعور ، وراح يلعن ويرجم شياطينه ، لأنهم امهلوه حياً حتى أكمل عباراته وأدى رسالته .

ثم أمرهم أن يلقوا بـــه من أعلى سور القصر ، فقذفوا به حيث اندقت عظامه وغربت حياته [١] .

---

(١) آل الرسول في كربلاء ١٢٠ .

نبأ المأساة

ولقي الحسين بعض الاعراب قادمين من جهة الكوفة فسالهم عن أمر الناس ؟ فقالوا : إلا ندري غير انا لا نستطيع أن نلج ولا نخرج .

ولما نزل الثعلبية بلّغه نبأ الفاجعة بقتل مسلم وهاني بن عروة فتلقى ذلك بصبر وقال : إنا لله وإنا اليه راجعون .

والتفت إلى آل عقيل قائلاً :

ما ترون فقد قتل مسلم ؟ فقالوا : والله لا نرجع حتى نذوق ما ذاق مسلم . فقال : لا خير في الحياة بعد هؤلاء .

وبعد قليل من ورود نبأ مسلم جاء نبأ قتل عبدالله بن بقطر ، وهو رسوله ايضاً إلى أهل الكوفة ، وكان موقفه موقف قيس في البطولة والثبات ونهايته كنهايته فقد أمر بإلقائه من القصر فكسرت عظامه ، وبقي به رمق من الحياة فأتاه عبد الملك قاضي الكوفة، فذبحه بمدية فعيب عليه فقال : اردت أن اريحه [1] .

وهنا يعلن الحسين للملأ بمجرى الحوادث ، وتقلب الأوضاع فيلقي بيانه التالي :

---

(١) اعيان الشيعة ٤ قسم الاول ٢٢٢

أما بعد فانه قد أتاني خبر فظيع : قتل مسلم بن عقيل ، وهاني بن عروة وعبدالله بن بقطر ، وقد خذلنا شيعتنا ، فمن أحب منكم الانصراف فلينصرف من غير حرج ، ليس عليه مني ذمام .

وهنا يقع الاختبار والتمحيص، فتفرق من ساقته المطامع الدنيوية ، ويبقى المؤمنون ذوو البصائر ، ورسوخ العقيدة .

لقد أعلن (ع) المضي في أداء رسالته ، وصمم على مواصلة مسيرته ولم تثنه تلك الأنباء المحزنة ، فهو أقوى عزماً، وأربط جاشاً عند الكوارث فلن تنهار عزيمته ولم يقعد به انهيار الجبهة التي كانت تسانده، ولم يستول عليه اليأس من مناصرة الحق .

طلائع الخطر:

وأشرف الركب على شراف ، وقبل أن يحطّ الرحل ويضع الثقل، بانت طلائع الخطر ، وظهرت كتائب الجيش الذي عهد إليه مهمة عرقلة سير هذا الركب ، والوقوف في طريقه بكل قوة .

لقد التقى بجيش ابن زياد ، وهو جيش يجوب الفيافي والقفار لا يهدأ ولا يستقر ، يطلب العثور على ركب الحسين لتنتهي بملاقاته مهمة الدولة بإلزام الحسين عليه السلام على التسليم ، والإتيان به إلى الكوفة ، وصده عن الاتجاه إلى أي جهة .

هذه مهمة الحر ، وهذه طلبة ابن زياد ، والجيش مكدود منذ مدة

لهذا الغرض ، وفي هذا اليوم طال سيره ، ونفد زاده ، وفقد ماءه ، وقد تحكم العطش فيهم ، وكان من المنتظر أن يقضي عليهم .

وعندما التقوا بركب الحسين ، وهم ذهول
من العطش كانوا على أتم استعداد للحرب ،
ولعل الفرح غمرهم ، إذ وجدوا بغيتهم ،
ولكنهم شغلوا بأنفسهم من شدة العطش الذي
كاد أن يقضي على غالبيتهم ، وكان وقت
الظهيرة فلما نظر الحسين (ع) لحالتهم قال :
لفتيانه « اسقوا القوم ، وأرووهم من المـــاء
ورشفوا الخيل ترشيفاً » .

وعندما تحقق الحسين عليه السلام من إقدام الحر وجيشه على صده، أراد أن يختار الموقع الملائم له ولأصحابه ، ومن المعروف أن الموقـــع الملائم هو نصف المعركة ، فتوجه برحله إلى هضاب ذي حَسم ، ليحط الرحل وراءه ويلقى القوم من وجه واحد ، وبهذا يكون لإحكام خطة الدفاع لها أثرها .

وأقبل الحر بمن معه من جيشه . فـكانت مقابلة ومشادة بعـد أداء صلاة الظهر ، وقد ائتم الحر وأصحابه بالحسين . وقام الحسين عليـــه السلام فكشف الحال لذاك الجمع وأنه لم يقدم اليهم محارباً أو طامعـــاً ، وانما قدمت اليه الكتب والرسل و عرض الحال للمجتمع ، بخطابه لهم :

أيها الناس اني لم آتـكم حتى أتتني كتبـــكم
وقدمت عليّ رسلـكم أن اقدم علينا فإنه ليس

لنا إمام لعل الله أن يجمعنا بك على الهدى
والحق فإن كنتم على ذلك فقد جئتكم فاعطوني
ما أطمئن اليه من عهودكم ومواثيقكم وإن لم
تفعلوا وكنتم لقدومي كارهين انصرفت عنكم
إلى المكان الذي جئت منه اليكم .

فسكتوا عنه ولم يتكلموا بكلمة واحدة[1].

وارتحل الحسين عليه السلام فمانعه الحر فلم يمتنع . وقال له الحر : إني لا افارقك حتى أُقدمك الكوفة على ابن زياد .

وكانت هذه الكلمة قاسية وتمر على مسمع الحسين بن علي فلا يتحملها فقال (ع) : الموت أدنى اليك من ذلك .

ثم أمر الحسين (ع) أصحابه بالركوب وكان الوضع ينذر بالخطر وشعر الكل بدنو كارثة الحرب وكان الطرفان على أتم استعداد لتلقي الأوامر في المصادمة .

وهنا لأول مرة تعرض امام العائلة تلك المناظر المروعة فقد بدت من جيش الحر تحركات ، وظهرت على الوجوه علامات الاستعداد للمقاومة ، وتقدم أنصار الحسين وأيديهم على قوائم سيوفهم .

وعاد الحر الى المطالبة بالحجر على الحسين ، ومما نعته عن الحركة، فقال له الحسين (ع) ثكلتك أُمك ما تريد منا ؟!!

---

(١) الارشاد ص ٢٠٧ .

فقال الحر : أما لو غيرك من العرب يقولها لي ، وهو على مثل هذه الحالة ما تركت ذكر امه ، بالشكل كائناً من كان . والله مـــالي الى ذكر أُمّك من سبيل إلاّ باحسن ما نقدر عليه .

وبعد أن اشتدت المشادة ، قال الحر : خذ طريقاً نَصَفاً بيننا لا يدخلك الكوفة ، ولا يردك الى المدينة . حتى أكتب الى ابن زياد ، فلعل الله ان يرزقني العافية ولا ينتابني بشيء من أمرك .

ثم قال: إني اذكرك الله في نفسك فاني اشهد لأن قاتلت لتقتلن .

فقال عليه السلام : أبالموت تخوفني ؟!! وهل يعدو بكم الخطب إن تقتلوني ، وسأقول ما قال أخو الأوس لابن عمه: [1] .

سامضي وما بالموت عار على الفتى إذا ما نوى حقاً وجاهـــد مسلما
وواسى رجـــالاً صالحين بنفسه وخالف مثبوراً وفارق مجرما
فان عشت لم أندم وان مت لم أُلم كفى بك ذلاً أن تعيش وترغما

* * *

وتنحى الحر عن الحسين (ع) حتى وصل الى عذيب الهجانات،وكانت مسايرته للركب انتظاراً لأمر ابن زياد ، فقد ارسل اليه يخبره بالتقائه مع الحسين ومسايرتـه له .

---

(١) المقرم ص ١٩٧ .

وبينما كان الحر يساير الحسين وهو غارق في تفكيره يدير وجوه الحيل ، ويتحسس الآراء في حل هذه المشكلة وكيف يكون المخرج من هذا المازق، أيصدر الأمر من ابن زياد بمضايقة الحسين ، وإلزامه بدخول الكوفة ، والخضوع لأمر ابن زياد ؟ وهل من الممكن ان يترك ابن زياد ، أمر الحسين ويخلي سربه فيتّجه الى أي مكان شاء ؟ أم يامره بقتاله ؟

هذه الآراء كانت تراوده والأفكار تخامره ، وبينما هو في هذا وذاك إذ أقبل رجل من جهة الكوفة . فسلّم على الحر ولم يسلّم على الحسين .

هذا هو رسول ابن زياد الى الحر ، إنه يحمل أمراً صادراً بالزام الحر في مضايقة الحسين أينما وجده وان لا يتجه الى اي جهة وان يفرض عليه الاقامة الجبرية في المكان الذي يصل الكتاب فيه فتقدم الحر بكتاب ابن زياد للحسين (ع) بهدوء وأدب .

ولما قرأ الحسين كتاب ابن زياد قال للحر : تقدم بنا قليلاً الى هذه القرية التي هي منا غلوة ، وهي الغاضرية . أو هذه الأُخرى ، وهي التي تسمى السقبة فانزل في أحدهما .

ولم يدع الحر مجالاً لاختيار الموقع الملائم الذي يساعد على إحكام خط الدفاع وكان بامكان الحسين المضي بالمسير الى الموقع الملائم ، وقد أشار عليه بعض أصحابه في مناجزة الحر لأنه في عدد قليل ، ويمكن

القضاء عليهم ، ولكن الحسين ليس من شانه أن يقاتل من لا يقاتله ، وقد سلك الحر طريق السلم من التادب مع الحسين ولم يتقدم بإثارة حرب ، أو إيقاد نار فتنة والحسين بنظره الصائب وعلمه بما وراء الحوادث ، لا يرى في المسارعة فائدة ، ولا في المبادرة للحرب وحصوله الغاية المطلوبة.

مع ركب الحسين في كربلاء :

وفي عشية اليوم الثاني من المحرم نزل ابو عبدالله الحسين (ع) أرض كربلاء في محل بعيد عن الماء، فضرب هناك خيامه وابتعد الحر بمعسكره، بعد أن نفذ أمر ابن زياد ، وهو ينتظر ما سيكون فيما بعد ، وكتب الى ابن زياد بخاتمة المطاف ، وأداء ما كلف به ، من مهمة حصر الحسين (ع). وصده ، وما كاد أن يصل الخبر الى الكوفة ، حتى ساد فيها قلق شامل ، وعصفت بها هزات فكرية عنيفة ، واصبح الكل باتجاه أمر واقع، وكانت العناصر الموالية للحسين تعوزها القيادة ، فان زعماء الحركة قد سيقوا إلى السجن وساحات الإعدام ، وأصبح هؤلاء الأفراد امام أمر لا يمكن حله، إلا بقيادة ثورية .

إذ القيادة ظاهرة أساسية في الجماعة ، وهي من حيث كونها قوة تنفيذية تعتبر من أهم العوامل التي تؤثر في الروح المعنوية ، التي تؤدي بها الجماعة نشاطها .

والقائد مثل لجنوده ، وأن جزءاً كبيراً من شجاعتهم ، وتماسكهم كوحدة محاربة مستمدة من شخصيته ،وهيمنتها على الأمور . ونحن نقرأ

في التاريخ عن معارك هزمت فيها جيوش كبيرة ، وانسحبت وهي على وشك الانتصار لمجرد موت القائد الذي يقودهـا في المعركة ، إذ أن شخصية القائد ومن يعمل تحت إمرته من الضباط عامل مهم ، لإثارة روح المعنوية سواء أكانت عالية أو منخفضة ، إذ أن جهاز القيادة، انما هو رمز السلطة ، التي تدفع بالجنود إلى القتال [1] .

وقد استعان ابن زياد على تحقيق مهمته بتعيين القيادات من الفئات المناوئة للدعوة ، إذ وجـد فيهم نشاطاً ضد تلك الحركة ، ولم تشهد الكوفة على كثرة ما حل بها من أحداث كما شهدته في تلك الفترة القاسية إلى جـانب ما ظهر على مسرح الأحـداث من عصبيات قبلية ، وأحقـاد سالفة .

التعبئـة :

أصدر ابن زياد أمره بالنفير العام والتجنيد الشامل ، للتعبئة الكاملة، فانتشر الجند في البلد يجوسون خلال الديار يلقون القبض على من تأخر عن الالتحاق بساحات العرض كما وعـد بتطبيق أشد العقوبة بمن يتأخر وقال :

لأن بلغني عن رجل منكم خلاف لأقتلنه
وعريفه ووليه ، ولآخذن الأدنى بالأقصى ،

---

(١) علم النفس العسكري ١/٣٦ للدكتور عباس الحسني .

حتى تسمعوا لي ولا يكون فيكم مخالف ،
ولا شاق وانا ابن زياد أشبهته من بين من
وطىء الحصى [1] .

أنيطت هذه المرحلة الراهنة من مراحل تاريـــخ الدولة الأُموية ، بعبيد الله بن زياد ، وأصبح هو المسؤول عن تقرير مصيرها وكتب اليه يزيد بن معاوية :

بلغني أن حسيناً قـــد فصل من مـــكة
متوجهاً إلى العراق فاترك العيون عليه وضع
الأرصاد على الطرق ، واحبس على الظنة ،
واقتل على التهمة [2] .

وكتب اليه عمرو بن سعيد الأشدق كتاباً يقول فيه :

أما بعد يا ابن زياد فقد توجه الحسين اليك
وفي مثلها تعتق او تكون عبداً تسترق كما
تسترق العبيد [3] .

ثم كتب يزيد بن معاوية اليه كتاباً آخر يحثه
على أخذ الحيطة وأخذ التدابير ويحمله أمام
أمر واقع إذ يقول في كتابه :
أنه قد بلغني أن حسيناً قد سار إلى الكوفة
وقد ابتلي به زمانك من بين الأزمان، وبلدك

---

(١) الحسين بن علي ص ٦١ لعمر ابو نصر .
(٢) الكامل ج ٤ ص١٩ والطبري ج ٦ ص ٢١٥ .
(٣) تهذيب ابن عساكر ج ٤ ص ٣٣٢ .

من بين البلدان ، وابتليت به من بين العمال
وعندها تعتق أو تعود عبداً كما تعود العبيد.

فقام ابن زياد بكل ما في وسعه من اتخاذ التدابير ، وجعل كتاب يزيد كدستور يسير عليه في هذه المرحلة ، لأنه يفوّض اليه كل شيء ، ويقرر النقاط التالية .

١ ـ اتخاذ الجواسيس بكثرة .

٢ ـ وضع المعسكرات المؤدية الى الكوفة .

٢ ـ شدة الحراسة والحذر والأخذ على الظنة والتهمة .

٤ ـ القتل بدون مهلة .

٥ ـ مواصلة الأخبار ، والإتصال بيزيد بكل ما يحدث . وهذا الكتاب مرسوم يجب تنفيذه . فقام بكل قوة ونشاط ووضع الخطط التي تضمن له النجاح ، فأغلق الطرق المؤدية للكوفة ووضع عليها حصاراً فلا داخل ولا خارج ، وعهد بحراسة الحدود الى الحصين بن تميم رئيس الشرطة ، فنزل القادسية وأعطى الحر بن يزيد الرياحي قيادة قوة سيارة قوامها ألف فارس وهم يتجولون في البادية ، يراقبون الحدود ، وهو مكلف بالقاء القبض على الحسين أينما التقى به . وأصدر ابن زياد أمره للناس فعسكروا في النخيلة ، ولا يتخلف أحد منهم .

وصعد المنبر فتعرض لمعاوية وذكر احسانه
وادراره الأعطيات وعنايته بالثغور ، وذكر
اجتماع الالفة على يده ، وقال : ان يزيد ابنه

السالك لمناهجه ، وقد زادكم مائة مائة في اعطياتكم ، فلا يبقى رجـــل من العرفاء والتجار ، والسكان إلا خرج فعسكر معي ، وايما رجل وجدناه بعد يومنا هذا متخلفاً عن العسكر برأت منه الذمة .

ثم خرج فعسكر بالنخيلة وبعث الى الحصين بن تميم وكان بالقادسية في أربعة آلاف فقدم النخيلة في جميع من معه ، ثم دعى كثير بن شهاب الحارثي، ومحمد بن الأشعث بن قيس، والقعقاع، وسويد بن عبد الرحمن، وأسماء بن خارجة الفزاري ، وقال طوفوا في الناس . فمروهم بالطاعـة ، والاستقامة ، وخوفوهم عواقب الأمور ، والفتنة والمعصية ، وحثوهم على العسكرة .

فخرجوا وداروا في الكوفـة ثم لحقوا بـه غير كثير بن شهاب،فانه كان مبالغاً يدور في الكوفـة يأمر الناس في الجماعة ، ويحذرهم الفتنـة والفرقـة ويخذل عن الحسين .

قطعات الجيش :

اختلفت أقوال المؤرخين في احصـــاء الجيش الذي خرج لحرب الحسين (ع) وقد تناقضت أقوالهم ، وجمد اكثرهم على احصاء أربعة آلاف جندي فقط وهم الذين خرجوا مع عمر بن سعد ، وكانوا قد عسكروا للسفر الى حملة لبلاد فارس تحت امرة عمر بن سعد ، وقبل أن يتحركوا

ورد نبأ توجه الحسين ونزوله في كربلاء، وكان هؤلاء من بقية الفرس أيام الفتح وهم المعروفون بحمر الديلم .

ومن الغريب اهمال بقية ذلك الجيش الذي تدفق الى أرض كربلاء وماجت بـه صحراؤها ، وملأ شعابها وسهولها وجاء في وصفهم : كان راياتهم اجنحة الطير ، وركبوا الحمير والبقر لقلة ما يستعملون من وسائط .

والواقع ان عدد الجيش الذي باشر الحرب ثلاثون الفاً وقيل أكثر وبدون شك ان التعبئة العامة فوق هذه الأرقام ، إذ امتلأت ساحات النخيلة عند العرض الى كربلاء ، وهي تمر أمام ابن زياد ، يوم خرج هو وجميـع أصحابه الى النخيلة .

جاء في الوثائق الرسمية لثورة الحسين إحصاء الجيش حسب ما ورد في المصادر التاريخية القديمة كما يلي:

القائد	العدد
الحر بن يزيد الرياحي	١٠٠٠
عمر بن سعد	٤٠٠٠
شمر بن ذي الجوشن	٤٠٠٠
يزيد بن ركاب الكلبي	٢٠٠٠
الحصين بن تميم	٤٠٠٠
مغاير بن رهينة المازني	٣٠٠٠

نصر بن حرشة	٢٠٠٠
كعب بن طلحة	٣٠٠٠
شبث بن ربعي	١٠٠٠
حجار بن أبجر	١٠٠٠
المجموع : خمس وعشرون ألف مقاتل	٢٥٠٠٠

ولم يدخل في الإحصاء هنا عدد الرماة الذين كانوا مع الحصين ، وعددهم خمسمائة ، وكذلك لم يدخل عمر بن الحجاج الزبيدي ، وهو قائد حملة قوامها أربعة آلاف ، ولم يدخل عزرة بن قيس الذي كان يترأس خمسمائة فارساً لحراسة الطريق ، ثم التحق بعمر بن سعد ، فيكون هنا عدد المقاتلين فحسب ثلاثون ألفاً ، ما عدا كتائب الرماة بالحجارة وهم الجوالة ، وسلاحهم المقاليع .

وهنا لا بد من نظرة فاحصة ، ووقفة بعيدة عن كل تمحل في محاولة هي خلاف الواقع فلا نتجاوزه أو نتعدى حدود المعقول ، ولا نفرض آراءنا بل الحقيقة هي التي تفرض نفسها .

* * *

ان ذلك الجيش الجرار قد ملأ البادية ،وقدحدّث التاريخ ان وسائل النقل على كثرتها في الكوفة قد وقفت أرقامها عن سد الحاجة لحمل الجيش وأثقاله حتى ركبوا البقر والحمير ، ونفر الباقون مشاةً ، وكان الاستعداد لسد حاجات هذا الجيش من سلاح ودروع مسبقاً قبل حركته الى

كربلاء ، فقد بقي الحدادون في الكوفة يعملون ليل نهار ، في صقل السيوف ، وبري النبال ، وقدرت مدة العمل عشرة أيام متواصلة ، لم تخمد نار الحدادين فيها لحظة واحدة .

هذا من جهة ، ومن جهة ثانية ، أن الكوفة منطقة عسكرية وهي أكبر قاعدة للمملكة الاسلامية ، وكانت تمد الجيوش المحاربة ، ولا يقل عدد الجيش المعد للحرب عن ستين ألفاً في جميع الأوقات .

وكان تقسيمها العسكري حسب وضعها السياسي والاجتماعي مقسمة الى سبعة كادرات وذلك لحشر مقاتلة القبائل وفقاً للقيادات والتعبئة عند النفير والخروج للجهاد في المواسم ، والاعطيات بعدالعودة من قبل رؤساء الاسباع. وفي ايام زياد بن أبيه في سنة ٥٠من الهجرة جعل الأقسام العسكرية في الكوفة على غرار ما كان في البصرة حيث أصبحت الاسباع أربعة وعلى هذا استقر التنظيم العسكري وقد اشتركت جميع الأرباع في هذه المعركة . كما تقدم[١] .

فكان على ربع أهل المدينة عبدالله بن زهير الازدي ، وعلى ربع مذحج وأسد عبد الله بن ابي سبرة الحنفي ، وعلى ربع ربيعة وكندة قيس بن الأشعث، وعلى ربع تميم وهمدان الحر بن يزيد الرياحي ، فشهد هؤلاء كلهم حرب الحسين ما عدى الحُر فقد تحوّل الى الحسين كما سيأتي .

---

(١) انظر ص ١٧٢ من هذا الكتاب .

وعلى هذا نتساءل أكانت كل هذه القبائل والمقاتلين من الارباع متمثلة في جيش الديلم المكوّن من أربعة آلاف فارس وهم حلفاء عبد القيس من بطون ربيعة ، وقد عرفوا بحمر الديلم ، باسم رجل يسمى ديلم وكان يترأسهم وهم الذين التجأوا الى سعد بن ابي وقاص بعد معركة القادسية ، من بقية جيش الفرس فكانوا في معركة الطف تحت إمرة عمر بن سعد ، وقيل انهم كانوا خمسة آلاف. فالكوفة تلك القاعدة العسكرية التي عرفت بكوفة الجند يشملها الارهاب في التعبئة والتجنيد الاجباري ، والنفير العام ، واصدار الأوامر بحمل السلاح على كل محتلم ومن له قابلية حمله [١] .

لقد اصبحت الكوفة في نطاق ضيق وهي مقفلة في وجوه القادمين اليها فلا يقدر أحد ان يلج اليها أو يخرج منها [٢] وأُغلقت جميع الطرق المؤدية اليها إلاّ من طريق واحد، وقد أقام عليه خمسمائة فارس تحت إمرة عزرة بن قيس .

وقال الطرماح عندما التقى بالحسين (ع) في الطريق : رأيت قبل خروجي من الكوفة اليك بيوم على ظهر الكوفة ، وفيه من الناس ما لم تر عيناي في صعيد جمعاً أكثر منه فسألت عنهم : فقيل : اجتمعوا ليعرضوا ثم يسرحوا الى حرب الحسين [٣] .

---

(١) المصدر السابق .

(٢) نفس المصدر .

(٣) الطبري ج ٦ ص ٢٣٠ والبلاذري خطي .

فهذه الصورة التي يعطيها الطرماح وهو العربي المشهور ، ومن له خبرة بالحروب فهو يصف كثرة ذلك العدد الذي يعرض للتجنيد .

فاذا اردنا احصاءً للجنود المشتركة في ساحات الحرب ، والمباشرة لقتال الحسين فأقل احصاء لهم على وجه التحقيق أنهم عشرون ألفاً ، وقد نص ابن حجر على ذلك [1] .

وقال بعض المؤرخين ان جملة من أرسله ابن زياد لحرب الحسين كانوا أربعين ألفاً .

ونحن اذا أردنا أن ناخذ بما هو مجمع عليه وما لا يقبل الرد فهو : أن عمر بن سعد خرج في أربعة آلاف .

وكان الحصين بن نمير التميمي يترأس جيشاً مرابطاً على الحدود خوفاً من دخول الحسين الى الكوفة ، وفي ذلك الجيش خمسمائة من الرماة فقط ماعدا الفرسان والمشاة وكان احصاؤهم أكثر من ثلاثة آلاف .

والتحق هذا الجيش بعمر بن سعد عندما خرج الى كربلاء ، وانضم اليه جيش الحر وعددهم ألف فارس ، ثم التحق عزرة بن قيس وهو على رأس خمسمائة مقاتل كانوا يحرسون الطريق المؤدي الى الكوفة .

فهذه الأعداد التي كانت تحت السلاح وهي على أتم استعداد لملاقاة الحرب توجهت كلها الى كربلاء ، فيكون عددها عشرة آلاف بين فارس وراجل .

---

(١) شرح همزية البوصيري لابن حجر .

وعلى هذا كيف استساغ بعض المؤرخين وتبعهم أكثر الكتّاب بسهولة الى القول بان الجيش الذي حارب الحسين هم أربعة آلاف فارس فقط ، فأين ذهبت الستة آلاف فارس ؟ على هذا التقدير .

* * *

ونتساءل أيضاً : اين ذهب شبث بن ربعي القائد القديم ، والذي تقلب في عدة حروب ، وقد دعاه ابن زياد للخروج ومعه ألف فارس ، فتمارض ، ولكن ابن زياد ألزمه بالخروج ، فخرج هو وجيشه ؟

وكذلك نتساءل عن ابن ذي الجوشن ودوره في معركة كربلاء ، أكان جندياً أم قائداً لألف فارس كما ثبت في الإحصاء الصحيح ؟

ثم أين حجار بن ابجر ، وأسماء بن خارجة ، وعمر بن الحجاج ، وغيرهم ، أكانوا جنوداً أم قادة ؟

ولا يقول أحد بعدم قيادتهم لكتائب من الجند ، لا يقل عدد كل كتيبة عن ألف فارس .

ونعود فنقول إذا كانت القضية لا تحتاج الى أكثر من سوق جند الديلم ، فما معنى حضور اولئك الرجال من زعماء القبائل ، ورؤساء الأرباع ؟ وما معنى هذا العرض العام بقوة ؟ وما معنى خروج ابن زياد للنخيلة وإقامة عمر بن حريث مكانه ؟ وما هذا التضييق على الأهلين بتطواف الجنود في الشوارع وجلب كل من تاخر عن السوق الى

المعركة ؟ حتى وجدوا شامياً جاء لميراث له بالكوفة فلم ينفع اعتذاره وقتل تاديباً للغير "[١] .

* * *

وهلم لنرى تكافؤ القوى في القتلى ، إذ يقـــول أكثرهم انه قتل من جيش ابن سعد ٨٤ ويقابله من أصحاب الحسين ٨٤ فلم يزد بعضهم على الآخر ، وما أدري من أين جاء هذا التقابل ، والمساواة ، وكيف يصح ؟ ولكن الجهالة أو التحيز الذي يخفي ١٦ ألفاً من المقاتلين الذين يشغلون حيزاً في الفضاء كيف لا يـدفن آلافاً من القتـلى الذين سقطوا في المعركة بسيوف اولئك الأبطال إذ تفوقوا بمواقفهم العسكرية وظهروا بمعنويتهم التي جعلتهم يكسبون التفوق في المعركة رغم قلتهم وكثرة من أحاط بهم اذ الروح المعنوية لها أثرها .

الروح المعنوية :

للروح المعنوية أثر كبير في تفوق الجيش وبسالته ، عندما يتمتع بها الجندي المحارب فهي التي يتفوق بها العدد القليل من المحاربين على الكثرة ممن يفقد الروح المعنوية في الحرب .

ومن أجل ذلك تتخذ جميع الوسائل لتقوية الروح المعنوية كالدعاية فيورود امدادات عسكرية تساند الجيش،واشاعة تنازل الخصم أو التحاق

---

(١) الدينوري الأخبار الطوال .

بعض قطعاته فيهم و.و. وغير ذاك مما يعبر عنه بالحرب النفسية لاضعاف معنوية الجندي وقد اثبت التاريخ ما لهذا السلاح من اثر في كسب المعركة .

ولا نذهب بعيداً عن تاريخنا الاسلامي ، فكم اكتسبت حروبه النصر لتفوق الجندي المسلم بالروح المعنوية .

ومتى ما كان الجيش يندفع بالقوة قهراً الا لهدف يحققه فهو يتوارى عن الاشتراك في الحرب إذ لا يملك معنوية يتفوق بها ونستطيع ان نقول ان الجيش الاموي كان يفقد معنويته . وجيش الحسين متفوق عليه لان الجيش الأُموي مدفوع بالقهر .

قال الدينوري ، كان ابن زياد اذا وجه الرجل الى قتال الحسين في الجمع الكثير يصلون الى كربلاء ، ولم يبق منهم إلاّ القليل ، وكانوا يكرهون قتال الحسين ويرتدون ويتخلفون . وذكرنا ان ابن زياد اتخذ ثلة من الجند يمنعون كل من عاد من الجيش الموجه ، ويرغمون الناس على الخروج الى هناك ولم يبق فيها محتلم [1] .

فهذا العدد الذي يعود من الناس إنما هو مدفوع بدافع نفسي، ولو كان بعضاً من اقدام يستمد من الروح المعنوية لما خضعوا لذلك .

* * *

وللمثال نذكر موقف عامر بن ابي سلامة عندما أراد الخروج الى الحسين لنصرته اعترضه عزرة بن قيس ، وكان موكلا برد كل من يحاول الخروج

(١) أنساب الأشراف للبلاذري .

الى جهة الحسين ، فلما نظر الى عامر بن سلامة منعه من ذلك ، وقال له: عرفت حيث تريد ، فارجع . فحمل عامر عليه وعلى أصحابه ، وقاتلهم فهزمهم ومضى ولم يجسر أحد من الدنو اليه .

لان المقابلة هنا بين بطل يحارب دفاعاً عن عقيدته باقدام لا يعرف التردد ، وبشجاعة لا يراودها خوف .

وبين أُناس تنكروا للحق ، وتظاهروا بالتحلل عن عقيدتهم ، فهم مرغمون على القتال خوفاً على أنفسهم ، فلا يعرضونها للقتل في الحرب ، فكما حرصوا عليها من الوقوف بوجه المستبد ، فهم بأشد ما يكون من الحرص هنا ، فغريزة الجبن التي دفعتهم لهذه الجريمة النكراء هي التي جعلتهم يتوارون في المعمعة ويفرون فرار الأغنام .

كما ان الجيش الاموي اكثرهم متفرقون في العقيدة ، ولا تجمعهم قومية واحدة وهم متفرقون في الآراء والأفكار : فمانوية ومزدكية ، ومجوسية ، ويهودية ونصرانية بالاضافة الى تعدد القوميات ، فاكراد ، وأرمن وآشوريون وأتراك ، وغيرهم .

وكانت الصلة بين هذه الفئات هي المصلحة : إما مادية ، أو لهدف في نفوس بعض الفئآت وهؤلاء كانوا يمثلون نوعاً من الثبات في المعركة والاقدام في المبارزة .

حِصَار

وهو الحرب الاقتصادية في وقتنا الحاضر ، الذي له اكبر الاثر في تقرير مصير الحروب ، وهو سلاح كانت تستعمله العرب منقبل وجميع الدول اليوم ، لأنه يقرب الغاية المنشودة ، ونتائجه خـــير من نتائج الهجوم وخسائره،فاذا ضرب الحصار على جيش فانقطعت عنه الامدادات العسكرية ومواده الغذائية ، فان الاضرار الاقتصادية ليست دون الاضرار العسكرية بالعدو ، اضعافاً لروحه المعنوية ، فمنع الماء ومنـع الطعام انما هو سلاح من اسلحة الحرب ، وهناك لا بد أن تحصل الهزيمة من الجيش الذي يعوزه الماء والطعام ، وذلك الحصار يضرب على المحاربين فحسب اما على الذين لم يباشروا حرباً ، من أطفال ونساء فضرب الحصار عليهم يعدُّ من العار يقول الشاعر العربي :

كتب القتل والقتال علينا وعلى المحصنات جر الذيول

وقد استعمل ابن زياد تلك الحرب الاقتصادية ، بأبشع صورها ، وأقصى ما يتصور من معاملة وحشية ، وخطة همجية ، فطوق جيش الحسين لمنع الامدادات الخارجية ، وقطع الاتصال معه ومع العـــالم الخارجي ، كما أصدر أمره لقائد الحملة بمنع الماء عن معسكر الحسين بصورة شديدة كما جاءفي كتابه لعمر بن سعد :

أن امنع الحسين من شرب الماء فلا يذوقوا
منه حسوة كما فعلوا بالتقي عثمان .

ومن هنا يتضح لنا ما وصل اليه حقده وتحكم أواصر المجوسية فتجسدت في سلوكه وطيشه حتى انه منع عن حفر الآبار في الصحراء ، فقد جاء في كتابه لعمر بن سعد أيضاً :

اما بعد فقد بلغني ان الحسين يشرب الماء هو
وأولاده وقد حفروا الآبار ونصبوا الاعلام
فانظر إذا ورد عليك كتابي هذا فامنعهم
من حفر الآبار ما استطعت ، وضيق عليهم،
ولا تدعهم يشربون من مـــاء الفرات قطرة
واحدة ، وافعل بهم كما فعلوا بالتقي النقي
عثمان [1]

وبهذه الأوامر الصارمة وخضوعاً لعنف ابن زياد ونزولاً عنـــد ارادته فقد امتثل ابن سعد فشدد الحصار .

وقد لعب منع الماء دوراً في تلك المعركة وبدأ الأعياء في جيش الحسين كما اشتد أثره في خيل أصحابه عند قيام المعركة ، فكان أكثرهم يقاتل راجلاً .

* * *

لقد امتثل ابن سعد لأمر سيده ، وشدد الحصار على الفرات ، وأقام

---

(١) الفتوح، ٥/١٦٢ .

حراساً أقوياء ، واشتد العطش بآل رسول الله مما دعى أصحاب الحسين الى الحملة على الفرات قبل وقوع القتال ، فتمكنوا من الوصول وملأوا قربهم [1] .

قال البلاذري : فلما اشتد على الحسين العطش بعث العباس بن علي في ثلاثين فارساً ، وعشرين راجلاً ، وبعث معهم بعشرين قربة فلما دنوا من الماء ، تقدم أمامهم هلال بن نافع البجلي ، فقال له عمر بن الحجاج ، وكان على موضع الماء :

من الرجل ؟
قال : نافع بن هلال .
قال : ما جاء بك .
قال : جئنا لنشرب من هذا الماء ، الذي حلاتمونا منه .
قال : اشرب هنيئاً .
قال : أفأشرب والحسين عطشان ؟!! ومن ترى من اصحابه .
قال : لا سبيل إلى سقي هؤلاء : انما وضعنا بهذا المكان لمنعهم من هذا الماء .
فأمر هلال اصحابه باقتحام الماء ليملئوا قربهم ، فثار عليهم عمر بن الحجاج واصحابه فحمل عليهم العباس، ونافع بن هلال فدفعوهم ثم انصرفوا إلى رحالهم وقد ملأوا قربهم .

---

(١) انساب الاشراف مخطوط . وسمط النجوم العوالي ٣/٢٧

واشتد الحصار وتضاعفت الحراسة ، خشية ان يتسرب المـــاء الى الحسين وأطفاله الذين لم يعد يطاق مشهدهم من وطأة الظمأ القاتل ولم يكن قصد ابن زياد هو التشفي لعثمان فحسب ، وإنما يقصد ان يسارع في النتائج وعسى ان يستسلم الحسين ، وقد رفع هذا الشعار في معسكر ابن سعد ، فان المنادي ينادي : يا حسين انك لن تذوق من هذا الماء قطرة واحدة ، حتى تذوق الموت غصة بعد غصة أو تنزل على حكم الأمير يزيد ، وحكم عبيد الله بن زياد [١] .

ومناد آخر ينادي : يا حسين ألا تنظر الى الماء كأنه كبد السماء والله لا تذوق منه قطرة حتى تموت عطشا [٢] .

المفاوضات :

كانت الآمال تراود خصوم الحسين في مسالمته عندما يشددون الحصار عليه وعزله عن الإتصال بالناس وقطع جميع المؤن عنه .

وكانت الأيام الأربعة الأولى من نزول الحسين (ع) أيام مشاورات ومبادلة آراء بين قواد المعركة بغية الوصول الى الهدف المطلوب وكان في تلك الأيام حصل اجتماع بين الحسين وبين عمر بن سعد فقـــد أرسل الحسين إليه يطلب حضوره لالقاء الحجة عليه

---

(١) الفتوح ١٦٣/٥

(٢) الطبري .

وظن ابن سعد ان الحسين سيرسم خطة تكون فيهـا مصلحة الطرفين من دون قتال .

وجاء ابن سعد ومعه نحو من عشرين فارساً من أصحابه ، واجتمع مع الحسين ما بين المعسكرين .

فقال: الحسين مؤنباً له : يا ابن سعد أتقاتلني ؟ أما تتقي الله الذي اليه معادك ؟ فأنا ابن من علمت ، ألا تكون معي وتدع هؤلاء ، فانه أقرب الى الله تعالى .
قال عمر : أخاف أن تهدم داري .
فقال الحسين : أنا أبنيها لك .
قال : أخاف أن تؤخذ ضيعتي .
فقال الحسين : أنا اخلف عليك خيراً من مالي في الحجاز .
قال : إن لي عيالاً في الكوفة وأخاف عليهم من ابن زياد القتل ثم انصرف .

* * *

وتكرر الاجتماع وكان الغموض يكتنف الموقف ، وظنوا بأن الحسين سيتراجع عن عزمه ويرجع من حيث أتى .

وأصبح ابن سعد في دائرة ضيقة ، فكان كل جهده اقناع ابن زياد بوسيلة يتوصل بها الى حل القضية سلمياً ، وأراد أن يؤكد للملأ حب الحسين للسلامة ظناً منهم أن الحسين يتركهم لو تركوه، وهذا الظن خطأ

فان الحسين ثائر ولو تركوه فلن يتراجع عن ثورته ، ومطالبته بالحق وإعلان المعارضة للسلطة الجائرة ، إذ لم تكن ثورته حفاظاً على نفسه ، وهرباً من يزيد ، إنما هو ثائر وطالب حق ، فهو مع الحق كما أن آماله لن تنقطع من تيقظ المسلمين وكان ظنه فيهم حسناً .

وعـاد ابن سعد لمراجعة الحسين فأرسل رجلاً يعتمد عليـــه في مهمة الاستطلاع على رأي الحسين وموقفه ، فجاء الرسول وسأل الحسين عن لسان ابن سعد فأجابه :
قد كتب إليّ أهل مصركم يدعونني اليهم ، اما إذا كرهتم ذلك فانا انصرف عنكم [1] .

وكان استنتاج ابن سعد من هذا الجواب بأن الحسين مستعد للرجوع أو أن يذهب الى ثغر من ثغور الأرض، حسب ما تقرره السلطة إن رأت ذلك . وهنا يعلل بعض المؤرخين بأن استجابته للرجوع والترك انه مسالمة ليزيد أو انه يذهب ويضع يده في يده .

وكما افتعلت يد الوضاعين من الذين يعيشون على الأكاذيب والخرافات قضية مكذوبة وافتعلوا أمراً لم يقع تقرباً للسلطة ، فهـــذا ابو معشر نجيح قد أورد : بأن الحسين طلب من ابن سعد أن يذهب الى يزيد فيرى

---

(١) البداية والنهاية ج ٨ ص ١٧٥ .

رأيه فيه [1] . وهو كذب صريح لا يمت الى واقع أبداً .

وكتب ابن سعد الى ابن زياد كتاباً يخبره بنتائج المفاوضات وأن الحسين سيترك ما صمم عليه .

فحصل عند ابن زياد اقتناع ، وأراد أن يحوّل مجرى القضية ، وقال عندما قرأ الكتاب : هذا كتاب ناصح لأميره ، مشفق على قومه . وأجاب بالقبول [2] .

ولما علم شمر بذلك قام إليه فقال : أتقبل هذا منه وقد نزل بارضك وإلى جنبك ؟ لئن رحل من بلادك ولم يضع يده في يدك ، ليكونن أولى بالقوة ، وتكونن أولى بالضعف والعجز ، ولكن لينزل هو وأصحابه على حكمك ، والله لقد بلغني ان الحسين وعمر بن سعد يتحدثان عامة الليل بين المعسكرين .

فقال ابن زياد : نعم ما رأيت ، فاخرج الى عمر فليعرض على

---

(١) روى ابو معشر عن بعض مشايخه : ان الحسين (ع) قال لعمر بن سعد : اختر مني احدى ثلاث خصال : إما تتركني أرجع كما جئت .
فان أبيت فسيرني الى يزيد ، فأضع يدي في يده ، يحكم فيّ ما يرى .
وإن أبيت هذا فسيرني إلى الترك ، فاقاتلهم حتى اموت .
هذه الاسطورة يوردها ابو معشر في مغازيه ، وأبو معشر رجل امي لا يفهم ما يرويه ، وكان يحيى بن سعيد يضحك عندما يذكره ، وهو مشهور بالافتعال والوضع .

(٢) الكامل ج ٥ ص ٢٨ .

الحسين وأصحابه النزول على حكمي ، فإن فعلوا فليبعث إليّ بهم سلماً ، وإن أبوا فليقاتلهم . ثم زوده بكتاب.

وقال لشمر : فإن فعل فاسمع له وأطع ، وإن أبى فأنت الأمير عليه وعلى الناس ، واضرب عنقه ، وابعث إليّ برأسه [1] . وأقبل الشمر وهو يتمنى لو يسبق الريح لتنفيذ مهمته وحصول غايته .

الزحف المباشر

قدم شمر بن ذي الجوشن من الكوفة وهو يحمل أمر الهجوم على الحسين ، والمفاجئة في القتال ، ويحمل بذلك كتاباً من ابن زياد يقول فيه :

أما بعد فاني لم ابعثك إلى الحسين لتطاوله وتمنيه السلامة ، وتكون له عندي شافعاً ، فانظر فإن نزل الحسين وأصحابه على الحكم فابعث إليّ بهم سلماً ، وإن أبوا فازحف إليهم حتى تقتلهم وتمثل بهم ، فانهم لذلك مستحقون وان قتلت حسيناً فأوطىء الخيل صدره وظهره ، لنذر نذرته ، وقول قلته ، فانه قاطع ظلوم فان فعلت ذلك جزيناك جزاء السامع المطيع ، وإن انت أبيت فاعتزل عملنا وجندنا ، وخلّ بين شمر بن ذي الجوشن وبين المعسكر وأمر الناس فانا قد أمرناه فيك بامرنا والسلام .

---

(١) الكامل ج ٥ ص ٢٨ .

فلما أوصل شمر الكتاب اليه قال عمر : يا أبرص ويلك ! لا قرّب الله دارك ! وقبحك وقبح ما قدمت له ، والله اني لأظنك ثنيته عن قبول ما كتبت به ، فقال له شمر : امضِ لأمر الأمـــير ، وإلا فخلّ بيني وبين العسكر [1] .

وحدث سعد بن عبيدة قال : إنا لمستنقعون في الماء مع عمر بن سعد إذ أتاه رجل فسارّه وقال : بعث اليك ابن حويزة بن بدر التميمي وأمره إن أنت لم تقاتل أن يضرب عنقك [2] .

وهذا الأمر تاكيد للأمر السابق ، مما يدل على شدة الاهتمام للاسراع بالمفاجئة . وقد فزع ابن سعد واستجاب لأمر ابن زياد ،وأعلن بالزحف على معسكر الحسين ، وذلك بعد صلاة العصر ، وأمر الرماة بالتقدم ، وكان جيش الرماة على أكمل استعداد . فتقدم امامهم ابن سعد ليعلن عن ولائه في إطلاق الشرارة الأولى لإيقـــاد نار الحرب ، برمي أول سهم يوجهه الى معسكر الحسين .

وهكذا صرّح الشر ، وبدأت الحرب المجرمة بهذا السهم الجائر وهو أول مرحلة من مراحل المعركة . وأطلق الرمـــاة ،فاقبلت السهام نحو معسكر الحسين كشآبيب المطر ، أو كقطع الليل المظلم ، وهي تنذر بوقوع الحرب ، بل هي رسل أهل الكوفة ، في دنو المعركة ، وانتهـاء

(١) انساب الاشراف .

(٢) نفس المصدر ص ١٠٤ .

كل محاولة اتخذها الحسين معهم لإبعاد غائلة الحرب . فلا أمـــل بعد هنا برجوع القوم عن غيهم ، وليس من المستطـــاع لأكثر من هذا ، فليس بعد من شيء إلا الاستعداد للمواجهة المسلحة .

فاستقبل الحسين وأصحابه هذه الرسل برحابة صدر ، وطـــلاقة وجه . إنها علائم النصر الى الأبد . إنها تبشر بقيام سوق المتاجرة بينهم وبين الله ليقدموا أرواحهم ثمناً لنصرة الحق والإسلام ، ودنت الساعة المحتمة ، ولاح في الأُفق شبح الخيانة والغدر بأوضح صورة .

* * *

كان هذا الزحف عصر يوم التاسع من المحرم ، ولما اقتربوا من مخيم الحسين تقدم اليهم العباس بن علي في عشرين فارساً ، وسالهم : ما الذي تريدون ؟ فقالوا : جاء أمر الأمير أن نعرض عليكم النزول أو ننازلكم الحرب . وجرت بينهم وبين العباس محاورة ومشادة .

فاستمهلهم الحسين عشيَّة تلك الليلة ، وقال : لعلنا نصلي الى ربنا الليلة وندعوه ونستغفره ويعلم الله اني احب الصلاة وتلاوة كتابه،وكثرة الدعاء والاستغفار فاستجاب ابن سعد بعـــد عرض الأمر على الشمر ، فقال له ابن ذي الجوشن: أنت الأمير والأمر اليك .

وكان غرض ابن سعد هذا هو إظهـــار الولاء واخلاصه في القضية إذ أصبح الشمر عيناً عليه ومنافساً له .

ثم وجه الاستشارة الى الزعماء من حوله فقال عمرو بن الحجاج الزبيدي :

سبحان الله لو كان من الديلم لكان ينبغي ان تجيبه .

واعترض قيس بن الأشعث وقال: لا تجبهم لما سالوك فلعمري ليصبحنك بالقتال غدوة . فقال عمر: والله لو أعلم أنهم يفعلون ما أخرتهم العشية .

ان المخاوف تراودهم ، من عاقبة تأخير القتال ان يحدث انشقاق في المعسكر الأموي ، عندما لمسوا التحسس بالخطأ من بعض الأفراد ، ومقتفي سير الحوادث، وظهور القضية بالشكل الذي سار ، عليه خط التجمع ، يقرب هذا ، ويوقع الاحتمال .

وكما قدمنا أن التعبئة كانت بشكل غير اختياري ، فلا بد أن يضم ذلك الجيش من يصطدم بالواقع فيحاول الانضمام اليه .

والحسين (ع) شخصية منفردة بجميع صفات الكمال . والقيادة الصحيحة متجسدة فيه ، والمجتمع يحمل له من الولاء أكثر من غيره، والحق لا بد أن ينتصر وان قل أعوانه فهو لم يقطع حسن ظنه بالأمة ، ولم يهمل معالجة الوضع لتوعية الناس ، فواصل بذل نصائحه ، وألقى الحجة بعد الحجة الى آخر ساعة من حياته ، وقد تيقظت ضمائر جماعة من أتباع ابن زياد فالتحقوا بمعسكر الحسين في جوف الليل .

وكان بعض من ساعد على تأخير الحرب يمنّون أنفسهم بان الحسين

سيجيبهم الى ما يطلبون،وقد صرح بعضهم عندما وافق ابن سعد بتأخير القتال الى غد ، صاح رجل من أصحابه : يا أصحاب الحسين بن علي قد أجلناكم يومكم هذا الى غدٍ ، فان استسلمتم ونزلتم على حـــكم الأمير ، وجهنا بكم اليه ، وإن أبيتم ناجزناكم "[1].

وهكذا أُرجيء القتال وبات معسكر الكوفة ينتظر الصباح عساه يحمل بشائر الاستجابة أو الانشقاق في معسكر الحسين .

(١) الفتوح ٥/١٧٩ .

ليلة العاشر :

بات المعسكران على أهبة الاستعداد للحرب ، وكان بينهما بون شاسع من حيث الكم والكيف وتحصين المواقع والعدة ، فالجيش الأُموي كثير العدد ، قوي العدة ، فقد كان آخر احصاء للقوة المرابطة في كربلاء أنها ثلاثين الفاً ، ما عدا قوات الاحتياط في النخيلة التي اتخذها ابن زياد مركزاً للقيادة ، كما أن جمع الحشود في الكوفة ، وسوادها على أتم استعداد للحركة .

وكان معسكر الحسين لا يتجاوز الخمسمائة ما بين فارس وراجل ، وقيل أقل من ذلك وقد حوصر فمنعوا عنه جميع الامدادات حتى الماء وحيل بينهم وبين وروده ، وتحت ستار الظلام التحق بمعسكر الحسين جماعة من أصحاب ابن سعد ، تيقظت ضمائرهم، فقيل كانوا ثلاثين وقيل أكثر من ذلك .

ورغم كل الاجراءاتالتي اتخذها الأُمويون لايقاع الوهن في أصحاب الحسين ، فلم يتمكنوا،فقد كانوا يتمتعون بمعنوية تخولهم بأن يتفوقوا على تلك الكثرة الهائلة ، وكانت مواقفهم لهيباً من البطولة ، تموج فيهالنخوة والإقدام وشعاعاً من الإيمان ، تتجلى فيه عظمة العقيدة الصحيحة ، وقد

وصفهم الحسين (ع) بقوله : لقد خبرتهم وبلوتهم ، فـلم أجد فيهم إلا الأشوس الأقعس ، يستانسون بالموت دوني استيناس الطفل بمحالب أمه ، وذلك بعد أن جمعهم ليلة العاشر من المحرم، وألقى عليهم خطابه التاريخي الذي عبر فيه عن موقفه تجاه أعدائه ، وقد رفع المسؤولية عن أصحابه ، وأذن لهم بالإنصراف عنه :

قال عليه السلام : اثني على الله أحسن الثناء وأحمده على السراء والضراء ، اللهم اني أحمدك على أن أكرمتنا بالنبوة ، وعلمتنا القرآن وفقهتنا في الدين وجعلت لنا اسماعاً وأبصاراً وافئدة ولم تجعلنا من المشركين .

أما بعد، فاني لا أعلم اصحاباً أوفى ولا خيراً من أصحابي ، ولا أهل بيت أبر ولا أوصل من أهل بيتي ،فجزاكم الله عني جميعاً خيراً [1].
ألا وإني أظن يومنا من هؤلاء الأعداء غداً ، وإني قد اذنت لكم فانطلقوا جميعاً في حلٍّ ليس عليكم مني ذمام ، وهذا الليل قد غشيكم فاتخذوه جملاً وليأخذ كل رجـل منكم بيد رجل من أهل بيتي ، فجزاكم الله جميعاً خيراً وتفرقوا في سوادكم ومدائنكم ، فانّ القوم

(١) الطبري ٦/٢٣٨ .

إنما يطلبونني ولو أصابوني لذهلوا عن طلب غيري [1] .

* * *

وتلقت الصفوة المؤمنة هذه الكلمات من زعيمهم وقائدهم أبي عبدالله الحسين ، فها هو يرفع عنهم مسؤولية الجهاد ، ويفتح أمامهم أبواب الحياة ويجعل لهم الاختيار بين الموت والسلامة ، ويخبرهم بتقرير المصير .

وهنا تبدو على وجوههم علامات التأثر ، ويجري في عروقهم دم الحماس الديني ، وتلتهب مشاعرهم فيتسابقون للإعراب عما تنطوي عليه ضمائرهم ، وما صمموا عليه في هذه المرحلة الراهنة .

وبدأ العلويون الكلام بحماس يعبر عن الاستماتة والتضحية في سبيل الله ، وان ذلك أقصى ما يتمنونه وقالوا : ولِمَ نفعل ذلك ؟ ألنبقى بعدك ؟!! لا أرانا الله ذلك أبداً [2] .

وبعدها التفت إلى بني عقيل وقال : حسبكم من القتل بمسلم اذهبوا فقد أذنت لكم .

فقالوا بأجمعهم إذن ما يقول الناس وما نقول لهم ؟ انا تركنا شيخنا وبني عمومتنا خير الأعمام ، ولم نرم معهم بسهم ، ولم نطعن برمح ، ولم نضرب بسيف ولا ندري ما صنعوا ، لا والله لا نقبل ذلك ، ولكن

---

(١) ابصار العين ص ١٠

(٢) الطبري ٦/٢٢٨

نفديك بأنفسنا وأموالنا وأهلنا ، نقاتل معك حتى نرد موردك ،فقبح الله العيش بعدك[1].

ثم تكلم الأنصار وأعربوا عن إخلاصهم وأول من تكلم منهم مسلم بن عوسجة وقال :

وبماذا نعتذر إلى الله في أداء حقك ؟ أمـا والله لا افارقك حتى أطعن في صدورهم برمحي وأضرب بسيفي ما ثبت قائمه بيدي ، ولو لم يكن بيدي سلاح اقاتل به لقذفتهم بالحجارة حتى أموت معك .

وتبعه سعيد بن عبد الله الحنفي قائلاً :

والله لا أتخلى عنك حتى يعلم الله انا قد حفظنا وصية رسوله فيك أما والله لو علمت اني أُقتل ثم أحيا ثم أحرق حياً ثم أُذرَّى يُفعل بي سبعين مرة لما فارقتك حتى ألقى حمـامي دونك . وكيف لا أفعل ذلك وانما هي قتلة واحـدة ثم هي الكرامة التي لا انقضاء لها أبداً .

وقام زهير بن القين وقال :

والله وددت اني قتلت ثم نشرت حتى اقتل كذا الف مرة وان الله عز وجل يدفع ذلك

---

(١) الكامل ٤/٢٤ .

القتل عن نفسك وعن أنفس هؤلاء الفتية من أهل بيتك [١] .

وتكلم باقي اصحاب الحسين بما يشبه بعضهم بعضاً فجزاهم الحسين خيراً [٢] .

وقال لهم : اني غداً اقتل وكلكم تقتلون ولا يبقى منكم أحد .

قالوا باجمعهم : الحمد لله الذي اكرمنا بنصرك وشرفنا بالقتل معك أو لا نرضى ان نكون معك يا ابن رسول الله (ص) .

---

(١) ارشاد المفيد ومقتل الحسين للمقرم ٢٣٥

الاتجاه الى الله

وبعد أن انتهى هذا الاجتماع العظيم الذي تمثـــل فيه الاخلاص في التضحية في سبيل الله ، ذهب كل لعمله في بقية الليل ، فهذا يقوم با كال ورده ، فيعود لمصلاه ، مقبلاً على ربه ، يناجيه بقلب قـــد رفض حب الدنيا واشتاق إلى لقاء ربه وقد وصفهم الرواة في تلك الليلة : انهم باتوا ولهم دوي كدوي النحل ما بين قائم وقاعد ، وراكع وساجد . ومنهم من يجتمع بأصحابه لمبادلة الرأي في لقاء الأعداء، عندما تقع الحرب ، وكيف تكون خطة الهجوم وخطة الدفاع .

وذاك يتفقد البيوت ويمر بالثغرات ، لرد الهجمات الارهـــابية التي استعملتها فرق الجوالة في الليل .

وذاك يجتمع بأهل بيته يوصيهم بالصبر ، وتحمل المتاعب والقيـــام بالمسؤولية الملقاة على عواتقهم ، بعد أن تقتل الرجال في ساحات المعركة.

وبعد أن بقي من الليل شطره ، اتجهوا جميعاً الى الله ينـــاجونه ويتضرعون اليه ، ويطمعون في رحمته ، فهم وفوده في الغد وحماة دينه وصفوته من خلقه اليوم .

وباتت العوائل في تلك الليلة على وجل واضطراب ، فالحالة مؤلمة والوضع رهيب والجيش يحيط بهم من كل الجهات، وهم يرعدون ويبرقون ويرددون أهازيج الحرب المخوفة ، والتهديدات المزعجة ، ولقد كانت الحالة تبعث على الألم من حال تلك العوائل المخدرة والأطفال الكثيرة الذين تختلف أعمارهم ، فمنهم الرضيع في مهده والدارج في مقتبل عمره ، ومنهم أكبر من ذلك ، وقد باتوا جميعاً بلا زاد ولا ماء ، فقد ذبلت شفاههم من الظما ، وذوى عودهم ، وانحنت رقابهم وبُحّت أصواتهم ، أما الرضيع ففي اغماء من العطش فقد جف اللبن من المراضع وذبلت الشفاه من الحرارة ، وشدة الظمأ ، والدارج يستمسك في سيره عندما يرى تجمع اطفال هناك عسى أنهم سعدوا بالماء فيشاركهم ، وبعضهم ازال الرمال عن وجه الأرض ووضع صدره على التراب لبرودته ، وكانت العقيلة زينب ترعى بحسن رعايتها ذلك الجمع من النساء والأطفال .

فهي تحمل عبء المعركة وثقل الرعاية ، ومسؤولية تنفيذ نتائج الثورة كما أنها تقوم في تلك الليلة بأعظم مهمة من رعاية النساء ، وتهدئة روع الأطفال .

* * *

وعاد الحسين الى خيمته. قال الامام زين العابدين: اعتزل أبي في خباءٍ له وهو يعالج بسيفه ويصلحه ويقول :

يا دهر أفٍّ لك من خليل ... كم لك بالاشراق والأصيل

من صاحب وطالب قتيل والدهر لا يقنع بالبديـــل
وانما الأمر الى الجليـــل وكل حيّ سالك سبيل

وعندما طرق هذا الكلام سمع العقيلة توجهت نحو الحسين وقالت : واثكلاه ليت الموت أعدمني الحياة اليوم ، ماتت أمي فاطمة، وأبي علي ، وأخي الحسن، يا خليفة الماضين،وثمال الباقين ،فنظر اليها الحسين وقال :

يا اختاه لا يذهبن بحلمك الشيطان تعزي بعزاء الله واعلمي ان أهل الأرض يموتون وان اهل السماءلا يبقون وكل شيء هالك إلا وجهه ولكل مسلم برسول الله أسوة حسنة .

فقالت عليها السلام : أفتغتصب نفسك اغتصاباً ؟ فذاك أقرح لقلبي وأشد على نفسي .

كانت هذه أول وصية من الحسين لاخته، اعلاماً لها بتحمل المسؤولية وان تكون امام الكوارث المقبلة ، كالجبل الأشم ، والصخرة الصماء ، تتكسر عليها كل عوامل الذلة والإنكسار ، ولا تستولي عليها دوافع الضعف ، وعوامل الإنهيار ، وأن تتاسى بجدها رسول الله ، وتتعزى بعزاء الله .

* * *

انه عبء ثقيل في تحمل مسؤولية الكفاح المتواصل لربط الثورة

بأهدافها المتوقعة وعواملها المنتظرة ، وقد تجسدت لها الحوادث بعد أن أطلعها الحسين على كثير من مهماتها ، وفتح أمامها نوافذ مهمة مهّد لها طرق التسلية عما تلاقيه فيها من بلاء وما تصطدم بها من نكبات .

ولقد كانت على موعد مع هذا الحدث العظيم ، حدثتها امها فاطمة الزهراء وسمعت من أبيها علي ، ما يدل على وقوع ذلك ، وكما لمّح لها أخوها الحسن بآثار الفاجعة ، وصرّح لها الحسين بدنو ما كانت تخشاه ، وحلول ما كانت تتوقعه .

ولقد تحملت مسؤولية اتمام الرسالة التي قام بها الحسين (ع)فأوضحت للعالم عوامل الثورة ، فنبهت الغافل ، وفضحت تلك الدعايات المضللة.

لقد مثلّت زينب دور البطولة في ميدان الجهاد ، وثبتت أمام المحن والمكاره ، ثبوت الجبل أمام العواصف .

واحتسبت ما أصابها من بلاء في جنب الله، طلباً لمرضاته وجهاداً في سبيله ، واعلاء لكلمته .

لقد أدت واجبها في ساعة المحنة ، فهي تسلي الثاكل وتصبر الطفل ، وتهدىء روع العائلة .

وسنرى في مسايرتنا لركبها الحزين، كيف وقفت أمام مجتمع الكوفة فحملتهم مسؤولية هذه الجريمة الكبرى، ووسمتهم بالذل ، وألبستهم العار، كما سنرى كيف قابلت يزيد الماجن المستهتر الطائش ، فأوضحت للملأ إلحاده وكفره ، وسلبته مواهب التفكير، فوقف امام قوة الايمان موقف ذلة وانكسار ، فكان النصر حليفها ولا زال إلى الأبد .

وعند الصباح

وطلع فجر اليوم العاشر من المحرم . وكان يوم الجمعة ، واصحاب الحسين مستقبلين القبلة ، يؤدون فرضهم ، وهم يرفعون اكفهم للسماء يستنزلون الرحمة ، ويسالون الله النصرة ، يرمقون السماء بعيون تترقق بين اجفانها دمعة الفرح ، انها دمعة فرح لقاء الله والفوز برضوانه ، والموت بساحات الجهاد في سبيله .

انهم قد تجردوا عن كل شاغل ، وابتعدوا عن كل ما يبعدهم عن حظيرة القدس ، فهم مشغولون بذكر الله ، يرددون آياته ويتحملون مسؤولية الجهاد ، والدفاع عن الحق ، فلم يعبئوا بكثرة الجيش ، ولم ترهبهم قعقعة اللجم ولا استكاك الأسنة ، وخفق الرايات وأراجيز الحرب .

انهم أقبلوا على الله واتجهوا بكل مشاعرهم ، وقد ملك الايمان قلوبهم وتجسدت المسؤولية الملقاة على عاتقهم أمام أعينهم ، فهانت عليهم الدنيا لعظم الهدف ، فلم يشغلهم شاغل إلا انتصار الحق ، وإزهاق الباطل ، وقد وصفهم الامام الصادق بقوله :

إن أصحاب جدّي الحسين ، كانوا لا يحسون بالم الحديد .

وذلك لاتجاه شعورهم في اداء مهمتهم، وعلم النفس يقر هذهالظاهرة، والتجارب تؤيد ذلك .

* * *

وقبل أن يتموّا تعقيب الصلاة تهيأ الجيش الأموي للحرب ، ودنت الساعة الحرجة التي يفصل فيها التاريخ بين قوتين قاهرتين ، هما قوة الخير ، وقوة الشر التي اصبحت الجولة الحاسمة بينهما في ميادين الطف ، إذ التقى الاسلام والعناصر المعادية هناك لتصفية الحساب .

ولأن انتصرت قوى الشر في تلك المعركة فانما هو انتصار موقت وظفر محدود ،ففي تلك الجولة الحاسمة ظهرت العناصر المندّسة وازيلت البراقع التي كان يتستر بها اعداء الاسلام ، وبقي يوم الحسين تهتز له عروش الظالمين وتهوي بصرختة المدوية تيجان المستبدين.وبقي الحسين وسيرته الخالدة ، سيرة البطولة والفداء ، سيرة التضحية والعقيدة ، سيرة العزة والكرامة. ولقد كتب بدمه المسفوح أسمى معاني التضحية في سبيل نصرة الحق واقامة العدل . والنصر حليفه على ممر الزمن وتعـــاقب الأجيال .

في انتظار القتال

وقف المعسكر الأُموي على أهبة الاستعداد للهجوم وانتظار أوامر القيادة في الزحف ، وقام الجيش باستعراض عام فقد جالت الخيـــل على كثرتها أمام معسكر الحسين ، وقاربوا مخيم عياله لادخال الرعب وإظهار القوة ، وبيان العدة وكثرة العدد الذي ازدلف ذلك اليوم والذي يقدّر عدده بثلاثين ألفاً على أصح الأقوال .

فقد جاء عن الامام زين العابدين علي بن الحسين (ع) وهو ممن شاهد المعركة ووعى أخبارها على ما به من شدة المرض ، أنـه قال : ما من يوم أشد على رسول الله من يوم أُحد قتل فيـه عمه حمزة بن عبد المطلب اسد الله واسد رسوله ، وبعده يوم موتة قتل فيه ابن عمه جعفر ، قال ثم لا يوم كيوم الحسين ازدلف اليه ثلاثون ألفاً يزعمون أنهم من هذه الامة ، وهو يذكرهم بالله فلا يتعظون حتى قتلوه بغياً ، وظلماً ، وعدواناً .

* * *

لقد تقدم ذلك الجيش وهم يرفعون شعار النزول على حكم الأمير عبيدالله ابن زياد ، وكانت هذه التحركات بعد طلوع الفجر ، وقد توقف الهجوم لانتظار جواب الحسين ، في تقرير المصير لأنـــه استمهلهم عصر يوم الخميس تاسع محرم لمدة لُيلة .

والكل ينتظر النتائج بفارغ الصبر النتيجة الحاسمة التي يطلبونها .
إما الصلح وهو النزول على حكم ابن زياد ، أو القتال . وقد سيطر على الموقف غموض والجيش بحيرة وارتباك وإذا بالحسين يخرج على ذلك الجمع بتلك الطلعة التي بهرت العقول هيبة وجلالاً ، وقد احاط به أُخوته وأنصاره ، كما تحيط النجوم بالقمر .

خرج (ع) وهو معتم بعمامة رسول الله (ص) ومتقلد سيفه .

خرج (ع) بتلك الطلعة التي جللتها قدسّية الامامة ، وعلتها أنوار النبوة ، وهو يحمل المصحف بين يديه لاتمام الحجة ، وانقاذ هذه الجموع الغفيرة التي ساقها الجهل ، وحدى بها الطمع ، الى هوة الهلكة .

إنه يريد ان يعلن للملأ دفاعه عن الحق ، وملازمته القرآن قولاً وعملاً .

إنه يريد أن يترك للأجيال القادمة خطة المسير على اهداف الرفعة والسمو .

ها هو يقف امام ذلك الجيش العظيم ، بعد أن علم إصرارهم على قتله وامتناعهم عن الاستجابة لكل حلّ دون اعلان الحرب .

وها هو يلقي بحجته ، ويذكرهم بوعد الله ووعيده على خيانتهم وغدرهم له ، ونبذهم تعاليم الاسلام وراء ظهورهم .

إنه يريد أن يعري ادعياء الاسلام ، ويزيل براقع التستر في صفوف المسلمين وهم يعملون على هدمه

إنه يريد أن تكون كلمة الله هي العليا ، وكلمة الشيطان هي السفلى.

إنه يتقدم نحو اعدائه وقد احاطت به الصفوة من أهل بيته وخلّص أصحابه وكتاب الله بين يديه رافعـــاً صوته بالدعاء إلى الله والتضرع بين يديه .

ونادى باعلى صوته : ايها الناس اويا أهل العراق اسمعوا قولي ، ولا تعجلوا بي حتى اعظكم بما يجب لكم عليّ ، وحتى أعتذر اليكم من مقدمي عليكم ، فان قبلتم عذري ، وصدقتم قولي ، وانصفتموني ، كنتم بذلك أسعد ، ولم يكن لكم عليّ سبيل ، وإن لم تقبلوا مني العـــذر « فاجمعوا أمركم وشركاءكم ، ثم لا يكن أمركم عليكم غمة ، ثم افضوا إليّ ولا تنظرون إن وليي الله الذي أنزل الكتاب وهو يتولى الصالحين » ثم قال:

« اما بعد ؛ فانسبوني ، من أنا ، ثم ارجعوا الى انفسكم فعاتبوها ، وانظروا : هل يصلح لكم قتلي ، وانتهاك حرمتي ؟
ألست ابن بنت نبيكم (ص) وابن وصيه ، وابن عمه ، وأول المؤمنين بالله ، والمصدق لرسوله بما جاء به من عند ربه ؟
أو ليس حمزة سيد الشهداء عم أبي ، أوليس جعفر الشهيد الطيار عمي ؟
أو لم يبلغكم قول مستفيض فيكم أن رسول الله صلى الله عليه وآله قال لي ولأخي : « هذان سيدا شباب أهل الجنة » فان

صدقتموني بما اقول - وهو الحق - والله ما
تعمدت كذباً مذ علمت أن الله يمقت عليه
أهله ، ويضرّ من اختلقه ، وإن كذبتموني
فان فيكم من ان سألتموه عن ذلك اخبركم :
سلوا جابر بن عبدالله الانصاري، أو أبا سعيد
الخدري ، أو سهل بن سعد الساعدي ، أو
زيد بن أرقم ، أو أنس بن مالك يخبروكم
أنهم سمعوا هذه المقالة من رسول الله صلىالله
عليه وآله لي ولأخي ، أفما في هذا حاجز
لكم عن سفك دمي ؟ .

فقال له شمر بن ذي الجوشن : هو يعبد الله على حرف إن كان يدري ما تقول .

فقال له حبيب بن مظاهر : والله إني لأراك تعبد الله على سبعين حرفاً !! وانا اشهد انك صادق ما تدرك ما يقول قد طبع الله على قلبك .

ثم قال لهم الحسين: « فإن كنتم في شك من هذا
القول أفتشكون أني ابن بنت نبيكم؟ فوالله
ما بين المشرق والمغرب ، ابن بنت نبي غيري
منكم ولا من غيركم ، وانا ابن بنت نبيكم
خاصة . اخبروني اتطلبوني بقتيل منكم
قتلته ، أو مال لكم استهلكته أو بقصاص
من جراحة ؟

* * *

فاخذوا لا يكلمونه فنادى : يا شبث بن ربعي ، ويا حجار بن ابجر ويا قيس بن الاشعث ويا يزيد بن الحارث و . و . ألم تكتبوا إليّ ، أن قد اينعت الثمار ، واخضر الجناب وطمت الجمام، وانما تقدم على جند لك مجندة فاقبل .

قالوا له : لم نفعل . فقال سبحان الله بلى والله لقد فعلتم ، ثم قال : ايها الناس إذا كرهتموني فدعوني انصرف عنكم إلى مامن من الأرض .

فقال له قيس بن الاشعث: أولا تنزل على حكم بني عمك فانهم لن يروك إلا ما تحب ولن يصل اليك منهم مكروه ؟

فقال له الحسين : انت اخو اخيك تريد أن يطلبك بنو هاشم باكثر من دم مسلم [1] .

* * *

لا والله لا اعطيكم بيدي إعطاء الذليل ولا أقر اقرار العبيد عباد الله أني عذت بربي وربكم أن ترجمون اعوذ بربي وربكم من كل متكبر لا يؤمن بيوم الحساب .

* * *

ألقى الحسين هذا الخطاب العظيم بلهجة قوية وحجة قويمة ، فقد

---

(١) الطبري ج ٦ والكامل ج ٣ ص ٢٨٧ – ٢٨٨ .

أوضح الموقف ورفع الستار عن كل ما يختلج في القلوب ، من تشكيك حول موقفه وقد ابان بأقواله منهج ثورته وبيان نهضته ، وانه مصمم على مواصلة القتال لنصرة الحق والعدل ، ولو تركه القوم لم يتركهم لأنه ثائر للحق ، وقد تركوا العمل به وأقبلوا على الباطل كما أوضح لهم .

إنه لم يقدم أرضهم إلا بعد أن دعوه ، ومنهم أولئك القوم الذين أصبحوا قواد جيش وزعماء حركة ، وقد كاتبوه بالأمس، ولكنهم قابلوه اليوم بكل صلافة ، وبدون استحياء ، وأجابوه بجواب ليس للتعقل فيه من أثر ، ولا للتفكير فيه من صلة .

فقالوا : انا لا ندري ما تقول. انزل على حكم بني عمك وانا لسنا تاركيك. وهنا اتضح الموقف عن خطين متساويين ، إما التنازل من الحسين وإما الحرب معه. والحسين (ع) صمم على خطين لا ثالث لهما. إما أن يستسلموا لدعوته والوفاء بما عاهدوه ، أو التضحية ،فاعلنها كلمة خالدة ترددها الأجيال وتسير على نهجها الأبطال، وأُباة الضيم، وترك تلك الأجسام الثقيلة على الأرض لا تستقيم عليها فهي تموج حيرة وذهولاً .

نادى (ع) وأعطى دروسه الأخيرة ، ورفع شعار الثورة ، وأعلن عن وقوعها بقوله : والله لا أُعطي بيدي اعطاء الذليل ، ولا أقر اقرار العبيد. ثم قال: ألا وإني زاحف بهذه الأُسرة مع قلة العدد وخذلان الناصر .

وأكد ذلك بقوله : لا أرى الموت إلا سعادة والحياة مع الظالمين إلاّ برما. وتيقظت ضمائر جماعة من أعيان جيش ابن سعد فالتحقوا بمعسكر

الحسين (ع) وهم من أبطال الكوفـة ابو الشعثاء ويزيد الكندي وغيرهم عدد يربو على الثلاثين رجلاً كما التحق به ليلة العاشر من المحرم جماعة تسللوا تحت جنح الظلام .

وأشهر من التحق بالحسين يوم العاشر الحر بن يزيد الرياحي لمكانته الاجتماعية ومهمته العسكرية .

الحر بن يزيد الرياحي

بقي الحر ينتظر العواقب ، فجاءه المدد من جيش الكوفة ، فكان أهم تفكيره انه هو السبب في انزال الحسين ، والحجر الاول لبناء هـذا التجمع العظيم ، ونظر الى الاجراءآت التي اتخذها ابن زياد لمضايقـــة الحسين ، حتى ادى الأمر إلى حرب لا بد منهـــا وسمع خطاب الحسين واصراره على المضي في نهجه .

وهنا تيقظ ضميره ، وجاء الى عمر بن سعد قائلا : ـ أمقاتـل أنت هذا الرجل ؟ قـــال ابن سعد : إي والله قتالاً أيسره ان تسقط فيه الرؤوس وتطيـح الأيدي .

وهنـــا يعود الحرّ الى تفكيره العميق ، ويلازم صمته ، ويجيل النظر في من حوله ، ويفاوض بعض اصحابـــه في الالتحاق بالحسين ، فتهيبوا من ذلك ، ثم انعزل عن اصحابه في حالة تجلب الانتباه لكل من يراه لأنه كان يرتعد كالسعفة إذ يلاعبهـــا الهوى ، مضطربة اعضاؤه مصفر وجهه.

إنها حالة غريبة ، فالحُر يعدُ من شجعان العرب ، وهو اليوم من

أكبر قواد الجيش ورئيس لعشيرة ذات نفرذ وقوة ، ولكنها الحقيقة التي لا بد له من الاعتراف بها فهو مخطىء فكيف يتدارك خطأه والاعتراف بالخطأ فضيلة .

هو في صراع مع نفسه الأمارة بالسوء ، ويحاول التغلب على عنصر الشقاء وعوامل الهلكة ، فاستنكر عليه كل من رآه بتلك الحالة ، فقال له المهاجر بن أوس : أتريد أن تحمل ؟ فسكت واخذته الرعدة ، فارتاب المهاجر من حالته وقال : لو قيل لي من أشجع أهل الكوفة لما عدوتك ، فما هذا الذي أراه منك ؟!!

فقال الحر : اني اخيّر نفسي بين الجنة والنار ، والله لا اختار على الجنة شيئاً . ثم ضرب جواده نحو الحسين ، وتقدم وهو يرفع صوته بالدعاء ويقول اللهم اني اليك تبت فتبْ عليّ فقد ارعبت قلوب أوليائك وأولاد نبيك .

ويدنو من الحسين ومعه ولده ، وهو يتعثر باذيال الخجل وقد خالجه اليأس من قبول التوبة ، ويخشى من الرد الفاضح ، ان لم يرضَ الحسين عنه ، ولم يقبل توبته .

ووقف أمام الحسين معتذراً ، وقد غيّر الندم نبرات صوته :

أيا ابن رسول الله انا صاحبك الذي حبستك
عن الرجوع ، والتحرك ، وسايرتك ، وجعجعتك
في هذا المكان ، ووالله ما ظننت ان القوم
ينزلون منك هذه المنزلة ابداً . حتى اصبحوا

البوم يريدون قتلك ، ولو علمت انهم ينتهون
إلى ما أرى ما ركبت مثل الذي ركبتُ ،
واني قد جئتك تائباً ، مما كان مني إلى ربي ،
وجئت مواسياً لك بنفسي حتى أموت بين
يديك ، وقد حاولت أن احضر من القوم
جمعاً منهم فتمنعوا وتخوفوا فجئت بنفسي
فهل تقبل مني هذه التوبة .

قال الحسين : تُبْ يتوب الله عليك. والتحق به أخوه مصعب ، وعروة مولاه وقتل بين يدي الحسين .

وأحسّ ابن سعد بهذه الظاهرة وان الخطر يحيط بجيشـــه ، فلو استدام الحسين في بيانه ولم تقع الحرب بسرعـــة لمدة من الوقت لحدث انقسام في جيشه وانضم الأكثر الى جانب الحسين ، ولرجحت كفـــة معسكره ، وخسر ابن سعد تلك المعركة، وقد حثه الرقباء عليه بتدارك الأمر ، ودرء هذا الخطر ، ولأجل ذلـــك أسرع ابن سعد في ايقاد نار الحرب، إذ لم يترك الحسين (ع) طريقاً يأمل فيه ارشاد ذلك الجمع الذي اضله الشيطان إلا سلكه .

لقد كلمهم بالحكمة ، وطرق اسماعهم بالموعظة ، جادلهم بالتي هي أحسن واوضح لهم ما كان معمى عليهم ، وحاول أن يدفع بكل جهده عنهم كارثة جريمة قتله ، إذ وجدهم مصممون على ذلك .

لقد كان (ع) حريصاً على هدايتهم فهو يعظهم ، ويقدم لهم الحجة اثر الحجة ، ويقيم الدليل اثر الدليل .

وقد شاركه أصحابه في تلك اللحظات بأمر منه فقد أمر (ع) بريراً ابن خضير الهمداني وقال له : كلم القوم واحتج عليهم .

فتقدم برير حتى وقف قريباً من القوم ، وكانوا على أهبة الزحف للقتال فقال لهم برير :

يا هؤلاء اتقوا الله فان نسل محمد (ص) قد أصبح من اظهركم وهؤلاء ذريته وعترته وحريمه فهاتوا ما الذي عندكم وما تريدون أن تصنعوا بهم .

فقالوا : نريد أن نمكن منهم عبيد الله بن زياد فيرى رأيه فيهم.

فقال برير : ولا تقبلون منهم ان رجعوا الى المكان الذي اقبلوا منه ؟!

يا أهل الكوفة أنسيتم كتبكم اليه وعهودكم الذي أعطيتموها من أنفسكم وأشهدتم الله عليها وكفى به شهيداً، يا ويلكم دعوتم أهل بيت نبيكم وزعمتم أنكم تقتلون أنفسكم دونهم حتى إذا أتوا عليكم اسلمتموهم الى عبيد الله بن زياد وحلتم بينهم وبين الماء الجاري وهو مبذول يشرب منه اليهود والنصارى والمجوس وترده الكلاب والخنازير فبئس ما خلفتم محمداً (ص) في ذريته [1] .

---

(١) الفتوح ١٨٢/٥ - ١٨٣ .

ولم يكن لكلام برير جواب إلاّ طلب النزول على حكم ابن زياد. وكان موقف برير امام القوم وهو يدعو الى كشف أوهام سيطرت عليهم وتخفيف حدة الدعاية ضد الحسين، لأن بريراً مشهور بالكوفة بصلاحه ومن القراء المبرزين، وشيخ كبير عرف بالصدق، واتباع الحق.

وتقدم الحر بن يزيد الرياحي وهو البطل المشهور، والزعيم المبرز والقائد المحنك، ومن عرف بالرأي وحسن السيرة، وله في الجيش أبناء عمومة، وهو أحد رؤساء الأرباع، فكان يامل أن يؤثر بموقفه على ذلك المجتمع، عندما خاطبهم بقوله:

يا أهل الكوفة لأمكم الهبل، أدعوتم هذا العبد الصالح حتى إذا جاءكم اسلمتموه، وزعمتم انكم قاتلوا أنفسكم دونه ثم عدوتم عليه لتقتلوه، وأمسكتم بنفسه، وأخذتم بكظمه واحطتم به من كل جانب، لتمنعوه التوجه في بلاد الله العريضة، فصار كالاسير في ايديكم، لا يملك لنفسه نفعاً ولا يدفع عنها ضراً، وحلأتموه ونساءه وصبيته من ماء الفرات الجاري، يشربه اليهود والنصارى والمجوس وتمرغ فيه خنازير السواد وكلابه، فها هم قد صرعهم العطش [1].

فكان جواب أُولئك القوم أن رموه بالنبل.

---

(١) الارشاد ٢٢٠.

رسل الحرب وبدء القتال

وقف الجيشان على أتم استعداد للملاقاة فقد تم تنظيم جيش الكوفة في أخذ مواقعه ، وقسم ابن سعد القيادات ميمنة وميسرة ، ووقف هو في قلب المعركة ، تحوط به آلاف الجند من الرماة وغيرهم ، وأعطى رايته دريد مولاه .

ووقف جيش الحسين كما نظمه (ع) إذ جعل زهير بن القين على الميمنة ، وحبيب بن مظاهر على الميسرة ، وأعطى الراية أخاه العباس ابن علي (ع) .

وجعلوا يتسابقون الى التضحية ، فآل البيت تسابقوا للوقوف في الصف الأول من الميدان ، ليسارعوا قبل الأنصار لميدان الحرب .

ولكن الانصار لم يسمحوا بذلك ، وأرادوا أن يكونوا هم السابقون ، دفاعاً واستماتة دون أهل البيت ، ويقولون :

معاذ الله ان تموتوا ونحن احياء نشهد مصارعكم فأخذوا مكانهم في الصف الأول وراء قائدهم الحسين (ع) .

واستمرت المقابلة مدة من الزمن والحسين يواجل القوم ويعظهم ويرشدهم إلى ما فيه نجـــاتهم من الملكة ، وخشي ابن سعد واعوانه من استمرار الحسين بوعظه وارشاده فاصدر أمره إلى قواد عسكره واعيان جيشه بالتقدم، وتقدم بنفسه ونادى : يا دريد (أو يا زيد) وهو حامل الراية : أدن رايتك ، ثم وضع سهمه في كبد قوسه ثم رمى بها نحو معسكر الحسين وقال : اشهدوا اني اول من رمى [1] . فاطلق أول سهم وتابعه الرماة ، فاقبلت السهام نحو معسكر الحسين وهي كما قيل : كأنها شآبيب المطر ، أو كقطع الليل المظلم . فقال الحسين ـ وهو ينظر إلى السهام والى اصحابه ـ :

(قوموا يا كرام هذه رسل القوم اليكم) .

وهنا لم يبق بعد من صبابة أمل في هداية القوم ،ودفع غائلة الحرب ، فقد استحوذ عليهم الشيطان فأنساهم ذكرالله.

* * *

وتأهب أصحاب الحسين (ع) ، فقـــد دنت الساعة المنتظرة وابتدأ القتال في المبارزة .

---

(١) الطبري:٦/٢٤٤

المبارزة

وهي مفاعلة من الظهور ؛ يقال : برز بمعنى ظهر ، وتقـــع قبل التحام الجيوش ، أو في فترات متقطعة كما هي العادة في الحروب ، وذلك أن يخرج الفرسان يطلبون أقرانهم . وابتـــدأ جيش ابن سعد بطلب المبارزة .

وأول من برز منهم : يسار مولى زياد وسالم مولى عبيـــد الله ، وهما مشهوران بالشجاعة والإقدام ، فطلبا من أصحاب الحسين المبارزة فتقدم عبد الله بن عمير الكلبي وقال : يا أبا عبد الله رحمك الله ائذن لي ، فأذن له الحسين وتقدم اليهما ، وقال له يسار : من أنت ؟ فانتسب لهما .

فقالا : لا نعرفك ، ليخرج الينـــا زهير بن القين ، وحبيب بن مظاهر .

فقال له عبد الله : وبك رغبة عن مبارزة أحد من الناس ؟!

ثم برز اليه وضربه عبد الله بسيفه ، وانه كان مشغولاً بضربه ، إذ شد عليه سالم مولى عبيد الله بن زياد ، فصاحوا به : قد رهقك العبد ، فلم

يشعر به حتى غشيه فبدره بضربة اتقاها ابن عمير بيده اليسرى فأطارت أصابع كفه ، ثم شد على يساره حتى قتله وعاد الى معسكر الحسين .

وتبارز الفرسان وتقدم الأقران ، وظهرت البطولات ، وتفوّق أصحاب الحسين (ع) في تلك الجولة التي برز فيها أبطال المعركة وفرسان الميدان .

* * *

وربما يبرز الرجل الشجاع من الصف ، ويطلب أن يبرز اليه أحد من أقرانه فيحجمون عن إجابته خوفاً منه ، وحفاظاً على انفسهم .

وكان عابس بن شبيب الشاكري من اولئك الشجعان الذين يحجم الأبطال عن مبارزتهم ، لشهرته ومواقفه البطولية ، وقد عرفت عشيرته بنو شاكر بالشجاعة ، والبسالة ، وفيهم يقول أمير المؤمنين علي (ع) : (لو تمت عدتهم ألفاً لعُبد الله حق عبادته) . فكان عابس مرهوب الجانب وله مشاهد بطولية ، تخافه الأقران وتتحاماه الفرسان .

وحينما تقدم ذلك اليوم وعرفه الناس ، سبق الرعب الى قلوبهم قبل أن يطلب منازلتهم .

يقول الربيع بن تميم الهمداني ــ وهو خصم لعابس وعدو لدود ــ : لما رأيت عابساً مقبلاً عرفته ، وكنت قد شاهدته في المغازي والحروب وكان أشجع الناس فصحت : أيها الناس ! هذا أسد الأسود ، هذا ابن أبي شبيب الشاكري ، لا يخرجنّ أحد اليه . فابتعد الناس عنه .

كان موقف عابس موقفاً مشهوداً وهو رجل واحد يقف امام جمع غفير ، فلا يجسر أحد على الدنو منه ، وحين رأى إحجامهم عن الدنو اليه احتقرهم ، واستهان بهم ، فرمى المغفر ، وألقى الدرع ، فقيل له : أجننت يا عابس ؟ قال : حب الحسين أجنني .

قال ابن كثير : فتحاماه الناس لشجاعته ، فقال لهم عمر بن سعد : ارموه بالحجارة ، ورموه من كل جانب ، فلما رأى ذلك ألقى درعه ومغفره ، ثم شد على الناس .

قال الربيع بن تميم : فوالله لرأيته يكر على أكثر من مائتين منهم ثم انعطفوا عليه من كل جانب فقتل .

قال : فرأيت رأسه في أيدي الرجال ذوي عدة منهم ، هذا يقول : أنا قتلته ، وذاك يقول : أنا قتلته . فجاؤا عمر بن سعد فقال : لا تغتصبوا ، هذا لم يقتله انسان . ففرّق بينهم بهذا القول [1] .

* * *

وقد تكون المبارزة من باب المباهلة ، فقد جرى ذلك بين برير بن خضير الهمداني ، وبين يزيد بن معقل بن عمير بن ربيعة ، وذلك أن معقلاً برز فقال : يا برير بن خضير كيف ترى صنع الله بك ؟

قال : صنع الله بي خيراً وصنع بك شراً .

---

(١) ابن كثير ج ٨ ص ١٨٥ .

فقال : كذبت وقبل اليوم ما كنت كذاباً . أتذكر وأنا أماشيك في سكة بني دودان وأنت تقول إن عثمان كنا وإن معاوية ضال مضل وإن علي بن أبي طالب إمام الحق والهدى .

قال برير : أشهد ان هذا رأيي وقولي .

فقال يزيد : فاني أشهد انك من الضالين .

قال برير : فهل لك أن أباهلك ، ولندعو الله أن يلعن الكاذب وأن يقتل المحقُّ المبطلَ ، اخرج لأبارزك .

فخرجا ورفعا أيديهما بالمباهلة يدعوانه أن يلعن الكاذب ، وأن يقتل المحقُّ المبطلَ . ثم برز كل واحد منهما لصاحبه ، فاختلفا ضربتين فضرب يزيد بريراً ضربة خفيفة لم تضره شيئاً ، وضرب برير يزيدَ ضربة قدت المغفر ، وبلغت الدماغ ، فخر يزيد بن معقل كأنما هوى من حالق ، وان سيف برير لثابت في رأسه وهو ينضنضه حتى أخرجه وهو يقول :

أنا برير وأبي خضير   وكل خير فـــله برير

ثم بارز القوم فحمل عليه رضي بن منقذ العبدي ، فاعتنق بريراً ، فاعتركا ساعة ، ثم ان بريراً صرعه ، وقعد على صدره ، فجعل رضي يصيح باصحابه : أين أهل المصاع والدفاع ؟ فذهب كعب بن جابر بن عمرو الأزدي وحمل عليه بالرمح حتى وضعه في ظهره ، فلما وجد بريرا مسّ الرمح ، برك على رضي فعضّ انفـــه حتى قطعه ، وأقبل عليه بالسيف ليضربه حتى برد .

فلما رجع كعب قالت له أُخته النوار بنت جابر : أعنت على ابن فاطمة ، وقتلت سيد القراء ، وقد أتيت عظيماً من الأمر ، والله لا أُكلمك من رأسي كلمة أبداً !!

* * *

وقد تكون المبارزة في أثناء الحملة ، والتقاء الفرسان في حومة المعركة ، والغرض من ذلك فك ارتباط الفرسان ، عندما يسند بعضهم بعضاً ويشغل أحدهم عن الآخر ، كما جرى ذلك عندما تقدم الحر بن يزيد الرياحي الى المعركة وأخذ يقاتل هو وزهير بن القين قتالاً شديداً ، فكان إذا شد أحدهما واستلحم القتال شد الآخر حتى يخلّصه، فلما نظر اليه يزيد بن سفيان الثغري من بني الحرث بن تميم قال : أم والله لو رأيت الحر لأتبعته السنان ، فبينما الناس يتجاولون ويقتتلون والحر بن يزيد يحمل على القوم مقدماً ويتمثل بقول عنترة :

ما زلت أرميهم بثغرة نحره ولبانه حتى تسربل بالدم

وان فرسه لمضروب على أذنيه ، وحاجبه ودماؤه تسيل ، فقال الحصين بن تميم التميمي ليزيد بن سفيان : هذا الحر الذي كنت تتمناه .

قال : نعم . وخرج اليه فقال : يا حر هل لك في المبارزة ؟

قال : نعم قد شئت . فبرز له .

قال الحصين : وكنت أنظر اليه ، فوالله لكأن نفسه كانت في يد الحر ، خرج اليه فما لبث أن قتله [1] .

(١) ابصار العين ص ١٢٠ — ١٢١ .

كما برز له رجل آخر من بني زبيد يقال له مزاحم بن حريث فقتله. فقال عمرو بن الحجاج : يا حمقى ، أتدرون من تقاتلون ؟ إنما تقاتلون فرسان أهل المصر ، وقوماً مستقتلين ، فلا يبرزن لهم منكم أحد [1] .

ومرّ الحر يقاتل وجال على فرسه ، فرماه أيوب بن مشرح فاصاب فرسه ، واضطرب وكبا ، فوثب عنه الحر ، فكأنه الليث والسيف في يده .

قال أيوب : فما رأيت أحداً قط يفري فريه ، وأخذ يقاتل راجلاً وهو يقول :

آليت لا أقتل حتى أقتلا   ولن أُصاب اليوم إلا مقبلا
أضربهم بالسيف ضرباً مفصلا   لا ناكلاً فيه ولا مهللا

وكان يواصل حملاته ويغوص في أوساط الجموع كالليث ، ويضرب فيهم بسيفه ويقول :

إني أنا الحر ومأوى الضيف   أضرب في أعراضكم بالسيف
عن خير من حل بأرض الخيفِ

ثم شدّت عليه جماعة فقتلوه ، فلما صرع وقف عليه الحسين (ع) وأبّنه بقوله : أنت كما سمّتك أمك الحر حر في الدنيا ، وسعيد في الآخرة .

* * *

(١) انساب الاشراف خطي ص ٢٢ .

وربما تكون المبارزة بين فرد واحد أو أكثر ، فتكون مبـــارزة جماعة في مقابل جماعة ، أو كتلة تتالف من عدة أشخاص يحـاربون جنباً الى جنب يشد بعضهم بعضاً ، ويدافع بعضهم عن البعض الآخر .

وقد كان أصحاب الحسين كلهم ككتلة واحـــدة متماسكة وحلقة دفاع في ثبات قلب ، واتجاه واحد ، وقد تقـــدم من أصحاب الحسين جماعة وهم متماسكون يشد بعضهم عضد الآخر بثبات وإقدام يُرهبون عدو الله .

إن اولئك الجماعـــة جمعهم داعي الحق ، وهتف بهم صوت الدفاع المقدس ، فخرجوا من الكوفة عندما علموا بتوجه الحسين بعد أن قتل مسلم بن عقيل ، وانهارت قوة الدعوة ، وتبدلت الأوضاع ، خرج هؤلاء النفر وهم :

١ ـ عمرو بن خـالد الأسدي ، وكان من أشراف الكوفـة ، الموالين لأهل البيت ، وقد ناصر مسلماً ووازره .

٢ ـ مولاه سعد ، وكان شريف النفس عالي الهمة ، تبـــع مولاه في توجهه الى الحسين وقتل معه .

٣ ـ مجمّع بن عبد الله العائذي ، وهو من التابعين ، ومن أصحاب عليّ ، خرج الى الحسين مع ولده عائذ ، وقتلا معه .

٤ ـ جنادة بن حرب المذحجي المرادي .

فهؤلاء النفر الخمسة استطاعوا الوصول الى الحسين ، رغم الحواجز

التي ضربها ابن زياد على الكوفة ، إذ ساعدهم الحظ ووجدوا الطرمـــاح يمتار لأهله ، وهو من أعراب البادية ، وله علم بطرقها وكهوفها،وأوديتها وسهولها ، فخرج بهم متنكباً الطرق المرصودة ، والمزدحمـــة بالخيل والرجال ، حتى التحقوا بركب الحسين ، ولما وقعت الحرب وبدأت المبارزة ، كوّن هؤلاء الجماعـــة جبهة متماسكة ، تخوض ساحة القتال كأنهم رجل واحد ، وتقدموا يسند بعضهم بعضاً ، وهناك حاول جيش ابن سعد أن يحيط بهم ويفرق جمعهم ، فعطف عليهم النـــاس فأخذوا يحوزونهم حتى فصلوهم عن الاتصال بأصحاب الحسين ، وابتعدوا عنهم، فلما نظر الحسين (ع) اليهم نـــدب اليهم أخاه العباس ، فنهد اليهم واستنقذهم ، فجاءوا وقد أُثخنوا بالجراح ، وفي أثناء الطريق تعرض لهم الناس ليقطعوا عليهم الطريق ، فانسلوا الى الحرب ، وشدّوا على القوم بأسيافهم شدة واحدة على ما بهم من الجراح ، وقاتلوا قتـالاً شديـداً حتى قتلوا عن آخرهم .

* * *

قال ابن كثير : وكثرت المبارزة يومئذ بين الفريقين والنصر في ذلك لأصحاب الحسين (ع) لقوة بأسهم ، وانهم مستميتون ، لا عاصم لهم إلا سيوفهم ، فاشار بعض الأُمراء على ابن سعد بعدم المبارزة [1] ، فقد كان الرجل من أصحاب الحسين (ع) يصرع الكثير من أبطال الكوفـــة ، فقال عمر بن سعد : صدقت ، الرأي ما رأيت . أرسل الى الناس فمرهم بعدم المبارزة

(١) المصدر السابق .

وأحجم أصحاب ابن سعد عن إجابة أصحاب الحسين الى المبارزة فلم يستجيبوا لمن دعاهم اليها ، وبذلك خالفوا أهم شرط من شروط الحروب عند العرب .

كما انهم خالفوا كل القواعد والشروط ، وأكثرهم في ذلك الجيش يعد نفسه في سجن ، ويلازمه القلق والحيرة ، وقد ملك الخوف مشاعره فهو يود الخلاص من هذا المازق .

لقد كان أثر المبارزة بين الأقران في معنوية الجيش الأموي واضحاً، فإن تلك اللحظات قد تجلت فيها أُمور ترفع غشاوة التضليل والخداع ، في ربط تلك الحرب بالدين ، ولكن الوقائع أثبتت زيف ذلك الإدعاء .

فالحسين (ع) كشف الستار ، وأزال حجب التمويه ، كما شاركه أصحابه بالوعظ والإرشاد ، وكانت الصور التي مرت أمام مناظر اولئك كافية لوعيهم ، وردعهم ، ولكن أنىّ لهم ذلك .

فمنذ بدء المبارزة تقدم للقتال رجال من أصحاب محمد الذين رأوه وسمعوا حديثه ، ومن التابعين ومن القراء ومن عرفوا بالصلاح والتمسك بالدين تجلى الموقف بصورة لا مجال الى التشكيك فيها بان المعركة في أقرب وقت ستكون في غير صالح الانتهازيين وذوي الأطماع والذين انطوت نفوسهم على الخبث فساندوا الموتورين من أعداء الإسلام .

الحملة الأولى:

والتحم الجيشان ووقعت الحرب وجالت الخيل واستكت الأسنة وثار الغبار، وحمي الوطيس، وكانت الحملة الأولى التي خاضها أصحاب الحسين هي حملة جماعية ضارية ، اشترك فيها معسكر الكوفة بكامل قطعاته ، وقد خاض أصحاب الحسين تلك المعركة الضارية بعزم يستمد من العقيدة ، ويشتق من نفس مفطورة من الإخلاص والتضحية دفاعاً عن الإسلام ، وجهاداً في سبيل الله ، وقد برزت معنويتهم العسكرية للعيان ، فكانوا يهزمون الجمع ، ويخترقون الجيش . ولقد اخترقوا جيش ابن سعد عدة مرات بقلوب أقوى من الصخر ، وقد وصفهم مشاهدوا المعركة من جند ابن سعد بقولهم :

ثارت علينا عصابة ايديها في مقابض سيوفها كالاسود الضارية ، تحطم الفرسان يميناً وشمالاً ، وتلقي أنفسها على الموت لا تقبل الأمان ، ولا ترغب في المال ولا يحول حائل بينها وبين الورود على حياض المنية ،لو كففنا عنهم رويداً لأتوا على الجموع بحذافيرها (١).

---

(١) شرح نهج البلاغة ج ١ ص ٣٠٧ .

ويصفهم كعب بن جابر ، وهو الذي قتل برير بن خضير الهمداني بقوله :

ولم ترَ عيني مثلهم في زمانهم ولا قبلهم في الناس إذ أنا يافع
أشدّ قراعاً بالسيوف لدى الوغى ألا كل من يحمي الذمار مقارع
وقد صبروا للطعن والضرب حسراً وقد نازلوا لو ان ذلك نافع [1]

تقدموا للحرب وهم ينشدون أشعاراً هي لهيب من البطولة ، وشعلة من النخوة والإقدام . انهم أبوا إلا أن يخوضوا تلك المعركة الحاسمة من أجل الحق ، وأرادوا أن يضربوا مثلاً على التمسك بالحق ، والاستماتة في سبيله .

كانوا يتسابقون للذود عن الحسين ، والدفاع عن مبادئه ، وهم يتلقون سهام أعدائه وهي تهوي عليهم كشآبيب المطر ، فكلما صرع واحد منهم حل مكانه آخر ، يدفع عنه بصدره ويجود من أجله بروحه. قد أوقدوا نار الحرب ، وعلا الضجيج في المعركة ، وكانوا يخوضون في ذلك الجيش وهم يرفعون أصواتهم بأراجيزهم المعبرة عن طيب المحتد ، وصدق النية وصلابة الإيمان ، فهذا يجول في الميمنة ويرتجز :

قد علمت كتيبة الأنصار اني ساحمي حوزة الذمار
ضرب غلام غير نكس شاري دون حسين مهجتي وداري

وآخر يرتجز ويقول :

---

(١) الطبري ج ٦ ص ٢٤٨ .

إن تنكروني فأنا ابن الكلبي حسبي بيتي من عليم حسبي
إني امرء ذو مرة وعصب ولست بالخوار عند النكب

وآخر يغوص في أوساط القوم وهو يقاتل ويقول ويوجه خطابه للحسين :

أقدم هديت هادياً مهديا فاليوم نلقى جدك النبيا
وحسناً والمرتضى عليا

وآخر يعتز بحسبه دون نسبه فهو يقاتل ويرتجز :

كيف ترى الفجّار ضرب الأسْوَدِ بالسيف صلتاً عن بني محمد
أذبُّ عنهم باللسان واليدِ أرجو به الجنة يوم الموردِ

* * *

لقد وقف انصار الحسين موقفهم المشرف في الدفاع والتضحية دون المبدأ والعقيدة ، وكانوا بمعنوية سامية ، وعزائمهم تبعثهم بالاستماتة بالحياة، ولقد أبوا إلا أن يخوضوا تلك المعركة الحاسمة ، فكان موقفهم موقف الاعتزاز بالنفس ، والثبات في الشدة ، وأرادوا أن يضربوا لأنفسهم مثلاً في التضحية والفداء ، وراحوا يقتحمون عدوّهم كالأسود الضارية ، وأخذت خيلهم تجول وعلى صهواتها أبطال العرب وفرسان المصر ، فلم تحمل على جانب من خيل أهل الكوفة إلا كشفتهم ،فلما رأى ذلك عروة ابن قيس وهو قائد كتائب الخيالة ، بعث الى عمر بن سعد يقول له :

ألا ترى ما تلقى خيلي هذا اليوم من هذه العدة اليسيرة؟ ابعث إليّ الرجالة والرماة[1].

فبعث عمر بن سعد الرماة وعليهم الحصين بن تميم ، فتقدم اليهم أن يرشقوا أصحاب الحسين بالنبل ، فلم يلبثوا أن عقروا خيولهم،وجرحوا الرجالة ، ولكن أصحاب الحسين ترجّلوا وخاضوا المعركة وقاتلوا أشد قتال حتى انتصف النهار .

وكان في أصحاب الحسين من الرمـــاة الذين هم مضرب الأمثال في الإصابة ولم يسبق لهم مثيل في الرمي ومنهم يزيد بن مهاجر أبو الشعثاء ، وكان من شجعان الكوفة وفرسانها ، وهو ممن تيقظ ضميره ، والتحق بجيش الحسين وتقدم بين يديه وقاتل فارساً ، فلما عقرت فرسه جثا على ركبتيه بين يدي الحسين ، وكانت معه مائة سهم فرمى بها ما سقط منها إلا خمسة سهام ، وكان الحسين يقول له : سدّد الله رميتك ، فلما نفذت سهامه قام على قدميه وقاتل حتى قتل شهيداً[2] .

* * *

ونظراً لحراجة الموقف وأهمية القتال وكثرة الرماة كان بعض أصحاب الحسين قد التزموا الوقاية بأنفسهم دونه ، وشكلوا في ذلك اليوم حلقة دفاع ودرع وقاية من أجسادهم ، ووقفوا يتقون السهام والسيوف عنه .

---

(١) الطبري ج ٦ ص

(٢) ابن الاثير ج ٤ ص ٣٨ .

منهم : حنظلة بن سعد الشبامي ، وعمرو بن قرضـــة الأنصاري ، وسعيد بن عبد الله الحنفي ، فكان لا ياتي سيف للحسين إلا اتقوه دونه ، ولا سهم إلا تلقوه عنه ، فإذا أُثخن أحدهم بالجراح وأثرت فيه كثرتها أثراً عظيما أدّى الى ضعفه عن الوقاية يلتفت للحسين ويقول :

أوفيت يا ابن رسول الله ؟ فيجيبه الحسين بقوله : نعم أنت أمامي في الجنة فاقرأ جدي السلام وأعلمه اني في الأثر [1] .

ولما أقام الحسين (ع) صلاة الظهر في ذلك الموقف ، واستمهل أعداء الله بأن يكفوا عنه الى حين انتهاء الصلاة ، ولكنهم لم يفوا بذلك ، فلم يمنع أولئك القوم احترام الموقف ، وحرمة الفرض ، ورعـــاية العهد ، فكانوا يرمون الحسين وهو مشغول في الصلاة ، فوقف سعيد بن عبد الله الحنفي يتلقى السهام دونه ، فلما نزف دمه من كثرة النبال خرّ صريعاً وهو يقول :

اللهم أبلغ نبيك عني السلام وبلغه ما لقيته من الجراح [2] .

* * *

ورأى عمر بن سعد ان أصحابه لا يقدرون على اتيان أصحاب الحسين إلا من جهة واحدة ، لاجتماع مضاربهم ، وتقارب أبنيتهم ، فأرسل رجالاً من جنده ، فهجموا على البيوت يقوضونها عن اليمين والشمال ، فانكفأ

---

(١) كاشف الغطاء مقتل الحسين ص ٥٦ .

(٢) المصدر السابق .

أصحاب الحسين للدفاع عن المضارب ، فـــكان الثلاثة والأربعة من أصحاب الحسين يتخللون البيوت فيقتلون الرجل وهو يقوض أو ينهب ويرمونه من قريب أو يصرعونه ، فامر عمر بن سعد بحرق البيوت ، فاحرقت . فقال الحسين : دعوهم يحرقونها فانهم لا يجوزونها . واستمر القتال وأدت الصفوة المؤمنة واجبها المقدس ، وسقطوا في ساحة المعركة يرتدون أبراد الشهادة موشحة بدمائهم الطـــاهرة ، فسلام الله عليهم ورحمته وبركاته .

بين العقيـــدة والعـــاطفة

صراع مر وموقف حرج ، ونهاية خطرة ، عندما يقف المرء بين العقيدة والعاطفة ، فللعاطفة سلطان قاهر وحكومة قاسية تسير بالإنسان على غير الواقع في كثير من أدوار تحكمها ، وقليل من الناس من يفلت من سلطانها ويتحرر من عبوديتها .

وقد ظهر في أنصار الحسين أجلى مظاهر الانتصار على العاطفة فكان الحكم للعقيدة ، فساروا على بصيرة من أمرهم ، وهدىً من دينهم ، وكان عملهم لله وحده جهاداً عن دينه ودفاعاً عن مقدساته ، فلا نخوة ولا تعصب ، ولا عاطفة تذهب بهم مذاهب منحرفة عن الواقع .

فهذا يقدم ولده بين يديه ليراه صريعاً متشحطاً بدمه في سبيل الله ، وهذا يقدم مولاه ، وهذا يقدم أخاه ، ينظر اليه ويسره ذلك الموقف إذ يعده نجاحاً في هذه المعركة .

وكان محمد بن بشير الحضرمي وسط المعركة في تلك الساعة الحرجة جاءه نبأ بأن ابنه أُسر بثغر الري ، فقال له الحسين : انت في حلّ من بيعتي فاعمل في فكاك ولدك . وهنا يقف الرجل بين عاملين : عطفه على ولده ، ودفاعه عن عقيدته . وقد حصلت له الرخصة من امامه . فكان جوابه : لا والله لا أفعل ذلك ، أكلتني السباع حياً إن فارقتك .

فقال الحسين : إذاً اعطِ ابنك هذه الأثواب الخمسة ليعمل في فكاك أخيه . وكان قيمتها ألف دينار (١) .

(١) الطبري ٦

وتجلت في معركة الطف صور من الصراع بين العقيدة والعاطفة ، وكان الانتصار للعقيدة ، وقد ظهر في مواقف النساء ، فكان للمرأة المسلمة دور في ذلك المعترك ، فقد انتصرت هنا العقيدة ووقفت المرأة موقفاً بطولياً لم يشهد التاريخ مثله ، فكان واجب العقيدة فوق العطف والحنان .

هذه أُم عمرو بن جنادة الأنصاري التي ضربت أروع مثل بطولي إذ وقفت موقف حزم وثبات ، فإنها بعد ان قتل زوجها وشاهدت مصرعه ازدادت قوة وثباتاً فامرت ولدها عمرو بن جنادة أن يتقدم للدفاع عن الحسين (ع) ، وكان عمره احد عشر عاماً ، فلما نظر اليه الحسين رق له ، فهو غلام صغير مات أبوه وبقي مع أمه ، فشكره الحسين وقال : ارجع الى أُمك تتسلى بك .

عاد الولد ودمعته تسبق أنفاسه ، وكانت أُمه تنظر لساحة المعركة عسى أن يأذن الحسين لولدها فيبرز في المعركة وهو فلذة كبدها تود أن تراه بين جموع ليس للرحمة والرقة مكان في قلوبهم وهم وحوش في هيا كل إنسان ، ولكن ولدها عاد اليها ، فارتاعت لخيبة الأمل . أكان رجوع ولدها حباً بالسلامة وفراراً من الموت لأنه صغير السن وفي مقتبل العمر فقالت :

بُنيَّ ! لماذا رجعت ؟ !

فقال : الحسين لم يأذن لي ويقول : إرجع الى أُمك تتسلى بك .

قالت : نعم ؛ إنه رأى صغر سنّك فعظم عليه ذلك ، ونظر الى حمائل سيفك يخطان في الأرض فاشفق عليك وعلم بحالتي فرقّ لها . إرجع الى الحسين وقل له : إن أمي هي التي أمرتني .

عاد الغلام وهو يحوم في أفكاره ويتعثر في أذيال الخوف من الخيبة إذ يرد الحسين طلبه وهو يحسب للرد ألف حساب .

دخل على الحسين وهو مصفر اللون وقال وهو مضطرب :

سيدي ، إن أمي أمرتني بالجهاد دونك .

قال الحسين (ع) : جزاكم الله خيراً ! ابرز يا ولدي . فتهلل وجه الغلام فرحاً وتقدم نحو الحسين يقبّل يديه .

خرج الغلام بكل ثبات وقوة ، وهو يرمق السماء بعينيه . انها نظرة استعطاف وعبودية لخالقه وشكراً لما منحه من هذه المنزلة .

وكانت الأمّ الأرملة التي فقدت زوجها قبل لحظات ، ولم تجف دماؤه ولم ترقأ دمعتها عليه بعد ، تنتظر النتيجة وتود أن ترى ولدها يتقدم لساحات الجهاد ، وبلغت نبرات صوته مسامع أمه وهو يؤدي التحية للحسين ، وكانت عادة أصحابه أن يسلموا عليه قبل المبارزة . ووقفت المرأة تنظر ولدها وهو يتقدم للموت راجلاً وهو صبي لم يبلغ الحلم . وانه لموقف عظيم ومنظر مؤلم .

انها وقفت بين العقيدة والعاطفة ،وانه لصراع حاد مؤثر ،فانتصرت

العقيدة . وإذا بها تتحفز لشد عضد ولدها ولترافقه الى المعركة جنباً الى جنب لتثير فيه روح الحماس ، وتلهب قلبه بالبطولة . زحفت نحوه وبيدها عمود الخيمة وهي كاللبوة الهائجة وتقول :

اني عجوز في النسا ضعيفه   خاوية باليـــة نحيفـــه

أضربكم بضربة عنيفه   دون بني فاطمة الشريفه

وقبل أن تصل الى المعركة وتلتحق بولدها ، استقبلها رأس ولدها يتدحرج ، فقد قتلوه ورموا برأسه نحو الحسين ، ففتحت ذراعيها مرحبة به وحملته والدماء تسيل من منحره ، فمسحت الدم

يا لهول المنظر وفداحة الوقع ! فأسرع اليها الحسين وردّها الى المخيم تاركة رأس ابنها بين أعدائه يتحكمون فيه لأنها رمت فيه رجلاً منهم فاصابته .

* * *

أما بقية النساء فكنّ على وجل ، وما من واحدة منهن إلا ونظرت بعينيها مصرع من تتكل به من زوج عطوف أو أب رءوف أو ولد بار أو ذي رحم ماسة.

وربما تضاعفت المصائب ، وتتابعت الأحزان بتعدد مصارع الأحبة نصب أعينهن ، ولكن الصبر والسلوان كان أقوى من العطف والحنان.

ولما برز عبد الله بن عمير الكلبي وقتل يساراً مولى زياد وسالماً مولى عبيد الله ، وهما من شجعان الكوفة كان يرتجز ويقول :

إن تنكروني فانا ابن الكلب حسبي بيتي في عُلـيم حسبي
اني امرء ذو مرة وعصب ولست بالخوار عند الحرب
اني زعـيم لك أم وهب بالطعن فيهم مقدماً والضرب
ضرب غلام مؤمن بالرب [1]

وأم وهب هي زوجته ، برزت لساحـة الحرب تشجع زوجها وتنادي : قاتل ، فداك أبي وأمي ، دون الطيبين ذرية محمد .

وأخذت بيدها عموداً من خيمة ، وهي كلبوة الأسد تهـدر بصوتها ، وانها على وعي في اداء رسالة زوجها وجهاده في نصرة الحق والدفاع عن حماته .

وهنا يحاول زوجها أن يرجعها لتعود نحو النساء ، فـأخذت تجاذبه ثوبه ثم قالت له :

لن أدعك دون أن أموت معك [2] .

ولم يتمكن من إرجاعها لأن يده اليمنى جمد عليهـا الدم ، فلزمت بالسيف ، ويساره مقطوعة أصابعها ، فلم يستطع ردهـا ، فاستنجد

---

(١) الحماسي شعر الحرب في ادب العرب .
(٢) المصدر السابق .

بالحسين فجاء اليها وقال : جزيتم من أهل بيت خيراً فإنه ليس على النساء قتال[1] .

ولما قتل زوجها وقفت عليه تؤبنه عن عقيدة صادقة وتقول : أسال الله الذي رزقك الجنة أن يصحبني معك .

فعظم ذلك على شمر بن ذي الجوشن ، فامر غلامه رستم أن يقتلها ، فضربها بالسيف حتى ماتت .

وهكذا يؤدي اولئك الأبطال واجبهم بصمود أمام التيارات الملحدة دفاعاً عن الإسلام ، وقد انحسرت عن نفوسهم كل عوامل حب البقاء ، وترفعوا عن الانحطاط في مهاوي هلكة الاندفاع وراء تيارات شهوات النفس ، فنالوا رضا الله ، فهم أولياؤه وأحباؤه ، وبقيت صفحة سيرتهم بيضاء ناصعة ، لا يدنو اليها الدنس ، فكانوا مضرب المثل في الشجاعة والإقدام وصدق النية .

ووقف عليهم الحسين وهم صرعى في ميادين الجهاد ، وقام يناديهم واحداً بعد واحد إعلاء لشأنهم ، واعتزازاً بمواقفهم يؤبنهم بكلماته الخالدة التي مرت مع مرور الزمن وتعاقب الأجيال ، وهي تعطي صورة واقعية عن تلك الصفوة التي لازمته في جميع مراحل النهضة الراهنة ، وقد خيرهم بين الحياة والموت ، فكان اصرارهم على اختيار الموت مع

---

(١) ابصار العين ١٠٦ وابن كثير ١٨٦/٨ .

الحسين على رغد الحياة ، أعظم مثل للمخلصين من رجال الدعوة الى الله ، ورجال الاصلاح في الامة .

* * *

لقد خطبهم الحسين عدة مرات وهو يفتح أمامهم أبواب الحياة ، وفسحة الأجل وقال :

«أما بعد فقد نزل بنا من الأمر ما قد ترون ، وأن الدنيا قد تغيرت وتنكرت ، وأدبر معروفها ، ولم يبق منها إلا صبابة كصبابة الإناء ، وخسيس عيش كالمرعى الوبيل ، ألا ترون الى الحق لا يعمل به ، والى الباطل لا يتناهى عنه ، ليرغب المؤمن في لقاء الله محقاً ، فاني لا أرى الموت إلا سعادة ، والحياة مع الظالمين إلا برما».

وهنا يتقدم أولئك الأبطال ليعربوا للحسين عما صمموا عليه من التضحية معه ، والفداء دونه ، فقال زهير بن القين :

سمعنا ياابن رسول الله مقالتك ، ولو كانت الدنيا لنا باقية ، وكنا فيها مخلدين ، لآثرنا النهوض معك ، على الاقامة فيها .

وقال برير بن خضير :

ياابن رسول الله لقد منَّ الله بك علينا ، ان نقاتل بين يديك ، تقطع فيك اعضاؤنا ، ثم يكون جدك شفيعاً لنا يوم القيمة .

وقال نافع بن هلال :

سر بنا راشداً معافى مشرقاً ان شئت أو مغرباً ، فوالله ما اشفقنا من قدر الله ، ولا كرهنا لقاء ربنا ، وانا على نياتنا وبصائرنا ، نوالي من والاك ونعادي من عاداك [1] .

هكذا جسد هؤلاء القادة صدق العزيمة، واخلاص النية في الجهاد ، بهذا السلوك الذي يصور للانسان أجلى صورة ، عن اختيار الموت حفظاً على الكرامة ، ونبذ الحياة وان كانت دائمة ، وكلما اشتد الموقف ، وتضاعفت مشاكله ، زادهم إيماناً وهم يستبشرون .

* * *

انهم قابلوا فئة استولى الشيطان على قلوبهم ، وملك مشاعرهم ، فاندفعوا مع التيارات المنحرفة ، فكانوا يسيرون على غير هدى ، معصبة عيونهم فهم لا يهتدون .

ولقد عظم على الحسين ما حل بهم من بلاء ، وحاول أن يرفع عن العيون ما يحجب عنها النور ، ويزيل ظلمة الخداع والتضليل ، ولكن لم يجد نفعاً إلا مع قليل بدأ رد الفعل يعمل في نفوسهم ، فتيقظت ضمائرهم ، وارتفعوا عن ذلك المستوى المنحط ، وفتحوا عيونهم على

---

(١) المصدر السابق .

مساوىء ذلك السلوك ، الذي ساقهم إليه استسلامهم للدعايات المضللة ، فتحولوا عما كانوا عليه :

فمنهم من التحق به بعد أن أدركتــه الهداية قبل نشوب القتال ، وأدى ما عليه ومضى شهيداً مع تلك الصفوة التي رافقت الحسين .

ومنهم من التحق به بعد أن وقعت الحرب ، وهناك رفع الغشاوة عن عينيه ، فسلك طريق النجاة ، إذ وجدوا أنفسهم أمام الواقع وجهاً لوجه ، واتضحت الحقيقة أمام أعينهم ، فلا يمكنهـم إلا التسليم أمام الواقع ، والاعتراف بالحقيقة .

* * *

ان ذلك الانحراف الذي تمثل في جيش الكوفة فسيطر على الأكثرية منهم حتى أصبح من المستحيل رفع تلك الغشاوة فيتحرروا مما سيطر على شعورهم ، ووجدانهم ، ليبعث على الدهشة والاستغراب ، من تحكم تلك السيطرة بمؤثرات لم يتمكنوا من الانفصال عنها ، وتحرير انفسهم منها ، وقد تجلت الحقيقة ، وبدا الواقع للعيــان ، مما لا يمكن التغاضي عنه ، بما أظهره الحسين في معالجته المشكلة .

وإذا كان هناك نوع من التفكير فلا بد أن يحسبوا لما يعــود عليهم باسوأ النتائج ، ولأن كانت الدعايات النشطة أو السياسة تحول المجرى الى ما ترتأيه ، فلا بد هناك من مراعاة الموازين ، التي تسند ذاك التحول وإن كان عكس ما يقتضيه الواقع .

وهنا في ساحة معركة الطف عندما تقدم الرجال منهم للموت ، فهل حسبوا لهذه التضحية من حساب ، وكيف استطاع شيطان السياسة أن يبرز تلك الأعمال الإجرامية في إطار الدين ؟

وكيف استطاع التضليل أن يصل بالعقول الى حد غـــير معقول ، عندما أوجد من يزيد حاكماً شرعياً ، وخليفـة مسلمـاً ، يوجب الشرع طاعته ، وأن حرب الحسين كان من الفروض الدينية .

ولنضع صورة من ذلك لنرى كيف أثر الضلال اثره في أدمغة اولئك القوم الذين حملوا راية الضلال وهم يظنون انهم على الحق .

فهذا أحد قواد المعركة يتقدم لاصحابه ويدنو من أصحاب الحسين وهو ينادي : يا أهـل الكوفة الزموا طاعتكم ، وجماعتكم ولا ترتابوا في قتل من مرد عن الدين ، وخالف الامام .

فقال له الحسين (ع) : يا عمر بن الحجاج اعليّ تحرض الناس ، انحن مرقنا ، وانتم ثبتم !! اما والله لتعلمن لو قد قبضت أرواحكم ومتم على اعمالـكم اينا مرق من الدين ومن اولى بصُلي النار [1] .

وتقدم رجل الى الحسين فقـــال : يا حسين يا حسين ، فسكت ، فأعادها ثالثة ، فقال الحسين : قولوا له نعم . فما حاجتك ؟

---

(١) الطبري ٦/٢٤٩ .

فقال: يا حسين ابشر بالنار فقال له الحسين (ع):
كذبت انما اقدم على رب غفور مطاع،
فمن أنت: قال ابن حوزة.
فرفع الحسين يده فقال: اللهم حزه إلى
النار:
فغضب ابن حوزة فذهب ليقحم اليه الفرس
فعلقت قدمه بالركاب، فالقطعت فخذه.
وساقه وقدمه وبقي الجانب الآخر معلقاً
بالركاب.

وهذه الصورة من النقمة العاجلة كانت سبب نجاة بعض الحاضرين
ن الاشتراك في المعركة وانعزال القتال [1].

ولما قتل عمر بن قرضة مع الحسين وكان أخوه مع ابن سعد فنادى:
يا حسين... أضللت أخي حتى قتلته قال:
ان الله لم يضل أخاك ولكنه هداه واضلك.
قال: قتلني الله ان لم اقتلك أو أموت دونك،
فحمل عليه فاعترضه نافع بن هلال المرادي
فطعنه وصرعه فاستنقذه اصحابه فعولج
بعد وبرئ [2].

ولما طلب أصحاب الحسين إيقاف القتال لكي يؤدوا الصلاة،
ناداهم الحصين بن تميم: انها لا تقبل منكم.

---

(١) المصدر السابق.
(٢) المصدر السابق ٢٤٨.

فقال له حبيب بن مظاهر : زعمت ان الصلاة لا تقبل من آل رسول الله وتقبل منك ...

الى غير ذلك من صور الشذوذ في الاعتقاد والانحراف في السلوك ، وهكذا تمرّ هذه المرحلة بعجائب وغرائب من جميع جهاتها ، وفي كل أحداثها ومجرى حوادثها ، والقضية لم تكن من الأمور المرتجلة بل هي ذات تخطيط مسبق وعوامل اتخذ لها ألف حساب .

* * *

ونستطيع أن ندرك مدى التغاضي عن رؤية الواقع ، والتحدي لمعالم الحقيقة ، عندما نجد من أُولئك المتمردين من يعيش على مائدة الأطماع ، ويندفع في تيار الانتهازية .

وأبرز مثال يظهر في شخصية لها أثرها في ذلك المعترك ، وهو شبث بن ربعي ، فقد تثاقل عن الخروج لحرب الحسين ، ولكنه امتثل أمر ابن زياد ، وتوجه مع جيشه وهو يعرف الحق فقد صرح بقوله :

لا يعطي الله أهل هذا المصر خيراً أبداً ، ولا يسددهم لرشده ، ألا تعجبون أنا قاتلنا مع علي بن أبي طالب ومع ابنه من بعده آل أبي سفيان خمس سنين ، ثم عدونا على ابنه وهو خير أهل الارض نقاتله مع آل

معاوية وابن سمية الزانية ، ضلال ويا لك من
ضلال !! [1]

وكثير أمثال شبث، ولكنه الشخصية التي امتازت بالتحول والتقلب، فقد كان ممن أسلم ثم ارتد ، وأصبح مؤذنا لسجاح ثم عاد للاسلام ، واشترك مع الثائرين على عثمان ، وحضر مع علي في صفين ، ثم شارك الخوارج في حروبهم ، وكان ممن كاتب الحسين ، ثم انضم لابن زياد واشترك في حرب الحسين ، ثم كان مع المختار ، وتحول إلى ابن الزبير ورافق مصعب ابن الزبير في حربه للمختار [2] .

ولما قتل مسلم بن عوسجه تنادى أهل الكوفة فرحاً ، قتلنا مسلم بن عوسجة ، فقال شبث بن ربعي لمن حوله من أصحابه :

ثكلتكم امهاتكم انما تقتلون انفسكم بأيديكم
وتذللون أنفسكم لغيركم ، تفرحون أن يقتل
مسلم بن عوسجة . !!
أما والذي اسلمت له لرب موقف له رأيته
في المسلمين كريم ، لقد رأيته يوم سلق
آذربيجان قتل ستة من المشركين قبل أن
تلتأم خيول المسلمين ، فيقتل مثله
وتفرحون [3] . ؟!!

---

(١) تاريخ الامم والملوك ٦/ ٢٥٠
(٢) التهذيب لابن حجر .
(٣) الطبري ٦/٢٤٨ .

وكثير من أمثال شبث بن ربعي ممن غُلب على دينه واستسلم لأطماعه وهواه ، فرضي بالالتحاق بجيش ظلوم يتحرك في طاعة أعداء الله ، وحرباً لأوليائه .

إنهم يقاتلون ، وفي سبيل من يقتلون أنفسهم ، أدفاعاً عن بلد هاجمه عدو ؟ أم عرض تعرض لهتك ؟ أم مال مهدد بالنهب ؟

لماذا وفي سبيل ماذا ؟؟

إنه في سبيل باطل يرونه رأي العين ، وفي سبيل اسطورة تُسمى خلافة يزيد .

« ومن العجب ، كما يحدثنا التاريخ ، أنهم خرجوا لجريمتهم بعد أن صلى بهم قائدهم صلاة الصبح ..!! أصحيح أنهم صلوا وقرأوا في آخر صلاتهم ، اللهم صل على محمد وعلى آل محمد ..؟ » إذن ما بالهم ينفلتون من صلاتهم ليحصدوا بسيوفهم آل محمد[1] .

* * *

وقبل أن نلتقي مع الطالبيين في حملتهم الجماعية ، عندما وقع عبء المعركة عليهم ، نود أن نشير إلى الخلاف بين المؤرخين في حصر عدد أصحاب الحسين ، فقد اختلفت أقوالهم لاختلاف الروايات. فمن قائل :

---

(١) الرسول في كربلا ١٦٠ .

انهم نيفاً وسبعين ، وآخر : انهم أكثر من ثمانين وأقل من المئة ، هذا ما عدا أهل بيته .

والواقع الذي تمليه علينا ظروف الحادث ، وواقع الأمر في مسيرة النهضة ، أن العدد كان أكثر ؛ لأن الحسين قدم من مكة ومعه جمع من الناس يسايرون ركبه ، وفيهم من كانت مرافقته منوطة بنتائج نجاح الدعوة في الكوفة ، وليس في نيته التضحية ، إن اقتضى الأمر ذلك .

ومنهم من هو مصمم على الموت مع الحسين لأنه آمن بـه ايماناً صادقاً ، فوطن نفسه على التضحية في سبيله .

وقد أجرى (ع) التمحيص في زبالة حين علم بمقتل سفيره مسلم بن عقيل فكشف الامر ليظهر ما انطوت عليه ضمائر الجميع فقال :

« اما بعد فقد أتانا خبر فظيع : قتل مسلم بن عقيل وهاني بن عروة ، وعبدالله بن يقطر ، وقد خذلتنا شيعتنا ، فمن أحب منكم الانصراف ليس عليه منا ذمام[1] .

فتفرق عنه كل من لم يصمم على تحمل الكوارث التي تعترض سبيل الثورة ، وهؤلاء هم غير الذين التحقوا بالحسين ورافقوه حتى آخر لحظة من حياتهم .

وما ورد على لسان بعض الرواة تعقيباً على ما ذكر آنفـاً : من كشف الحسين الحالة للناس وجعل الاختيار اليهم في الانصراف وفي البقاء.

---

(١) الطبري ٦/٢٢٦ .

فقالوا : وتفرق الناس عنه حتى بقي في أصحابه الذين جاءوا معه من المدينة .

وهذا خلاف الواقع فان جملة ممن التحق بالحسين في الطريق أو الذين رافقوه من مكة لم يتفرقوا عنه ، بل واصلوا مسيرتهم وبذلوا نفوسهم حتى آخر قطرة من دمائهم امثال : زهير بن القـــين وعابس بن شبيب وبرير بن خضير الهمداني وغيرهم .

* * *

وعلى أي حال فالمصادر التي تحدثنا لم تكن مجمعة على احصاء واحد فالمسعودي في مروجه وهو أقدم مصدر يقول :

عدل الحسين إلى كربلا وهو في مقدار خمسمائة فارس من أهل بيته وأصحابه ونحو مائة راجل [1] .

ومصادر أُخرى ذكرت أن ستين شيخاً من أهل الكوفة رافقوا ركب الحسين [2] ليوصلوه الى الكوفة وبعد أن تبدل الوضع لم ينفصل منهم احد بل قتلوا كلهم معه .

وهناك جماعة التحقوا به أثناء المعركة بعـــد أن التحق الحر هو وأخوه ، وولده ، ومولاه وكان عدد هؤلاء يربو على الثلاثين .

---

(١) ٣/٧٠ .

(٢) ابن عساكر في تاريخه الكبير خط .

كما ان جماعة تسللوا من عسكر ابن سعد والتحقوا بالحسين ، ومنهم ابو الشعثاء وجماعة آخرين ، وقد أحصى العلامة السيد الامين عدد من عرف من اصحاب الحسين (ع) بـ (١١٤) .

والعلامة المعاصر السيد ابراهيم الزنجاني ذكر منهم عدداً يربو على ثلثمائة بتراجمهم وعشائرهم [١] ولعل سرعة اللحاق وحراجة الموقف لم يسمحا للتعرف على من انكشف له الزيف الديني الذي موه به الامويون على الناس ، فاثار عندهم الشعور بالاثم مما ارتكبوا في مقابلة أهل البيت ، فالتحقوا بالحسين ليتداركوا انفسهم من خطر ما ارتكبوه فكان نصيب اكثرهم أن يهمل اسمه ولم يثبت في سجل تاريخ الشهداء .

ولعل ذلك عن قصد متعمد من قبل السلطة عندما قدمت لهم قوائم الجيش المفقود لنيل الجائزة أو التعويض عن حياتهم لأهلهم .

وان الموقف مهما رافقه من عوامل التمويه والدجل والخداع ، فانا لا نطمئن إلى الاقوال التي تجعل ذلك المجتمع خالياً ممن يشعر بالاثم ، ويتحسس بقبح العمل .

واذا كان المجتمع الكوفي قد خضع لسلطة الارهاب عندما اصبحت القيادات بيد الذين يعيشون على موائد الدولة ، فهو لا يخلو من عوامل تبعث بعض الافراد على الشعور بالاثم ، اذ يتقاعدون عن نصرة الحسين بعد أن

---

(١) وسيلة الدارين في انصار الحسين خط .

وعدوه النصرة ، وعاهدوه على الثورة كما فعل البعض في الخروج اليه متكتماً فالتحق قبل بدء القتال .

وعلى أي حال فالموضوع بحاجة إلى بحث شامل موسع يكشف بعض الحقائق التي نحن بحاجة الى معرفتها .

الطَالبِيُّون

ووقع عبء المعركة على أهل البيت من أبناء علي ، وجعفر وعقيل .

ودارت رحى الحرب على الصفوة من الطالبيين ، عندما خلى الميدان من الفتية المجاهدين دونهم ، بعد ذلك الموقف الذي سجلوا فيه دروساً للأجيال في الولاء لأهل البيت ، والتضحية للحق الذي وجب عليهم أن ينصروه .

لقد خاض أهل البيت معركة ضارية ، تستعر نارها بصلابة ايمان ، ونفاذ بصيرة ، وثبات عزيمة ، ورفعوا شعار الجهاد في سبيل الله ، والدفاع عن دينه .

إنهم فتية ما على وجه الأرض لهم من مثيل ، في شرف النسب وطيب المحتد .

استعرت نار الحرب ، وتتابعت جيوش ابن زياد وأوامره المشددة في المبادرة والسرعة ، للقضاء على الحسين وأهل بيته ، إن لم يستسلموا .

فاشتدت المضايقات من الجيش ، وأحاطوا بمعسكر الحسين من كل جانب ، فهذا يحاول أن ينهب رحله ، وهذا يريد أن يحرق فسطاطه ، وهو في سبعة عشر من أهل بيته ، فتبادروا للحرب وحملوا حملة واحدة ، يشد بعضهم إزر بعض ، وهم كالصقور الكواسر ، والأسود الضارية .

* * *

لقد برز إلى الميدان أبناء علي وهم : عبدالله وجعفر وعثمان ، وقال

لهم أخوهم الأكبر العباس بن علي : تقدموا يا أبناء أُمي .

* * *

إنهم أشقاء من أُم وأب ، أبوهم علي بن أبي طالب ، وأُمهم فاطمة بنت حزام الكلبية ، المعروفة بأُم البنين .

وكان أكبرهم سناً وأعلاهم شأناً هو أبو الفضل العباس ، ولقد كان في يوم الطف مضرب المثل في البطولة والاقدام ، وهو حامل اللواء ، ويقود المعركة في جميع مراحلها ، يراقب حركة الجيش وسير القتال .

وقد أمر اخوته أن يتقدموا أمامه فقال : تقدموا يا أبناء أُمي حتى أراكم نصحتم لله ورسوله ، وأحتسبكم عند الله .

فتقدم أولاد علي في طليعة الصفوة من آل أبي طالب في تلك الحملة.

ومن المناسب هنا أن نشير الى ما ذكره الاسفرائيني ، في كتاب نور العين في مشهد الحسين ص ٢٤ :

ان الحسين قام ينادي واغوثاه بك يا الله ، فخرج من الخيمة غلامان احدهما ابن العباس ، والثاني اخوه القاسم ، وحملا . ويصف حملتهما ويذكر لهما أراجيز ، وأن القاسم قتل ثمانمائة رجلاً ، وأخوه ـ الذي لم يذكر المؤلف اسمه ـ قتل مائتين وخمسين ثم قتلا .

وهذا أمر ينفرد فيه الاسفرائيني ، إن صحت نسبة الكتاب اليه ؛ لأن هذا الكتاب هو من وضع القصاصين ـ على ما أعتقد ـ الذين هاجموا

المجتمع الاسلامي بالأباطيل ، وملأوا الأدمغة من الخرافات ، وقد ورد في هذا الكتاب مما يناقض الحقيقة ويشوه وجه حادثة الطف الناصع .

والاسفرائيني وهو من كبار علماء الشافعية ومن المبرزين فنسبة هذا الكتاب اليه غير صحيحة ؛ لأنه يضم وقائع لم تقع ، ويصف حوادث لم تحدث، وهو من الكتب التي قصد واضعوها أن يحطوا من مقام الحسين، ويرفعوا مقام معاوية وابنه كما جاء في مقدمته : ان الحسين وأخته زينب تربيا في بيت معاوية ، الى آخر تلك الأساطير ومن الغرابة بمكان أن يعاد طبع هذا الكتاب في بغداد من دون التفات لما فيه من نقص .

* * *

علي الأكبر

وأول قتيل من الطالبيين هو أبو الحسن علي بن الحسين الأكبر ، ولد في حدود سنة ٣٣ من الهجرة .

أُمه ليلى بنت أبي مرة ،ابن عروة بن مسعود الثقفي ، أُمها ميمونة بنت أبي سفيان بن حرب بن أُمية ، وقد أحاط الغموض في تاريخ وفاتها ، فلم يفصح عن السنة التي توفيت فيها ، فهل كانت قبل واقعة الطف أو بعدها .

ولُقّب علي بالأكبر لأنه أكبر أولاد الحسين ، كما نصّ على ذلك أكثر علماء النسب وكتّاب السير .

وكان يشبه رسول الله في خَلقه، وخُلقه ومنطقه ، كما اوضح الحسين ذلك ، عندما برز علي ، رفع يديه إلى السماء ، وقال :

اللهم اشهد عليهم انه برز اليهم غلام أشبه الناس خَلقاً وخُلقاً ، ومنطقاً برسولك ، وكنا اذا اشتقنا الى نبيك نظرنا اليه [1] .

وهذه الكلمات تعبر عن حزن عميق مما حل بالحسين من هذه الكارثة ، كما أنه يريد أن يعري من يدعي الصلة برسول الله بذلك المجتمع ، فان هؤلاء الذين يدعون انهم من أتباع محمد ، كما غرر بهم دعاة السوء ، فها هم اليوم يجتمعون على حرب ابن محمد ، ويشرعون سهامهم وسيوفهم ليقتلوه ، ويتقدم لهم الآن من يشبه رسول الله ، في

(١) مقاتل الطالبين ص ٥٦ .

خُلقه وخَلقه ، ومنطقه ، كما أن في جمعهم من يعرف ذلك ، وأراد أن يعريهم عن كل ما يدعونـه ، وهو على طول خط المعركة ، ومنذ بداية مسيرة النهضة كان شانه إيضاح الحال ، لتوجيه ذلك الركب السائر في ظلام الوهم ، والذي حدى فيه غير حاديه .

* * *

تقدم علي الاكبر ، وهو في نضرة شبابه ، وحسن طلعته ، يمتطي فرساً يدعى ذو الجناح ، وهو يرتجز ويقول :

انا علي بن الحسين بن علي نحن ورب البيت أولى بالنبي
والله لا يحكم فينا ابن الدعي [1]

فهو عليه السلام في رجزه يعبر باوضح تعبير عن تقرير مصير معركة الإباء ، فيحدد الموقف ، وانه لا سبيل الى ما طلبه القوم منهم ، وما تحكمه الظروف القاسية عليهم ، فهم أقوى من ذلك ، وأمنع جانباً من الخضوع ، لما تفرضه عليهم الحوادث ، والظروف وهو بهذا الشعار يقطع على من يحاول أو يامل في الاستلام .

ويمضي علي الاكبر في جهاده ، ودفاعه عن كلمة الحق ، بعد أن قتل ابطالهم فبصر به مرة بن منقذ فقال : عليّ آثام العرب إن مرّ بي هذا لأثكلن به اباه ، فمر به علي الاكبر ، وهو يشد على

---

(١) الحافظ النيسابوري الروضة ج ١ ص ١٨٨ .

القوم ، وهم ينهزمون بين يديه، فاعترضه مرة بن منقذ فطعنه ، وصرع واحتوشه الناس فقطعوه بأسيافهم[1] .

* * *

ووقف عليه أبوه الحسين بتلك الحالة ، فأبّنه بكلمة ، ذهبت مثلاً لأعظم ما يتصور من عظمة الموقف،وسموّ الهدف،وهي تعبر عن أقصى ما يتصور من تحمل النكبات ، والصبر ، أمـــام الكوارث ، طلباً لمرضاة الله ، ورغبة لإعلاء الكلمة .

قال الحسين مخاطباً ولده وهو مسجى أمامـه ، وقد ألبسته الدماء حلل الفخر :

« لقد هوّن عليّ ما نزل بك يا بني ، أنه بعين الله » .

ثم أمر فتيانه أن يحملوه ، فحمله آل أبي طالب من المعركة ، وهو مقطع ارباً ارباً .

---

(١) الطبري ج ٦ ص ٢٥٦ ، وابن الاثير ج ٤ ص ٣٢ .

آل الحسن

أما آل الحسن عليهم السلام ، فهم الحسن بن الحسن المعروف بالمثنى ، والقاسم بن الحسن ، وأبو بكر بن الحسن ، وعبد الله ابن الحسن .

وأكبرهم سناً الحسن المثنى ، حضر واقعة الطف وجاهد جهاد الأبطال ، وسقط جريحاً في المعركة وفيه رمق من الحياة ، فحماه اسماء ابن خارجة من وطيء الخيول لجسده وحمله ، فعالجه وبرىء ، ثم لحق بالمدينة وعاش الى سنة ٩٧ هـ .

وأمه خولة بنت منظور بن سيار بن عقيل بن هلال بن سمي بن غالب بن فزاره ، ومن هذا كانت القرابة والخولة لأن خولة فزارية ، ولهذا قال عمر بن سعد عندما شفع اسماء بن خارجة للحسن : دعوا لابي حسان ابن اخته .

وتزوج الحسن فاطمة بنت الحسين ، وولدت له ثلاثة أولادهم : عبدالله بن الحسن [1] ، وابراهيم بن الحسن ، وكلهم أعقبوا ذرية طيبة .

---

(١) عبدالله فهو المعروف بالمحض قتله المنصور بالسجن بالهاشميات واعقب ستة اولاد محمد وابراهيم وموسى الهادي وادريس وسليمان ويحيى .
ومحمد هو ذو النفس الزكية العلوي الثائر ومن له البيعة في الابواء وذلك في الاجتماع السرّي الذي عقده العلويون والعباسيون حول انبثاق الثورة وقد=

القاسم بن الحسن :

هو أكبر أخويه الشهيدين أبو بكر وعبدالله ، وكان الحسين يحبه حباً شديداً .

ولقد حاز فخر البطولة والاقدام، واصبح مضرب المثل فيالشجاعة، وتقدم للحرب فيذلك اليوم ، وقد وصفه أحد مشاهدي الموقف بقوله :

برز إلينا غلام في يده سيف وعليـــه قميص وأزار ، وفي رجليه نعلان ، فمشى يضرب بسيفه ، فانقطع شسع احدى نعليه ، لا أنسى انها كانت اليسرى، ووقف ليشدها، فقال عمرو بن مسعدة بن نفيل الأزدي : والله لأشدن عليه فقلت له : سبحان الله ، ومـا تريد بذلك ، يكفيك

= بايعه المنصور والسفاح ولكنهم نقضوا بيعته وحارب الدولة العباسية فقتل لأربع عشرة ليلة خلت من شهر رمضان .

وابراهيم بن عبدالله بن الحسن هو الذي ثار في وجه المنصور وقاد جيشاً لحربه وناصرهالفقهاء وكاد المنصور أن يهزم أمامه وقارب ابراهيم الفتحوانتصر عدة مرات على جيش المنصور ولكن عاجله الاجل فقتل لخمس بقين من ذي القعدة .

وأما أبو عبد الله موسى المعروف بالجون فانه توجه لمكة بعد قتل أخويه محمد وابراهيم واختفى هناك الى أن أمنه المهدي، ولموسى الجون ذرية أصبحوا أمراء مكة المكرمة في القرن الثالث والرابع الهجري .

وأما أبو محمد يحيى بن عبدالله بن الحسن صاحب الديـــلم مات في حبس الرشيد ببغداد وقالوا انه وجد ببركة عاضاً على حمئة وطين ومات جوعـــاً وقيل أن الرشيد بنى عليه اسطوانة فقتله وقيل انه حبسه في دار السندي بن شاهك في بيت فيه نتن وردم الباب عليه حتى مات .

قتله هؤلاء الذين احتوشوه من كل جانب ، فقال : والله لأشدن عليه ، فما ولى حتى ضرب رأس الغلام بالسيف ، فوقع لوجهه وصاح : يا عماه، قال : فوالله لجلى الحسين عليه كما يجلي الصقر ، ثم شد شدة الليث إذا غضب ، فضرب عمرواً بالسيف فاتقاه بساعده ، فاطنها من لدن المرفق، ثم تنحى عنه فحملت خيل ابن سعد ليستنقذوه من الحسين ، فاستقبلته بصدورها ، فجالت فوطئته حتى مات .

* * *

أما عبدالله بن الحسن بن علي ، قتل في معركة الطف بدون قتال لأنه صغير السن ، برز عندما رأى عمه أحاط به القوم، ووقف الى جنبه ولم يمتنع عن ذلك ، وقال : والله لا أفارق عمي ، وأهوى بحر بن كعب الى الحسين بالسيف ، فقال له الغلام : ويلك يا ابن الخبيثة ، أتقتل عمي؟ فضربه بحر بالسيف فاتقاه الغلام بيده ، فاطنها إلى الجلد ، فاذا هي معلقة ، وقد لفظ أنفاسه الأخيرة في حجر عمه الحسين عايه السلام .

* * *

أما أبو بكر بن الحسن بن علي فقتل يوم الطف ، قتله عقبة الغنوي واياه عنى سليمان بن قته بقوله :

وعند غني قطرة من دمائنا سنجزيهم يوماً بها حيث حلت

تزوج عبدالله الأكبر المكنى بابي بكر بالسيدة آمنة بنت الامام

الحسين عليه السلام الملقبة بسَكينة ، لقبتها بذلك أمهـا الرباب ، لما اتصفت به من الهدوء والآداب ، وكانت من المتعبدات وتتصف بالأخلاق الفاضلة ، وكانت تحظى برعاية أبيها الحسين ، لعبادتها ، ونسكها ، وقد خصها بمزيد عناية مما يدل على عظيم منزلتها وعلو شأنها .

شهدت السيدة سكينة واقعـة الطف ، وعاشت مع أحداث تلك المأساة ، وتجرعت مرارة آلامها ، بحلاوة الايمان ، وثبتت أمام النوائب بقوة العقيدة وسمو المبدأ ، وقد ساهمت في نشر أهداف الثورة .

قُتل زوجها عبدالله بن الحسن بين يدي عمه الحسين .

ووقفت السيدة سكينة الى جانب عمتها زينب تشاطرهـا الأسى، وتشاركها في الجهاد لنشر الدعوة [1] .

---

(١) موضوع البحث عن حياة سكينة يستلزم البسط والايضاح لما أُحيط بتاريخ حياتها من أُمور لا ترتبط بواقع الحال لانها استهدفت لحملة ظالمـة ، وتحامل شائن من أعداء آل محمد (ع)، فاهمل المؤرخون الرسميون ذكر كثير من مواقفها المشرفة ، ذات المغزى المشرف .

كما تعمد من تربطه أواصر النسب بالامويين ، فأورد في سجل التاريـخ أموراً مفتعلة ، وأكاذيب منحولة بل هي أساطير سمر في ليـالي الشتاء ، وحكايات هي من وحي الخيال والتي صيغت بعبارات جذابة ،شارك فيها كل من يحاول الوقيعة بآل الرسول ، وكان ابرزهم في هذه الحملة ، واشجعهم في هذه الجولة ، هو الزبير بن بكار ، أحد أجهزة اعلام الباطل وهو المعروف باختراع القصص ووضع الاحاديث ، ونشر الخرافات . =

آل عقيل

وتقدم آل عقيل بعد أن صرع علي الأكبر ، ووقفوا أمام الحسين وقد هاجت أحزانهم ، والتهبت قلوبهم بناره .

وقفوا أمام الحسين يعزّونه ، ويسلمون عليه ، ليتقدموا للقتال مع الفتية من آل أبي طالب ، الذين تقدموا وكل منهم لا يهاب الموت ، ولا يحسب للحياة حساباً ، بثبات قلب ، ورباطة جاش ، وليس في الموقف أمر آخر إلا التضحية ، وتقدم عبدالله بن مسلم وهو يقول :

اليوم ألقى مسلماً وهو أبي وعصبة ماتوا على دين النبي

وتبعه أخوه محمد بن مسلم ، وتقدم أعمامه أولاد عقيل : عبدالرحمن ابن عقيل ، وجعفر بن عقيل ، وعبدالله بن عقيل ، وقتلوا بأجمعهم بين يدي الحسين (ع) .

= ولا يختلف اثنان بان الزبير بن بكار كان من أشد الناس عداء لاهل البيت.

وتناول أبو الفرج الاصفهاني تلك الخرافات فوسع الدائرة، وتزيد واختلق.

وأبو الفرج الاصفهاني هو ذلك الأموي في النسب والنزعة ، وتلقف تلك المفتريات اناس مأجورون ، يعيشون تحت الظلام ، من مستشرقين وتلامذتهم ، فكانت هناك مجموعة مفتريات وأكاذيب حول سيرة هذه السيدة الطاهرة .

وقد تسابق لرد هذه المفتريات جماعة من العلماء الاعلام والفوا كتباً قيمة ومع ذلك فالموضوع بحاجة الى مزيد من التحقيق وتسليط الاضواء لفضح تلك الاكاذيب ومحو تلك المفتريات .

أما محمد بن سعيد الأحول بن عقيل ، فانه قتل بعد أن سقط الحسين، وكان صغير السن[1] .

كما تقدم معهم أولاد عبدالله بن جعفر وهم : عون ومحمد .

* * *

وتكامل الطالبيون في حومة الوغى ، وكل في جهة قد انحاز بجماعة من المقاتلين يشد عليهم كالليث ، والعسكر يتجمع على كل واحد منهم .

وكان الحسين ينظر اليهم وهم وسط الجموع،ويلازمه أخوه أبوالفضل العباس ، وهو يراقب سير القتال ، ويرعى المقاتلين ، فاذا تجمعت الرجال على واحد منهم ، وجالت الخيل حوله ، حمل أبو الفضل وفرقهم عنه ، فهو دائماً الى جنب المقاتلين ، يشد عضدهم ويشجعهم لمواصلة الكفاح ، وإذا اشتدت هجمات القوم على معسكر الحسين ، عاد ليكشفهم عن المخيم .

* * *

لقد نزل الى الميدان صفوة آل محمد ، وهم سادة الهاشميين ومفخرة قريش وفرسان العرب ، وكل واحد منهم ، ببسالته وبطولته ، يتحدى جموع أهل الكوفة ، ويستهين بكثرتهم ، ولا يبالي بوحشيتهم ، فخاض

---

(١) الطبري ٦ / ٢٥٨ .

الطالبيون غمرات الحرب ، وثار النقع ، وجالت الخيل ، واستكت الأسنة ، وارتفعت الأراجيز ، وتتابعت القطعات المتفرقة .

هذه هي المعركة الحاسمة ، التي تدور رحاها في كربلاء بحملة جماعية، وقد جالت خيل الأمويين ، واشتركوا في الحرب ، فكانوا يتحسسون مواقع الفرص ، للقضاء على من ينفرد من تلك الفتية ، فحمل عبدالله بن قطبة على عون بن عبدالله بن جعفر ، فقتله .

وحمل عامر بن نهشل التميمي على محمد بن عبدالله بن جعفر فقتله .

وشد عثمان بن خالد الجهـني بمشاركة بشر بن سوط الهمداني على عبد الرحمن بن عقيل فقتلاه .

ورمى عبدالله بن عزرة جعفر بن عقيل بسهم فقتله [1] .

وشدّ هاني الحضرمي على عبدالله بن علي بن أبي طالب فقتله ، ثم شد آخر على جعفر بن علي فقتله وجاء برأسه .

ورمى خولى بن يزيد الأصبحي ، عـثمان بن علي بن أبي طالب بسهم ، ثم شد رجل من بني أبان بن دارم فقتله ، واحتز رأسه ، وجاء به الى عمر بن سعد ، فقال : أثبني، فقال عمر : عليك بأميرك يعني عبيدالله فسله أن يثيبك [2] .

---

(١) الطبري ج ٦ ص ٢٥٦ .

(٢) الدينوري الأخبار الطوال ص ٢٣٠ .

وكان ابن زياد في النخيلة يراقب الحركات ، وهو يترأس القيادة العامة .

وانتهت هذه الجولة بعد أن تساقط اولئك الفتية الابرار في حومة الوغى ، وعانقوا الشهادة في سبيل الحق ، وقد افرد الحسين في مركز دفاعه ، ولم يبق معه إلا حامل لوائه ، ومناصره الاول اخوه ابو الفضل العباس (ع) .

* * *

وحين انفرد الحسين تقدم ذلك البطل وهو يرفع شعار حماية الدين وأنه يموت دون مقدساته وها هو يشعر الاعداء برفع شعاره ، عندما قطعت يمينه اذ يقول :

والله ان قطعتموا يميني   اني احامي ابداً عن ديني

وعن امام صادق اليقين

ومن أجل هذا خاطبه الامام جعفر بن محمد الصادق (ع) بقوله عند زيارته :

لقد انتهكت في قتلك حرمة الاسلام ، فنعم الصابر المجاهد ، المحامي الناصر والاخ الدافع عن أخيه المجيب الى طاعة ربه ..

اذ المعلوم ان الشعارات العقائدية ، ترتبط بعظمة المبدأ والعقيدة ، فالاستهانة بالشعار انما هو استهانة بالمبدأ ، وتحدٍ لقدسيته وعظمته .

وحماية الدين من اعظم شعائره ، فالاستهانة بحماة الدين استهانة بالدين، وتعظيم شعائر الله من تقوى القلوب فمن لم يعظم شعائر الله لم يكن له من التقوى نصيب .

وجاء في زيارته : انك قد مضيت على ما مضى عليه البدريون والمجاهدون في سبيل الله، المناصحون له في جهاد أعدائه .
أشهد لقد مضيت على بصيرة من امرك ، مقتدياً بالصالحين ، ومتبعاً للنبي .
وقال الامام الصادق ايضاً :كان عمي العباس نافذ البصيرة صلب الإيمان .

* * *

وتقدم العباس(ع)للمعركة وهو فارسها المحنك وبطلها المشهور وكان صوته مجلجلاً وهو يهدر كالأسد وهو حامل لواء معركة الطف الخالدة واشترك في جميع حملاتها وكان الى جانب الحسين عندما يحمل في شدة المقابلة وتتابع الهجمات .

وقد أخذ العطش منه ماخذاً وقد جاء في وصفه بان قلبه كزبر الحديد من الظماء وتهون عليه كارثة العطش عندما ينظر الى مجتمع العائلة فيرى وجوهها مصفرة وشفاهها ذابلة واصواتاً قد بحت من البكاء والظما فقرر وهو في آخر مرحلة من مراحل الحياة ان يأتي لهم بالماء مهما كانت الموانع وشدة الحراسة ولكن المنية حالت بينه وبين تلك الأمنية عندما عاد من المشرعة حمل الجيش عليه وأعطى كل امكانياته

فكانت معركة حامية بينه وهو بمفرده وبين تلك الجموع وانجلت المعركة واذا به يتشحط بدم الشهادة مقطوعة يداه بعيداً عن مخيمه قرب نهر العلقمي حيث قبره الآن فسلام الله عليه ورحمته [1].

وخلت المعركة من أبطالها ، والميدان من اولئك البررة فها هي جثثهم موزعة ، والحسين ينظر اليهم ، وقد انفرد في ميدان كفاحه وهو فارس الحلبة ، وبطل النهضة ، وهو طلبة القوم وها هو معهم بمفرده وجهاً لوجه ، وليس له من يقف الى جنبه فقد ذهب احباؤه وانصاره واخوته شيوخاً وكهولاً وشباباً .

كما سجلت معركة الطف شهداء لم يكن مثلهم في تاريخ جميع الحروب ، فكما اشترك الشيوخ من صحابة ، وتابعين ، والشباب من أهل البيت وغيرهم ، كذلك اشترك الأطفال الصغار فقد سجل لهم التاريخ أعظم الأثر في تلك الآونة .

فهذا عبدالله بن الحسن عندما نظر الى وحدة عمه تقدم نحوه كما يصفه أحد مشاهدي المعركة بقوله :

خرج غلام يشتد وكأنه البدر ، وفي أذنيه درتان [2] فاهوى بحر بن كعب الى الحسين بالسيف فقال الغلام يا ابن الخبيثة أتقتل عمي ؟! [3].

---

(١) ولضيق المجال عن الإستمرار بالحديث عن مواقف هذا البطل وما يلزم من بيان حول شخصيته ومواقفه اقتصرنا على هذا القدر .

(٢) البداية والنهاية ج ٨ ص ١٨٦ .

(٣) الطبري ج ٦ ص ٢٥٩ .

إذ أهوى عليه بالسيف فرفع الغلام يده فضربه على يده فقطعها الى الجلد فاذا يده معلقة فنادى الغلام يا أبتاه . وفي رواية الطبرى يا أُمتاه، فأخذه الحسين وضمه الى صدره وقال :

يا ابن اخي اصبر على ما نزل بك . فان الله يلحقك بآبائك الصالحين . برسول الله ، وعلي بن أبي طالب وحمزة وجعفر والحسن ابن علي [1] .

والطفل في حجر عمه مغمى عليه،وكانت حالةمؤثرة وكارثة لايتحملها الا من امتحن الله قلبه للايمان ، وهنا توجه الحسين الى ربه رافعاً يده نحو السماء قائـــلا :

« اللهم أمسك عنهم قطر السماء ، وامنعهـــم بركات الأرض . اللهم فرقهم تفريقاً واجعلهم طرائق قدداً ، ولا ترض الولاة عنهم ابداً ، فانهم دعونا لينصرونا ثم عدوا علينا يقاتلونا [2] » .

كما يتقدم اصغر جندي اسلامي ، ليخوض معركة الصـــراع بين الاسلام وخصومه ، ويكون موقفه اعظم موقف شهدته الحروب ، وهو عبد الله الرضيـــع .

حمله ابوه الحسين عندما اشرف على الموت من العطش ، فتقدم فيه الى القوم ، وهو مصفر اللون ، من الظمأ .

---

(١) الطبري ج ٦ ص ٢٥٩ .

(٢) نفس المهموم للقمي ص ١٩١ ، اللهوف والطبري ج ٦ ص ٢٥٦ .

وقال يا قوم ان كنا بزعمكم مذنبين فما ذنب هذا الرضيـع ، فقد جفت محالب امه .

فلم يجد (ع) استجابة من اولئك الجفاة الذين طبع الشيطان على قلوبهم فانساهم ذكر الله

وقال بعضهم بهمس وتخوف : ان أوامر ابن زياد بمنع الماء عن الكبار دون الصغار ، فهم غير مشمولين .

ورفع الآخر صوته بقوله : ان الحسين قد بلغ الغاية من الظمأ والضرورة فان صبرتم عن سقايته سويعة اسلم امره اليكم وتنازل لكم .

ودار هذا الحوار والكل بانتظار امر القيادة ، وهناك امر ابن سعد بقطع هذا الحوار ، وقال لحرملة بن كاهل : ارم الطفل واقطع نزاع القوم . فرماه بسهم اصاب نحره فادركته المنية على صدر ابيه ، في ساحة المعركة ، فكانت صرخته من حرارة السهم صواعق تنصب على اولئك المجرمين ، ولعنات تلاحقهم على تعاقب الاجيال ومرور السنين ، فلقد سقط هذا الجندي وهو منتصر بنتائج المعركة ، وكانت مأساته أعظم مأساة تقع في العالم وأقسى عمل يقوم به المجرمون فانا لله وإنا اليه راجعون.

مع الحسين في وحدته:

نحن الآن وسط معركة حاميـة ، تدور رحاها بين الآف من المقاتلة واخرى على أهبة الاستعداد للحركة ، وبين رجل واحد ولكنه اكثر من العدد ، واكبر من عدتهم وقد احاطوا به كما وصفه عبدالله بن عمار البارقي وهو احد مشاهدي المعركة إذ يقول :

فشد عليه الرجالة عن يمينه وشماله ، فحمل عليهم حتى ابذعرّوا عنه ، وعليه قميص من خز وهو معتم ، فوالله مـا رأيت مكثوراً قط ، قتــل ولده واهل بيته ، واصحابه ، أربط جأشاً ، ولا امضى جنانـاً منه ، ولا اجرأ مقدماً، والله ما رايت قبله ، ولا بعده مثله ان كانت الرجالـة لتنكشف عن يمينه وشماله انكشاف المعزى اذا شد فيها الذئب[1]

وهو يقول :

انا الحسين بن علي آليت ألا أنثني

ووصفه آخر بقوله : انه كان يقاتل راجلاً . قتال الفارس الشجاع ، يتقي الرمية ويفترض العورة ويشد على الخيل وهو يقول :

أعلى قتلي تجتمعون ؟ [2] .

أَمَا والله لا تقتلون عبداً من عباد الله أسخط

---

(١) الطبري ج ٦ ص ٢٥٩ .

(٢) ابن الاثير ج ٤ ص ٤٠ .

عليكم لقتله مني وأيم الله اني لأرجو أن
يكرمني الله بهوانكم ، ثم ينتقم منكم من
حيث لا تشعرون ، أمَا والله لو قتلتموني
لألقى الله بأسكم بينكم وسفك دمائكم ، ثم لا
يرضى لكم بذلك ، حتى يضاعف لكم العذاب[1]

هذا وقد اخذ العطش ماخذه ، فاتجه نحو المسناة ، وانكشفوا منه ، فنزل الى المشرعة ، ولكن أعداءه وجدوا الملازمة بين منع الماء عنه ، وبين امر ابن زياد ، لأنه يرى ، أن منع الماء له أثره في قصر زمان المعركة ، ولهذا فقد شدد أوامره .

وامتثالاً لتلك الأوامر ، فقد تجمعوا بكل حماس وقوة ، وتنادوا : حولوا بين الحسين وبين الماء[2] .

وتقدمت الرماة فرشقوه بالنبال ، فأصابه سهم في حنكه ، فتفجر دمه من فمه وقد اخترمه سهم ، وهو يحاول أن يأخذ جرعة من الماء .

ففار الدم ، فتلقاه بيده ، ثم رفعها الى السماء
وهما مملوءتان دماً ، ثم رمى به الى السماء .
وقال : اللهم أحصهم عدداً واقتلهم بددا ،
ولا تذر على الأرض منهم احداً[3] .

---

(١) المصدر السابق

(٢) ابن الوردي في تاريخه ١ — ٢٣

(٣) البداية والنهاية ج ٨ ص ١٨٧ .

وتجمعت قوى الشر وتنادوا بكل مايملكونه من جرأة واقدام: ماتنتظرون بالرجل ؟ وركب الشمر وهو الخصـــم اللدود ، وما تمخضت المعائب عن مثله ، مع جماعة ممن يشاركونه في طباعه ، وقرب من عيال الحسين ، وحال بينه وبينهم ، فلمـا نظر اليهم الحسين نادى بضعيف صوته :

ويلكم ان لم يكن لكم دين وكنتم لا تخافون المعاد فكونوا في أمر دنياكم احراراً ذوي احساب ، امنعوا رحلي وأهلي من طغاتـكم وجهالكم [1] .

وتراجعوا فيما بينهم وانكشفوا عن الخيم ولكن شمراً حرضهم على الاحاطة بالحسين (ع) والحملة عليه من كل جانب .

فقال ابو الجنوب لشمر: وما يمنعك انت من قتله ؟ فقال شمر : ألي تقول ذلك؟ فاستبّا ساعة . فقال ابو الجنوب ، وكان شجاعاً : لقـــد هممت ان اخضخض هذا السنان بين عينيك [2]

ورجع الحسين لخيمه ليلقي عليهم آخر نظرة في آخر لحظة من حيـــاته .

ولا نتعرض هنـــا لمآسي ذلك اللقاء الأخير ، وآلام ذلك

---

(١) الطبري ج ٦ ص ٢٥٨ ، وابن كثير ج ٨ ص ١٧٨
(٢) كثير ١٨٧/٨

الاجتماع الذي عبر عن اعظم مايتصوره الانسان ، من عظمة لتحمل المصائب في جنب الله . لقــد كانت عودة الحسين (ع) . تنذر بنهاية اللقاء ، ودنو الأجــل ووقوع الفـرقة ، ولم يسمح له أعداؤه باطالة المكث مــع اهله ، ولم تدخل الرحمة في قلوبهم ، فيكفوا عنه ، حتى يوصي اهل بيته،انهم ضايقوه وقربوا من مخيمه ، وسيوفهم متعطشة لدمه .

وعاد الحسين لميدان جهاده ، في ساحات العزوالشرف وتقدم لا كمال رسالته والقـــاء حجته .

* * *

عاد الحسين (ع) للمعركة وعادت النســـاء الى الحسرة واللوعة الصامتة ، والدموع الخرس ولهن بصيص أمل بعودته مرة اخرى .

وعاد للدفاع عن مبادئه ، باروع ماعرف البشر من بطولة وإقدام ، وأعظم ماعرف التاريخ من صدق في العزيمة ، واستهانة في الموت ، ولقد كتب بدمه أسمى معاني التضحية ، والتفاني في سبيل الحق ، وإقامة العدل ، واوضح لاباة الضيم منهجهم ، ورفع شعار الدعوة الى الاصلاح والأمر بالمعروف ، والنهي عن المنكر .

وعندما انفرد وأحاطت به الخيل رفع يديه الى السماء فقال :

اللهم أنت ثقتي في كل كرب ، ورجائي في كل شـــدة ، وانت لي في كل أمر ثقة وعدة . كم من همّ يضعف فيـه الفؤاد وتقلُّ فيه الحيلة ، ويخذل فيه الصديق ، ويشمت فيــه العدو

انزلته بك ، وشكوته اليك ، ورغبت فيه اليك عمن سواك ، ففرجته وكشفته وكفيته ، فانت وليّ كل نعمـــة وصاحب كل حسنة ، ومنتهى كل غاية"[1] .

* * *

ولقد كان يحمل فيهم . وقد تكاملوا ثلاثين الفاً ، فينهزمون من بين يديه كأنهم الجراد المنتشر ثم يعود الى مركزه وهو يقول: لا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم"[2] .

وهذه المرحلة من أحرج المراحل التي تمر بها معركة الطف فالنهاية أصبحت منوطة بمصرع الحسين .

فتجمعت القوى على قتله وتجاوبت في الفضاء أصواتهم : ماذا تنتظرون بالرجل ؟ احملوا عليه من كل جانب ، وهنا تجول الخيل بعد ان توقفت الغالبية عنه إذ كان يتقي بعضهم ببعض ، ويحب هؤلاء أن يكفيهم هؤلاء ، وارتفعت الأصوات ، وعلت الصيحات بالنداء : ويحكم ماذا تنتظرون بالرجل ؟ اقتــلوه ، ثكلتكم امهاتكم اقتلوه"[1] هذا وقد احتوشوه من كل جانب وهــو يذب بسيفه يمينــاً وشمالاً .

---

(١) تاريخ ابن عساكر مخطوط ٦٦/١٢

(٢) الاعيان ج ٤ ص ١٣٢ .

(٣) ابن كثير ج ٨ ص ١٨٨ .

مصرع الحسين

وهنا خاتمة مطاف الحرب الطاحنة في أرض كربلاء ونهاية المأساة الدموية ، بعد أن وقع عليه عبء المعركة وهو بمفرده ، وليس له من ناصر يقف الى جنبه .

وكان (ع) على حالة ممضة من شدة العطش ، وعناء النكبات التي شاهدها ، وقد أخذ الإعياء منه ماخذه فجراحاته تشخب دماً .

حدث مسلم بن رباح مولى الحسين (ع) قال : كنت مع الحسين يوم قتل ، فرمى في وجهه نشابة . فقال : يا مسلم أدن يديك من الدم ، فأدنيتهما فلما امتلأتا ، قال : اسكبه في يدي فنضح بهما الى السماء وقال : اللهم اطلب بدم ابن بنت نبيك [1] .

ويصفه المشاهدون للمعركة : أن جلده كالقنفذ من كثرة السهام والنبال ، والدرع بان عليه بنياناً من الدم ، لكثرة جراحاته التي كانت تشخب دماً عبيطاً ، وما رفع قدماً عن قدم إلا وامتلأ موضع قدمه دماً .

---

(١) ابن عساكر التاريخ الكبير مخطوط .

ووقف أمام أعدائه موقف بطولة واقدام برباطة الجاش وقوة العزيمة في رد هجمات اعدائه ، يجاهد في سبيل الله ويصول صولة الأسد .

* * *

كان يقاتل فارساً فضعف فقاتل راجلاً قتال الفارس الشجاع ، يتقي الرمية ويفترض العورة ، ويشد على الخيـــل ، وهو يقول . أعلى قتلي تجتمعون ؟ ثم خاض المعركة راجلاً .

وبعدها ضعف فجثى على ركبتيه وتكاثروا عليه ضرباً بالسيوف ، وطعناً بالرماح ، ورمياً بالسهام ، ورماه ابو الحتوف في جبهته ، فسالت دماؤه بكثرة حتى أصبح لا يبصر أعدائه، فرفع ثوبه فرماه حرملة بسهم، وتكاثروا عليه فطعنه أنس في ترقوته ثم انتزع رمحه . وطعنه في بوان صدره فسقط صريعاً الى الأرض وارتفعت الغبرة بعد أن اشتد الزحام ، وعلا الضجيج وإذا برأس الحسين بيد قاتله .

ووقع أمر الله ولا راد لأمره وحلّت بالمسلمين كارثة كبرى ومصيبة عظمى فارتعدت الفرائص ، واهتزت الأرض .

قتل الحسين فانا لله وإنا اليه راجعون .

وهناك علت الأصوات ، بالتكبير ، الله أكبر قتل الحسين ، الله أكبر ، وكان الشمس قد كسفت، واغبر الأفق أو نزل باهل الأرض بلاء

عظيم ، وارتفعت الاصوات المتقطعة من الدهشةوالرعب: قتل الحسين ، قتل الحسين (ع) [1] .

* * *

سقط الحسين ويده على قائم سيفه وقتل والحرب دائرة والغبرة قد غطت مكان الحادث فلما انجلت وإذا بالحسين يتشحط بدم الشهادة .سقط الحسين (ع) وانتهى كل شيء .وهنا جالت الخيل جولة الظفر الموقت.

تجاوبت الدنيا لهذا الحادث ، واهتز العالم لتلك الداهيـــة وعلت صرخة الاستنكار ، فهزت عروش الظالمين .

نعم تجاوبت الدنيا لهذه الصرخة ، والى الأبد ستبقى صرخة الحق ويبقى صوت الحسين مدوياً : (ألا ترون إلى الحقّ لا يعمل به والى الباطل لا يتناهى عنه ، فليرغب المؤمن في لقاء ربه محقاً لا أرى الموت إلا سعادة والحياة مع الظالمين إلاّ برماً) .

لقد نشر الحسين رسالته وأدى مهمته الملقاة على عاتقه وشجب أعمال الظالمين بدمه فسلام عليه يوم ولد ويوم قتل ويوم يبعث حياً .

بعد مصرع الحسين :

سقط الحسين وقد أظلمت الدنيا وارتجت الأرض باصوات التكبير .
ولا يستطيع القلم وصف ما حلّ بآل رسول الله من هول المصاب وعظيم الرزء .

---

(١) تاريخ الاسلام للذهبي ج ٢ ص ٣٤٧ والطبري ج ٦ ص ٣٦٠

فزعت الأطفال وذهلت النساء، وعلت الصيحة فانالله وإنا إليه راجعون الى اين يذهب الهارب من الأطفال ، والى أي جهة يتجه ، وهـــل هناك من يؤوي أولئك الصغار المذعورين .

وقد حدث التاريخ عن مشاهد الموقف بما لم تشهد الايام مثله ، ولم يجر على مر الزمن من الفوادح ، كما جرى في ذلك الوقت ، من قساوة ووحشية. فمن ذلك ما حدث به التاريخ، عن أحد مشاهدي المعركة قال:

لما صرع الحسين (ع) خرج غلام مذعوراً يلتفت يميناً وشمالاً فسألت عنه فقيل هو محمد ابن سعيد بن عقيل فشد عليه لقيط بن أياس فضربه وقتله [1]

وحدث هاني بن ثبت الحضرمي : قال اني لواقف عاشر عشرة لما صرع الحسين (ع) إذ نظرت الى غلام من آل الحسين (ع) عليه إزار وقميص وفي أذنيه دُرتان، وبيده عمود من تلك الأبنية ، وهو مذعور يلتفت يميناً وشمالاً ، فاقبل رجل يركض حتى اذا دنا منه، مال عن فرسه وعلاه بالسيف فقطعه [2].

وكان هاني هو القاتل، ولكن لما عيب عليه كنى عن نفسه [3]

وأُضرمت النيران في المخيم ، ونهبوا ثقل الحسين ، وافزعوا العيال وتشتت ذلك الشمل .

---

(١) العيون العبرى ص ١٨٤ .

(٢) البداية والنهاية لابن كثير ج ٨ ص ١٨٦

(٣) الطبري ج ٦ ص ٢٥٨ .

وعند الغروب :

وغربت شمس يوم العاشر ، وقد سبق الخبر لابن زياد وهو في النخيلة قبل غروبها ، وجاء البشير بقتل الحسين (ع) فارتحل منها مسرعاً ليحكم أمر الكوفة ، ويتخذ التدابير للمحـــافظة عليها ، فاصدر أمره الى حراس البلد ، وكان عددهم عشرة آلاف فارس بمنع حمل السلاح على كل أحد ، ونادى مناديه في الكوفة بذلك ، وطلع القمر وأشـــرق على أرض كربلاء المصبوغة بالدماء . والمعسكر الكوفي يتهيأ للرحيل عند الصباح ، والزعماء يستعدون لملاقاة ابن زياد ليتقدموا بولائهم له وبات مخيم الحسين (ع) صامتاً كصمت المعركة حوله ، والكآبة قد احاطت بجميـــع جوانبه ، وهدأت تلك الاصوات التي كانت ترتفع بالمناجاة وخلت امكنة صلاتهم ، وتلك المخدرات تندب قتلاها بصمت ووقار ، وتذري الحـــزن ، بحرارة ، وانفاسهـــا تتردد كالهمس وقلوبهن تخفق كجناح الطائر ،

ووقفت زينب بنت علي(ع) موقف البطولة والثبات ، فكانت ترعى العائلة ، وتحرس المخيم ، وتتفقد الأطفال ، وتجمع شملهم عندما ذعروا من هول الخطب ، ساعة قتل الحسين (ع) وهجوم الخيل فقد وصفهم مشاهدو المعركة : بأنهم ذعروا ولاذوا بالفرار.

وبعد أن أدت واجبها في الرعاية ، خرجت الى المعركة لتصل الى الجسد الطاهر ، الى الضحية الكبرى ، وهـــي تخطو بالوقار ، وتتعثر بأذيال الأسى ، وقد أرخى الليل سدوله .

ووصلت اليه وهي صامتة إلاّ عن ذكر الله ، وشكره وقد سلمت أمرها اليه تعالى ، وجعلت ما نزل بها ، في جنبه وصبرت على بلائه .

وجاءت نحو مصارع القتلى فنظرت اليهم على ضوء القمر الزاهر ، وقد بلغت الحالة لهول المنظر وعظم المصاب ، الأمر الذي لا يقر معه الصبر ، ويخون عنده الجلد ، ولكنها كانت أقوى من الحوادث،وأصلب عوداً من أن تلين أمام الكوارث ، فما استولى عليها حنان الأُم ، فتميل الى جسد ولدها فتندبه أو تستولي عليها شفقة الرحم فتجلس عندهم تبكي مصارعهم وتندبهم ، إنها احتسبت ذلك في جنب الله وتدرعت بالصبر ، ومرت في طريقهـا وهي تتعثر بأذيال المأساة ، وعلى ضوء القمر المشرق توجهت الى مصرع أخيها الحسين (ع) ، فأكبت على جسمه الطـــاهر ، وجلست عنده تنظر اليه بحسرة وتخاطبه بعبرة وحرارة

أكبت على جسده الشريف وهي تحاول موضعاً يسمح لها بتقبيله ، لكثرة النبال وجمود الدم على جسده الطاهر . فلم تجد .

* * *

يا لها من وقفة مؤلمة ، ومنظر محزن . جلست زينب وهي الثاكل

المروعة ومدت يديها المرتعشتين من ألم الخطب ، وشدة الوقع ، وبسطتهما تحت جسده ، ورفعت طرفها الى السماء ، ونظرتها نظرة خضوع مزيجة برجاء وقالت بحرقة وحرارة :

اللهم تقبل منا هذا القربان . ولم تطل المكث عنده لأن مسؤوليتها الكبرى تحتم عليها سرعة الرجوع الى العائلة التي ليس لها كفيل غيرها ، ولم تستطع البقاء عنده فودعت الجسد الطاهر ، وعادت للمخيم الموحش ، الذي ترتفع منه أصوات الأطفال وأنين الثواكل .

وقامت في جوف الليل ، تؤدي وردها من صلاة الليـــل ، ولكن خانتها قواها ، فقد استولى الضعف على بدنها ، فأدتها من جلوس ولم تنم لها عين فهي تحرس العيال وتتفقد الاطفال ، وتقف الى جنب المريض تمرضه ، وتجلس مع الثاكلة تسليها وتصبرها .

* * *

وبات معسكر ابن سعد تغمره فرحة النصر الموقت ، وهم يسمرون ابتهاجاً بانتهاء المعركة من جانبهم ولم يبق أمامهم إلاّ عرض الولاء امام ابن زياد ، لنيل الصلة .

وها هم على ضوء المشاعل يحصون الرؤوس التي قطعوها ، ويميزونها لياخذ كل قاتل رأس من قتله ، ووزعت على العشائر ، وفي تلك الليلة اتجه موكب الرؤوس الى الكوفة يسبق ركب السبايا ، وقد اقتسمت القبائل تلك الرؤوس فيما بينها وهم يعدّون ذلك فخراً .

اليوم الحادي عشر :

ذهب ليله بما فيه من حوادث وآلام ، وطلع فجره وهو يحمل لآل محمد مآسي لا تقل فظاعة عما ذهب من قبل .

طلع فجر ذلك اليوم ، والجيش الاموي يغط في سبات عميق فقد أنهكه التعب وسلب قراره الخوف ، من العواقب السيئة المرتقبة ، بعد أن وضعت الحرب اوزارهـا ، ومضى الحسين مجاهداً ، ومات عزيز النفس ولم تلن قناته ، ولم يترك لأعدائه إلا الحسرة والندامة . وكان النصر حليفه .

وأفاق آل الرسول صبيحة ذلك اليوم وفتحوا عيونهم على أخبية استعرت فيها النيران فخلفتها رماداً وقد سلب جميـــع ما فيها من متاع .

ولم تمض برهة من الوقت حتى عاد اولئك الأشرار إلى نشاطهم في الهجوم على مخيم الحسين ، لادخال الرعب ، ونهب ما بقي في المخيم ، من أثاث ، وجالوا قرب المخيم وأحاطوا بعلي بن الحسين وهو على فراش المرض، فنادى الشمر: اقتلوه ، ولاتبقوا لأهل هذا البيت من باقية: وهم بقتله فاعترضه آخرون ، واختلفوا فيما بينهم وجاء عمر بن سعد فمنعهم من قتله [(١)]

وعاد ابن سعد لمقر قيادته لتنفيذ أوامره وليعّد العدّة للرحيل

---

(١) ابو الموفق الخوارزمي المكي ج ٢ ص ٣٨

وكان ابن زياد قد أصدر أمره اليه من قبل : إن قتلت حسيناً فاوطىء الخيل صـــدره وظهره. وهذه مهمـــة يقوم بها ابن سعد ويصعب تنفيذها وعرض الأمر على جماعة فامتنعوا وبعد ذلك استجاب له عشرة من الفوارس هم .

١ – أُسيد بن مالك	٢ – هاني بن نبت الحضرمي
٣ – واضح بن ناعم الحضرمي	٤ – صالح بن وهب الجعفي
٥ – رجاء بن منقذ العبدي	٦ – سالم بن خيثمة الجعفي
٧ – عمر بن صبيح الصيداوي	٨ – حكيم بن الطفيل السنبسي
٩ – الأخنس بن قيس بن مرثد	١٠ – اسحاق بن حوبه .

قال أبو عمر الزاهد: سبرنا أحوال هؤلاء العشرة، فوجدناهم كلهم أولاد زنا وجرت خيولهم وتقدموا بكل جرأة وصلافة، فداسوا صدر الحسين (ع) وظهره[١] .

---

(١) الطبري ج ٦ ص ٣٦١

من كربلاء الى الكوفة :

وفي آخر اليوم الحادي عشر تاهب الجيش للإرتحال من كربلاء الى الكوفـة ، وأصدر ابن سعد أوامره بالارتحال ، واستعد ثقل الحسين على الرحيل من أرض المحنة،ومحل الكربة،وهو ثقل يقف القلم عن وصفه أو إعطاء صورة عن كيفية ارتحاله . فقد تحرك ذلك الركب الحزين ، وقد امتزج حداء الحداة وأهازيج الرجال بصراخ الاطفال وعويل النساء ، وأنين الجرحى ،فكان يوماً مشهوداً وموقفاً مؤثراً،تجسدت فيه المصائب، وبرزت فيه صور الآلام إذ كان الركب مثقلاً بالآلام وفجائع المصاب وهو يضم نساء ثواكل وصبية صغاراً قد ربطت بالحبال،ورجال جرحى كالحسن المثنى ، وعقبة بن سمعان ، وكان الإمام زين العابدين مريضاً لا يستطيع الركوب فقيدوه من تحت بطن الناقة .

وهنا هاجت العواطف وارتفعت أصوات الاستغاثة ، من الأطفال بآبائهم ومن النساء بازواجهن عندما شاهدوا أجسامهم في العراء من دون مواراة ، وقد كستها الدماء حللاً .

وأصبح المكان عند الرحيل وفي ساعة الوداع كأنه : مأتم حزن

وقد وقفت بنت علي زينب الكبرى تهدّىء الروعة وتخفف آلام العائلة وتحنو على الأطفال بكل حنان وتمسح دموع اليتامى ، وتجفف

العرق عن تلك الوجوه التي أثرت حرارة الشمس فيها وشفاههم ذابلة ، وهم خمص البطون فلم يتناولوا شيئاً من الطعام .

* * *

وسار ركب الحسين الحزين تاركاً وراءه اجساداً عارية، قد ضرجتها الدماء الطاهرة وهشمتها حوافر الخيول ، أجساداً لم تجر لهم مراسيم التشييع ولا واجبات الدفن ، تصهرهم الشمس وتكسوهم الرمال فمدت زينب بصرها وقالت بعبرة وانكسار : أستودعك الله السميع العليم يا بن والدي .

فبينا هي في محنتها هذه نظرت الى الامام زين العابدين (ع) وهو بتلك الحالة من شدة المرض وينظر بعينه الى تلك الأجساد الموزعة ، والمناظر المحزنة فدنت منه وقالت :

مالي أراك تجود بنفسك يا ابن أخي فوالله ان هذا لعهد من الله ، ولقد أخذ ميثاق اناس لا تعرفهم فراعنة هذه الأرض ، وهم معروفون في أهل السماء ، انهم يجمعون هذه الأعضاء المقطعة والجسوم المضرجة فيوارونها وينصبون بهذا الطف علماً ، لقبر أبيك سيد الشهداء لا يدرس أثره ولا يمحي رسمه على كرور الليالي والأيام .

وليجتهدن أئمة الكفر ، وأشياع الضلال في
محوه فلا يزداد أثره إلا علواً [1]

ونتخطى هنا مناظر محزنة ونطوي صحائف حوادث مفجعـــة ، ونلتحق بالركب في اتجاهه الى الكوفة ، تحت القوة والسيطرة الغاشمة، بين أهازيج الجند ، وصرخة الأطفال ، وبكاء النساء وأنين الجرحى .

اتجه الركب نحو الكوفة المسلمة ، عاصمة الامـــام عليّ ومصدر أحكامه ، ومنطلق نهج بلاغته .

* * *

أفاقت الكوفـة في صبيحة الحـــادي عشر من المحرم على أصوات الجنود ، ونداء الأمير بمنع حمل السلاح ، ومنع التجمـــع في الأندية والطرقات ، وملئت الشوارع بالجند المسلحين .

كل هذه الاجراءآت استعداداً لوصول الرؤوس ، وركب سبايا أهل البيت ، وبقيت الكوفة في موجة ارهاب ، وحزن، عندما انتشر خبر قتل الحسين وأصبح الناس يتهامسون : قتل الحسين. قتل الحسين. وماذا يكون بعد ذلك ؟

ودخلت الكوفة في اليوم الثاني عشر مجموعة من الجند المدججين بالسلاح يقدمهم قاتل الحسين ، وهو يحمل الرأس ويرتجز مفتخراً .

إملأ ركابي فضة أم ذهبا انّي قتلت السيد المحجبا
قتلت خير الناس أمّا وأبا

---

(١) كامل الزيارات ص ٢٦١

وتأتي من بعده مجموعة من الجند تتألف من عشرة فوارس يقدمهم إسحاق بن حوبه ، وهم يرفعون شعارهم ، ليعرفهم الناس ويقدر الأمير موقفهم ، واخلاصهم لأمية . واخترقوا الشوارع يرددون أهازيجهم :

نحن رضضنا الصدر بعد الظهر   بكل يعبوب شديـــد الأثر

وهؤلاء هم الذين داسوا ظهر الحسين وصدره كما أمر ابن زياد قائده عمر بن سعد بذلك .

ثم قدمت الرؤوس باطراف الرماح تحملها القبائل كل قبيلة تحمل رأس بطل من أبطال الطف،وهرع الناس لعظيم الخطب،وهول المنظر. يا لها من حادثة مروعة تحل بارض البطولات وجمجمة العرب « الكوفة»

ولنقف هنا ملياً ننظر لقبائل الكوفةوهي تعود منأرض المعركة ، في كربلاءحيث قابلت آل محمد بكل صلافة ، وتحدث أبسط قواعـــد المروة ، وصفات الانسانية .

وتعود القبائل بشكل منظم يسيرون في الشوارع وهم يحملون حصيلة اتعابهم ، ويعودون بسلبهم الذي سلبهم العزة وألبسهم العار .

هذه كندة يتقدمهم قيس بن الأشعث وهم يحملون ثلاثة عشر رأساً من رؤوس فتيان بني هاشم وسلالة النبوة . وهذه هوازن تتقدم باثني عشر رأساً من رؤوس شهداء المعركة يتقدمهم شمر بن ذي الجوشن.

وتقدم تميم بسبعة عشر رأساً وتتبعها بنو أسد بستة عشر رأساً ،

وتقدم مذحج بسبعة ، ثم تقدم بقية القبائل بمـــا تبقى من رؤوس تلك الصفوة[1] .

* * *

الناس في ذهول والنساء في صراخ وعويل، وازدحمت السكك بالجند، كأنهم ينتظرون أمراً ، ويتوقعون حدوث حادث عظيم. هذا وابن زياد قد جمع العرفاء ورؤساء الأرباع ، وذوي النفوذ من أهل الكوفة ، وملأ الطرق بحرس الدولة ، وبقية الجنود الحمر ، ومن حثالة العرب .

ومرّ موكب الرؤوس بين صيحة النساء ، وأهازيج الجند، فكان يوماً مشهوداً وازداد التجمع في الشوارع المؤديـــة لقصر الأمارة ؛ انهم ينتظرون ركب الأسارى، ركب الحسين المقبل والذي اناخ قريباً من الكوفة حتى يتم تجمع الناس، أظهاراً لارهابهم وضرباً لحفيظة العرب ونخوتهم ، وضياعاً لحقوق الرسول وهتكاً لحرمة الاسلام .

وبعد انتظار طويل ظهرت معالم وصول الركب ، وقـــد ضاقت الشوارع بالجموع ، فهرع الناس لاستقباله ، وكان الركب محاطـــاً بجند أقوياء ، وجيش يمنع امتزاج الناس بالركب ، ولكن الكثرة الساحقـــة والعواطف الملتهبة اخترقت ذلك الحصار واستهانت بقوة الجنـــد ، واستقبلت الركب بصراخ وعويل ، وندبة لشهداء الطف .

---

(١) انظر حديث كربلاء للمقرم ص ٣٦٢ نقلاً عن عمدة القاري في شرح البخاري العيني ج ٧ ص ٦٥٦ والطبري ج ٦ ص ٢٦٩ .

فقال الامام علي بن الحسين (ع) أتنوحون وتبكون فمن ذا الذي قتلنا ؟!
وقد بعثت هذه الكلمة روح الحماس ، وضاعفت الموقف بالحزن .

وهنا تتقد جذوة الحق ، ويرتفع صوت الفضيلة المنتصرة فتظهر زينب ابنة علي في ميدان الجهاد ، بثبات قلب ورباطة جاش ، فتعلن هنا أهداف ثورة الحسين ، وترجع الناس ببليغ بيانها الى ايام الامام علي ، لأنها ببلاغتها كأنما تفرغ عن لسان أبيها أمير المؤمنين كما وصفها شاهد الموقف [1] .

* * *

انها لم تقف موقف المرأة التي استولى عليها التأثر والحزن العميق فيملك مشاعرها فتكون اسيرة حزن ، وحليفة ذهول ،ورهينة فجيعة ، لعظم المصاب وفداحة الرزء الذي أصابها .

وإذا كان موقف زينب موقف جزع فمن يكفل لهذهالعائلة سلامتها، ومن يرعى اطفالاً صغاراً لا كافل لهم سواها ، انها ابنة علي قد تخطت عهود التفجع واجتازت عقبة الأحزان التي تقعد بها عن أداء واجبها ، فلم يجد الضعف الى عزيمتها سبيلاً ، فقد مثلت دور البطولة في جهادها ، وثبتت أمام المكاره ثبوت الجبل امام العواصف ، انها تحملت المصائب والنكبات طلباً لمرضاة الله تعالى وجهاداً في سبيله واعلاء لكلمته .
ولقد خاطبت ذلك الجمع الذي استقبلها بالبكاء والعويل فقالت تؤنبهم :

أتبكون وتنتحبون، اي والله فابكوا كثيراً ، واضحكوا قليلاً.
فلقد ذهبتم بعارها وشنارها ، ولن ترحضوها بغسل بعدها أبداً ، وأنى

(١) الجاحظ . البيان والتبيين .

ترحضون ، قتل سليل خاتم النبوة ، ومعدن الرساله ، ومدار حجتكم ، ومنار محجتكم ، وملاذ حيرتكم ومفزع نازلتكم وسيد شباب أهل الجنة ، ألاساء ما تزرون .

فتعساً ونكساً وبُعداً لكم وسحقاً ، فلقـــد خاب السعي وتبت الأيدي ، وخسرت الصفقة ، وبؤتم بغضب من الله ورسوله وضربت عليكم الذلة والمسكنة

ويلكم يا أهل الكوفة ، أتدرون أي كبد لرسول الله فريتم ؟ وأي كريمة له أبرزتم وأي دم له سفكتم ، وأي حرمـــة له انتهكتم ، لقد جئتم شيئاً إدّاً ، تكاد السموات يتفطرن منه وتنشق الأرض وتخر الجبال هداً .

ولقد أتيتم بها خرقاء. شوهاء كطلاع الأرض وملأ السماء ، أفعجبتم أن مطرت السماء دماً ، ولعذاب الآخرة أخزى وهم لا ينصرون . فلا يستخفنكم المهل ، فانه لا يحفزه البدار ، ولا يخاف فوت الثـــار ، وإن ربكم لبالمرصاد .

* * *

وكان المشهد عظيماً وسبقت أخباره لابن زياد ، وقد اجتمع الناس في مجلسه وتوافدوا لتهنئته ، ولعظيم الوقع وفداحـــة المصاب . أصبحت السيطرة لنساء الكوفة ، اللواتي ملأن الفضاء بالصياح والعويـــل . وخرقن ذلك الحصار وأحطن بالركب وأصبح المجال واسعاً أمام أهل البيت لالقاء الحجج وتوعية الناس ، ولكن ذوي النفوذ بادروا بكل ما لديهم من قوة لتفرقة الناس والإسراع بالركب فالامير بانتظاره .

في مجلس ابن زياد :

كان مجلسه مكتظاً بوجوه الناس وكبار الدولة ووفود القبائل ورؤساء الأرباع وانهالت عليه الوفود، وتقدم قواد جيش معركة الطف بولائهم ، وتقربوا اليه بالحديث عن أحداث المعركة ، وما أظهروه من بطولة ادعائية ، واخترعوا مواقف بطولية .

وكان ابن زياد قد جمع الناس ليظهر عظمة موقفه ، وقد وضع الرأس بين يديه ، ولعظيم سروره جعل ينكث ثنايا الحسين بمخصرته ، ويقول : لقد كان جميلاً .

وكان المجلس يضم بعض الصحابة والتابعين . منهم أنس بن مالك وهو أحد رواة هذه الحادثة إذ يقول :

لما أتى عبيد الله بن زياد برأس الحسين، جعل ينكث ثناياه ويقول : لقد كان جميلا .
فقلت والله لأسوئنك اني رأيت رسول الله يلثم حيث تنكث [1] .

ولما رأى زيد بن أرقم ذلك فقام وسط المجلس ورفع صوته ويبكي : أرفع عن هاتين الشفتين فوالذي لا إله غيره لقد رأيت شفتي رسول الله على هذين الشفتين يقبلهما ثم بكى فقال له ابن زياد : ابكى الله عينيك والله لولا انك شيخ قد خرفت وذهب عقلك اضربت عنقك .

---

(١) ابن كثير ص ١٩٠ ج ٨ وابن عساكر ج ١٢ ص ٢٤ .

وخرج زيد وهو يقول : يا معشر العرب انتم العبيد بعد اليوم، قتلتم ابن فاطمة وأمرتم ابن مرجانه فهو يقتل خياركم،ويستعبد شراركم ، فرضيتم بالذل ، فبعداً لـكم .

وبينما الناس في شغل شاغل لذلك المنظر المؤلم إذ سمعوا جلبـــة اصوات حراس ركب الأُسارى ، الذي سيقابل ابن زياد ، ودخل مع ذلك الموكب الامام زين العابدين مثقلاً بالحديد وهو ثقيل الخطى من شدة المرض وثقل قيوده ينظر الى السماء ولسانه يلهج بذكر الله .

* * *

ارتاع الناس لهذا المنظر وانحازوا جانباً حيث أجلس السبي قريباً من منصة ابن زياد ، وجلس الامام علي بن الحسين مجهداً يجر أنفاسه .

أما زينب فقد تنكرت ، وجلست بمعزل وحف بها إماؤهـــا [1] فنظر ابن زياد اليها نظرة تكبر وتجبر وقال :

من هذه الجالسة ؟ فلم تجبه احتقاراً له ، واستهانة به ، فأعاد السؤال ثانياً فلم تجبه . وفي الثالثة قالت له احدى امائها هذه زينب ابنة فاطمة [2]

وهنا يجري في عروقه الدم الجـــاهلي ، ويأخذه الطيش والغرور فيقول مخاطباً لها :

---

(١) الطبري ج ٦ ص ٢٦٢ .

(٢) ابن الاثير ج ٤ ص ٤٣ .

الحمد لله الذي فضحكم واكذب احدوثتكم ،
فقالت : زينب الحمد لله الذي اكرمنا بمحمد
وطهرنا تطهيراً انما يفتضح الفاسق ويكذب
الفاجر وهو غيرنا [1] .

وغاظه هذا الموقف ، إذ نظرت اليه زينب نظرة احتقار وسخرية، فتصاغرت نفسه ، ولكنه أراد أن يرفع من كيانه بمقابلة جريئة فقال :

كيف رأيت صنع الله باخيك وأهل بيتك ؟

فقالت : ما رأيت إلا جميلاً . هؤلاء قـــوم كتب الله عليهم القتل فبرزوا الى مضاجعهم ، وسيجمع الله بينك وبينهم فتحاج وتخاصم فانظر لمن يكون الفلج يومئذ هبلتك (ثكلتك) امك يا ابن مرجانة [2]

وهي تجيبه بشجاعة واتزان ، ثم ترفعت عن مقابلتـه ، احتقـارا له واستهانة به . وأراد هنا أن يظهر بمظهر المنتصر وصاحب السلطان المقتدر ، فراح يتامل وجوه الأسرى حتى استقرت عيناه على الإمام علي ابن الحسين الذي استغرب سلامته من سيوف جنده ، لأنـــه أوعز اليهم بالإبادة ، فسأله : ما اسمك ؟

فاجابه : أنا علي بن الحسين .

وعجب ابن زياد وأعاد السؤال وقال :

---

(١) الطبري ج ٦ ص ٢٦٢

(٢) الكامل ج ٤ ص ٤٢ .

أوَ لم يقتل الله علي بن الحسين ؟

أعرض الإمام عنه محتقراً له ، مترفعاً عن رده ، فأعاد ابن زياد قوله فقال : ما لكَ لا تتكلم ؟

فقال الإمام : الله يتوفى الأنفس حين موتها .

فاستشاط ابن زياد غيظاً ودارت الأرض فيه عندما سمع الإجابة فقال وهو مرتبك لشدة غيظه : ألكَ جرأة على جوابي ؟ إذهبوا به فاضربوا عنقه [1] .

لقد حاول ابن زياد أن ينفذ إرادته في إبادة أهل البيت ولكن الله حال بينه وبين ما أراد ، فسلم الإمام زين العابدين من تهديده وتوعيده ؛ وبقي علماً للأمة ، ومناراً للدين .

* * *

توقع ابن زياد أن يشفي غليله في هذا المجلس ، ولكن كلمة الحق وقوة الإيمان خيبت أمله ، وخشي سوء العاقبة فأراد أن يصب جام غضبه أمام الناس ، فأمر مناديه بالصلاة جامعة ، فاجتمع الناس من كل مكان ، وازدحموا في المسجد الجامع ، وصعد ابن زياد وهو مملوءٌ غيظاً من قرنه الى قدمه ، فقال : الحمد لله الذي أظهر الحق وأهله ونصر أمير المؤمنين يزيد بن معاوية وحزبه وقتل .... [2]

---

(١) اعلام الورى ص ٢٥٢ .

(٢) الطبري ج ٦ ص ٢٦٣ .

وماج المجلس عند سماع هذه الكلمات التي تـــدل على منتهى الجرأة والتحدي للقيم والموازين العربيـــة ، فجعل ينظر بعضهم بعضاً ويكتمون أنفاسهم ، وطاطاوا رؤوسهم . فمن يا ترى يستطيـع أن ينكر على ابن زياد ، ومن يتعرض له في مثل هذه الساعة .

ان الأمر يحتاج الى تضحية وإقدام وقوة عربيـــة ، وذلك مربوط بالقيادة ، وأين القادة ؟ وأبطال العرب وفرسان المصر كلهم في السجون والمعتقلات ، والحضور منهم أفراد لا يقدرون على شيء ، والزعماء الذين حضروا هذا المؤتمر هم قوم باعوا ضمائرهم ، وتجردوا عن دينهم، وتنكروا لعروبتهم . فمن يا ترى يقوم بالمسؤولية الملقاة على عواتقهم .

استمر ابن زياد في هجماته ، وهو نشوان بخمرة الظفر ، وقد هيمن بأسلوبه على ذلك الجمع الغفير .

رجل الساعة :

ماج المجلس موجة حذر ورعب فقد قام رجل الساعة البطل الجريء عبدالله بن عفيف الأزدي ، وأطلقها صرخة حق مدوية ، وقال : كلمة صدق صريحة ونادى بأعلى صوته الجهوري المنبعث عن قوة إيمان واعتقاد صحيح ، ورفع يده لجهة ابن زياد :

يا ابن مرجانة، انما الكذاب ابن الكذاب أنت وأبوك ، ومن استعملك وأبوه يا ابن مرجانة؟ أتقتلون ابناء النبيين وتتكلمون بكلام الصديقين [1]

ويدهش ابن زياد لهذه الصدمة العجيبة والمفاجئة الغريبة . انها لجرأة وإقدام وبسالة ، فوق حد التصور .

* * *

شخصت الأبصار نحو الرجل المتكلم وتطاولت الأعناق لهذا البطل الذي صدع بكلمة الحق ، وأزال حجب التمويه والخداع الذي استعمله ابن زياد . ان هذا الموقف أعظم على ابن زياد من كل المواقف ، فقد أُزيل الستار وظهر لبعض الناس حقيقته . فمن هو هذا ؟ .

ومن يكن والى أي عشيرة ينتمي؟ واذا به عبدالله بن عفيف الأزدي، وهو من الشيعة ذهبت عينه يوم الجمل وكان من أصحاب علي (ع) فلما كان يوم صفين خرج لحرب معاوية فضرب على رأسه ضربة وأُخرى على

---

(١) الطبري ج ٦ ص ٢٦٣

حاجبه فذهبت عينه الأُخرى وهو لا يفارق المسجد الأعظم يصلي الى الليل ثم ينصرف[1] .

لقد كانت مقالة ابن عفيف شرارة حرب وعلامة ثورة فصاح ابن زياد : من هذا المتكلم !!

فقال : أنا المتكلم يا عدو الله . أتقتل الذرية الطاهرة ، التي أذهب الله عنهم الرجس كما جاء في كتابه ، وتزعم انك على دين الاسلام ، واغوثاه أين أولاد المهاجرين والانصار لينتقموا من هذا الطاغية ، اللعين ابن اللعين على لسان رسول رب العالمين[2] .

فاستشاط ابن زياد غيظاً وقال: عليّ به، فتبادر الجلاوزة اليه فنادى بشعار الأزد ، وكان شعارهم يا « مبرور » قال عبد الرحمن بن مخنف الأزدي ويح نفسك اهلكتها واهلكت قومك ، وكان حاضر الكوفة يومئذ من الأزد سبعمائة مقاتل فوثبت اليه فتية ، منهم فانتزعوه بالقوة ، وانطلقوا به الى منزله .

ووقع ابن زياد في خطر لأن هـــذه القضية تدل على اندلاع حرب واتساع شقة الخلاف ، فنزل مغضباً ودخل القصر ، واجتمع بأهـــل مشورته ، ومجلس دفاعه ، وتسابق الأشراف والعرفاء اليه فقال :

---

(١) الطبري ج ٦ ص ٢٦٤ .

(٢) الفتوح ٥ / ٢٣٠ .

أرأيتم ما صنع هؤلاء ؟ أي الأزد .

فقالوا : أصلح الله الأمير ! شُدَّ يدك بساداتهم فهم الذين استنقذوه من يدك .

فأرسل عبيد الله بن زياد إلى عبد الرحمن بن مخنف الأزدي ، وإلى جماعة من أشراف الأزد فحبسهم وقال :

لا خرجتم من يدي أو تأتوني بعبد الله بن عفيف [1] .

لقد أصبح حديث عبد الله الأزدي مع ابن زياد تردده أندية الكوفة ويتحدث به جميع أهلها .

* * *

وأول عمل بدأ به أن أرسل وفداً مؤلفاً من جماعة ، كعمر بن الحجاج الزبيدي ، ومحمد بن الأشعث ، وشبث بن ربعي ، وآخرين ، ليأتوه بعبد الله الأزدي ، ويخذلون الأزد عن حمايته ، ويعدوهم بسلامته، وانه لا شيء عليه . وحين علم الأزد بقدوم الوفد اجتمعوا وانضمت اليهم قبائل من اليمن ، ليمنعوا صاحبهم . ورجع الوفد خائباً .

وهنا يقف ابن زياد على حافة هوة خطر عظيم ، فلجأ إلى استعمال المادة التي اتخذها الأمويون سلاح دفاع في جميع حروبهم ؛ وهي : فَرِّقْ تَسُدْ ؛ والآن هو بحاجة لهذه الخطة ؛ فأثار الروح القبلية بين المضريين والأزد ، لما بينهم من خلافات ، ومنها كما يقال ان الأزد هم الذين تولوا

(١) الخوارزمي ج ٢ ص ٥٣ .

قتل مسلم بن عقيل ، واشترك منهم العدد الكبـــير في حرب الحسين ، وبهذا وجد ابن زياد طريقاً لزجّ المضريين في حرب الأزد .

وثارت الحرب بين القبيلتين ، واقتتلوا قتالاً شديداً ، وبلغ ذلك ابن زياد فارسل الى قواده يؤنبهم ، فارسل اليـــه عمرو بن الحجاج يخبره باجتماع الأزد من اليمانيين .

وبعث اليه شبث بن ربعي يقول له : أيها الأمير انـــك بعثتنا الى أُسود الآجام فلا تعجل .

واشتد القتال بين الأزد وبين المضريين حتى قتل جماعة من العرب ، فتفرق الأزد لما تكاثر جيش ابن زياد ، وبقي ابن عفيف وحده، فاقتحم الجيش داره وطوّقها .

وصاحت ابنته : يا أبتِ أتاك القوم .

فقال : لا عليك . ناوليني سيفي . فناولته السيف ، فجعل يذبُّ عن نفسه وهو يقول :

أنا ابن ذي الفضل عفيف الطاهر عفيف شيخي وأنا ابن عـــامر

كم دارع من جمعكم وحاسر[1]

وكانت بنته تشجعه وتقول : ليتني كنت رجلاً فأُقاتل بين يديك .

وضايقه القوم ، وكان يشد عليهم ويذب عن نفسه ويقول:

والله لو يكشف لي عن بصري ضاق عليكم موردي ومصدري

ووقفت ابنته تسانده وتقول : جاءك القوم من جهة اليمين ، جاءك

---

(١) الفتوح ٥/٢٣٢ .

القوم من جهة الشمال . وما زال يقاتل حتى تكاثروا فاستولوا عليه ، وأسروه ، وحاول بعض أفراد عشيرته تخليصه فما استطاعوا ذلك.

وسيق عبد الله الأزدي الى ابن زياد ، فلما أدخل عليه قال ابن زياد: الحمد لله الذي أخزاك .

فقال ابن عفيف: يا عدو الله بماذا أخزاني؟

قال ابن زياد : ما تقول في عثمان ؟

فقال : يا ابن مرجانة ما أنت وعثمان أحسن أم أساء ، أصلح أم أفسد . والله خلقه ويقضي بينهم بالعدل والحق ، ولكن سلني عنك وعن أبيك وعن يزيد وأبيه .

فقال ابن زياد : لا اسألنك عن شيء أو تذوق الموت.

قال ابن عفيف : الحمد لله رب العالمين كنت أسأل الله أن يرزقني الشهادة قبل أن تلدك أمك مرجانة ، وسألته أن يجعل الشهادة على يد ألعن خلق الله وأشرهم وأبغضهم اليه ، ولما ذهب بصري آيست من الشهادة ، أما الآن فالحمد لله الذي رزقنيها بعد اليأس منها وعرفني الاستجابة من قديم الزمان .

فقال عبيد الله : اضربوا عنقه (١) . ثم صلبه في السبخة (٢) .

وهكذا تكون نهاية هذا البطل الذي أعلن انتصاره للحق ، وقال

---

(١) الخوارزمي ج ٢ ص ٥٤ – ٥٥ .

(٢) سيأتي إن شاء الله بيان ذلك في الحلقة الثانية من هذا الكتاب .

كلمته . فهو أول من أطلق شرارة الثورة على الأمويين ، وأزال غشاوة الدعاية الكاذبة .

ومن أول يوم أحس ابن زياد بخيبة أمل وعدم النجاح العسكري ، وبدأ الضعف يدب في سلطانه ، بسبب الاستنكار العام ، فقد تلاقت الناس بالاستنكار والندم ، وأحسوا بالإثم الكبير لتركهم نصرة الحسين ، وبالأخص أولئك الذين كاتبوه ، وتقاعدوا عنه ، وكانوا يأملون أن يمتد الأمر مدة من الزمن يدركون فيه الحصول على ما طلبوا من مراسلة الحسين ، والكل لا يدري أن ينتهي الأمر بهذه السرعة ويقتل الحسين ويحدث ما يحدث .

فحصل هناك تمرد على السلطة ، ثم كانت مقابلات تحولت بعد مدة الى ثورات مسلحة ، وشعارها (يا لثارات الحسين) [1] .

وأياً كانت الأحوال فان ابن زياد سارع في ارسال أهل البيت الى الشام بعد ان سجنهم في دار بعيدة عن أي اتصال باي أحدٍ .

واراد ان يسلب استقرار تلك العوائل وهم في السجن اذ كتب اليهم كتاباً يقول فيه .

> اوصوا واعهدوا فاني انتظر البريد يوم كذا وكذا وراجع يوم كذا وكذا فاذا سمعتم التكبير فأيقنوا بالقتل ، وان لم تسمعوا تكبيراً فهو الأمان إن شاء الله [2] .

وجرت في الكوفة حوادث ، وحدثت هناك أُمور بعد قتل الحسين، وبقاء أهل البيت في الكوفة لا يسع المجال ذكرها هنا .

---

(١) سيأتي ان شاء الله بيان ذلك في الحلقة الثانية من هذا الكتاب .

(٢) الطبري ٦/ ٢٦٦

مع الركب الى الشام :

اختلفت الأقوال في تحديد اليوم الذي انفصل فيه ركب آل محمد من الكوفة الى الشام ، كما اقتضت سياسة الدولة فامـــر يزيد بذلك . كما اختلفت الأقوال في يوم ورودهم الى الكوفة . ومن هذا لا نعلم بالضبط مدة بقائهم في سجن ابن زياد .

وقد ذهب البعض الى القول بانهم لم يمكثوا أكثر من أُسبوع لان ابن زياد أحس بالفشل في سياسته، وجابـــه مصادمات عنيفة ، كما اشتدت عليه مطالبة القواد في جوائزهم التي وعدهم بها عند قتلهم للحسين .

وكانت أموال طائلة تعجز خزينة الكوفة عن تسديدها فقرر أن يرسل اولئك القوم الى يزيد ، ويقدمهم قاتـــل الحسين الذي ارتجز أمام ابن زياد بقوله :

املأ ركابي فضة أم ذهبا   اني قتلت السيد المحجبا

قتلت خير الناس اما وابا

كما انه وعد الآخرين الى حين ورود الأموال من خزينة الشام .

وعلى أي حال فالركب لم يطل مكثه في الكوفة ، لأنها أصبحت غير مستقرة فالنساء العربيات أقمن النياحة على الحسين وأنكرن على أزواجهن أفعالهم .

كما تقابلها النياحات على من فقد من جيش الكوفة وهم كثرة .

وسار ركب آل محمد وليس فيه من نساء الانصار الذين جاهدوا مع الحسين إذ تشفع كل بعيال من يتصل به . وبقيت عيال الرسول (ص)

وهم يقطعون الفيافي والقفار متجهين الى الشام .

ومن الامور المؤلمة ان الدعاية الاموية اتخذت خطة التمويه على الناس ، فأشاعوا هناك : أن جماعــة من الخوارج خرجوا على الأمير فقطعوا الطريق وقد انتصر عليهم الأمير يزيد ، فابادهم وسبى عيالهم ، وسيقدمون الشام .

فخرجت الجموع من نساء وأطفال ، وقــد وصل الركب الحزين وأوقفوه عند باب الساعات ، وأُقيم في محل أو خربة مدة من الوقت حتى يتم استعداد البلد لإظهار معالم الفرح وإقامة الزينة .

وازدحم الناس في الطريق ، وهم لا يعرفون عن حالتهم شيئاً إلا انهم خوارج ، لذلك قابلوهم بهذه الكلمة إذ أثرت الدعاية السياسية .

وأوضح موقف لذلك هو محاورة الرجــل الشامي مع الإمام زين العابدين (ع) عندما دنا الشيخ الشامي فاسمع الإمام كلاماً يدل على جهله .

فقال له الإمام زين العابدين بلطف : يا شيخ هل قرأت القرآن ؟

فقال . ما أنت والقرآن ؟!!

فقال الإمام : أسالك هل قرأت هذه الآية (قل لا أسالكم عليه أجراً إلاّ المودّة في القربى) فمن هم ؟

قال : هم آل محمد .

فقال الإمام (ع) : نحن والله هم .

وهنا يقف الشيخ موقف الحيرة، ويحدّ النظر في وجه الإمام ويقول: بالله عليك أنتم هم ؟

قال الإمام : والله نحن هم .

فاخذ الشيخ بالاعتذار من الإمام وأظهر الندم .

في مجلس يزيد:

توجه الركب نحو مجلس يزيد ، ذلك المجلس الذي ازدان بالأعـــلام الملوّنة ، واحتشد بالوفود المهنئة بالظفر ، وقد جلس يزيد والفرح ملأ اهابه ، لأنه منتصر كما يزعم، وقد انتهى كل شيء في طريق خلودالسلطة وبقائها لآل أبي سفيان ، كما يتصوّر .

ودخل ركب آل محمـد وقد سبقته الرؤوس ، ووضع رأس الحسين بين يديه ، وأُقيمت العـائلة على درج الجامع حيث يقـام السبي ، وجعل يزيدينظر اليهم ، وقد أخذته نشوة الفرح بأخذ الثار ، فانشأ يقول :

صبرنا وكان الصبر منا عزيمة　　واسيافنا يقطعن هاما ومعصما
نفلق هاماً من رجـــال أعزة　　علينا وهم كانوا أعق وأظلما[1]

واستمر يزيد في كبريائه إذ تصور خطأ بانه حقق الهدف ، ووقف على قمة النصر ، النهائي ، ولم يبق أمامه أي شيء .

كان المجلس تغمره موجة من التفكير، والموقف يتصفبالغموض والأمر يحتاج الى كشف الواقع واظهار ما خفي على الناس ، وليس إلا زينب والامام زين العابدين .

وكانت زينب تتوخى الظرف المناسب ، لكسب النصر في خوض المعركة في هذه المرحلة وهي تحقيق أهداف الثورة .

---

(١) مرآة الجنان ج ١ ص ١٣٥ .

وهنا يتقدم رجل شامي يطلب من يزيد أمراً وهو يظن انه هين، ومطلب سهل؛ لان يزيد سلطان، وهؤلاء اسارى يحكم فيهم ما يشاء فقال:

يا أمير هب لي هذه الجارية تخدمني في بيتي. وأشار الى احدى البنات الصغار ولا أستبعد ان يكون هذا الرجل ممن عرف حقيقة الأمر الذي خفي على اكثر الناس وهو بهذا الطلب يجعل يزيد في موقف حرج ومأزق ضيق وهو يحاول ان يكون طلبه مفتاحاً للكلام.

واتجه الناس بكل شعورهم نحو الشامي وهم في انتظار جواب الخليفة المنتصر والأمير الظافر. وبينما الناس في صمت وكلهم آذان صاغية لاستماع جواب الخليفة، واذا بكلمة الحق تدوي في ذلك المجلس، وصوت الاسلام يقرع أسماع الحاضرين.

كذبت والله ولعنت ما ذلك لك ولا له.

وهنا تغمر المجلس موجة من الاستغراب والتعجب، من هذه البطولة والاقدام ويتجهون بأبصارهم الى مقام السبايا، وإذا بها زينب الكبرى، بطلة كربلاء، انها تقف موقف الاعتزاز والكرامة، رغم كلما قابلها به يزيد واعوانه من ظلم.

وهنا يغضب يزيد من هذه المفاجأة الغريبة وهذه المقابلة التي حطت

من مقامه ، واستهانت بعظمته فلا بد أن يسترجع ما خسره في هـــذه اللحظات من كرامته فأجاب بقوله :

كذبت والله ، ان ذلك لي ولو شئت ان افعل لفعلت .

وكان يظن انه انتصر وضرب سلطانه على الموقف ، وإذا به يجــابه بالرد الذي جعله في حيرة وارتباك ، إذ جابهتـــه العقيلة بقولها :

لا والله ما جعل الله ذلك لك إلا أن تخرج عن ملتنا ، وتدين بغير ديننا. ويستولي الذهول على يزيد ويموج المجلس فقد بدت في الأفق أنوار الرسالة ، وظهرت معالم النبوة .

وحاول يزيد بكل جهده السيطرة على الموقف ، فتظـــاهر بالثبات والقوة وقال :

إنما خرج عن الدين أبوك وأخوك .

فأجابته العقيلة بما ضاعف المشكلة وقالت :

بدين الله ودين أبي اهتديت أنت وأبوك ، إن كنت مسلماً .

فماج المجلس من هذه المقابلة التي أزالت غشاوة التمويـــه ، ورفعت حجاب الدجل .

وفي هذه اللحظات دارت محاورات وأسئلة ، وقـــام يحيى بن الحكم وهو يقول لمروان :

أتضحك والمحمول رأس ابن أحمد   ويهتزّ بشراً والسبايا عقــائل

وفي هـذا المجـال ألقى الإمام زين العابدين خطبته البليغـة ، فعرّف نفسه للحاضرين ، وذكر فيها ما لا يحب يزيد أن يسمعه ، فأراد يزيد أن يغير اتجاه المجلس ، فاظهر تجبره وأعاد الى الأذهان عصر التطاحن بين الجاهلية والإسلام ، فأنشد أبيات ابن الزبعرى :

ليت أشياخي ببـــدر شهدوا   جزع الخزرج من وقع الأسل
لأهــلوا واستهلوا فرحــاً   ثم قــالوا يا يزيد لا تشل
قـد قتلنـا القرم من ساداتهم   وعدلناه ببدر فاعتـــدل
لعبت هاشم بالملك فــلا   خبر جاء ولا وحي نزل

وراح يردد الأبيات ، ليثير العصبية الجاهلية ، والأحقاد القبلية . وهنا لا بد من رده وإلزامه عند حده ، فقامت زينب ابنة علي فالقت ذلك الخطاب البليغ الذي عبرت فيه عن أعظم موقف بطولي ، أمام حاكم متسلط ، وسلطان جائر ، وهي تفرغ عن لسان أبيها أمير المؤمنين (ع) فقرعت الأسماع ، وأزالت حجب التمويه ، وفضحت تلك الدعــايات المغرضة ، وقلبت صفحة التاريخ ، فــارتبك يزيد ، واختل حبل استقامته ، فأخرس الحق منطقه ، فقالت :

الحمد لله رب العالمين ، وصلى الله على رسوله وآله أجمعين . صدق الله سبحانه حيث يقول : « ثم كان عاقبة الذين أساءوا السوأى أن كــذبوا بآيات الله وكانوا بها يستهزؤن » ... أظننت يا يزيد حيث أخذت علينا

أقطار الأرض وآفاق السماء ، فاصبحنا نساق كما تساق الاسارى ، أن بنا على الله هواناً ، وبك عليه كرامة ، وأن ذلــك لعظم خطرك عنده ، فشمخت بانفك ونظرت في عطفك جذلان مسروراً ، حين رأيت الدنيا لك مستوسقة والأمور متسقة ، وحين صفا لك ملكنا ، وسلطاننا ، فمهلا مهلا ، أنسيت قول الله تعالى ، « ولا يحسبن الذين كفروا انما نملي لهــم خير لأنفسهم انما نملي لهم ليزدادوا اثما ولهم عذاب مهين » .

أمن العدل يابن الطلقاء ، تخديرك حرائرك واماءك ، وسوقك بنات رسول الله سبايا ، قد هتكت ستورهن ، وابديت وجوههن تحدو بهن الأعداء من بلد الى بلد ، ويستشرفهن أهل المناهل والمعاقــل ويتصفح وجوههن القريب والبعيد ، والدني والشريف ليس معهن من حماتهن حمى ، ولا من رجالهن ولي ، وكيف يرتجى مراقبة من لفظ فوه أكباد الأزكياء ، ونبت لحمه من دماء الشهداء ، وكيف يستبطأ في بغضنا ـ أهل البيت ـ من نظر الينا بالشنف والشنآن والاحن والاضغان ثم تقول غير متاثم ولا مستعظم :

لأهلوا واستهلوا فرحا ثم قالوا يا يزيد لا تشل

الى آخر خطبتها إذ تقول : ولان جرّت عليّ الدواهي مخاطبتك ، فاني استصغر قدرك ، واستعظــم تقريعك لكن العيون عبرى ، والقلوب حرى ....

ثم قالت : فكد كيدك ، واسع سعيك ، وناصب جهدك ، فوالله لا تمحو ذكرنا ولا تميت وحينا .... الخ .

وهكذا ينتصر الحق على الباطل وهكذا تظهر اهداف الثورة، ويتضح للناس أسرار حمل النساء في هـذه المعركة ، التي خاضها الحسين وخطط منهجها ، وحدد أبعادها ، ودرس عوامـــل الأثر التي تخلفه عندمـا تكمل أدوار تنفيذها . ان ابنة علي كانت تحمل عبء رسالة الحسين ومتابعة أهدافه .

انها تقوم اعظم موقف يمثل البطولة الهاشمية ، والتضحية الاسلامية والاستهانة بالموت في سبيل العقيدة والكرامة ، إنها تسير على الخط الذي سار عليه ابو عبدالله من الاستهانة بيزيد وتوعية الناس لمحاربته .

لقد وقفت زينب وهي تنظر الى يزيد نظرة استخفاف واحتقار ، رغم انها اسيرة وتقف وسط مجلس عقد للتهنئة بنصره ، وهو سلطان طائش،ثمل بسكر الشباب ونشوة النصر ،وهو المتحلل من قيود الآداب ، والخارج على النظم الاجتماعيـــة ، وصرح بكلمة الكفر فيما أنشده من الشعر الذي حاول بانشاده اعادة ذكريات عهود الجاهلية في صراعها مع الاسلام .

لقد احتقرت شخصية يزيد، واستهانت بعظمته التي تظاهر فيها يوم خفت جموع المهنئين اليه بقتل الحسين ، وأُحيط قصره بكتائب الحرس، وزينت أبواب القصر بزينة الفرح وازدحم سواد النـــاس على بابه يظهرون ولائهم ويرفعون أصواتهم بالتهنئة له والعداء لهؤلاء السبايا الذي لم تكشف الدولة عن قومياتهم ، وأنسابهم والناس لم يعرفوا عنهم إلا

انهم خوارج خرجوا على الأمير ، أو انهم قطاع طريق حسب ما اذاعته أجهزة إعلان الدولة وفي خضم هذه الأوضاع وفي معترك الوقائع ،وحيرة الأفكار رفعت زينب صوتها بدعوة الحق ، لتزيل الغشاوة عن الأبصار، وتنير العقول ببليـغ بيانها عن قوة إيمان وثبات جنان .

وخاطبت يزيد وهو الظالم المتجبر بخطابها الذي ترك يزيد يتضاءل عن كبريائه وكأنه عبد أساء لسيده ، وهو يؤنبه على اخطائـــه فلا يجد جواباً .

وهكذا يهزم يزيد بباطله امام جولة الحق ، ويلجـــأ الى المكر والخداع والتمويه على الناس ، فيظهر البراءة والتراجع ، ويلعن عبيدالله ابن زياد ، وانه لم يأمره بذلك .

ويقال انه اعتذر من الإمام زين العابدين وخيره بين الاقامة عنده أو الرجوع الى المدينة فاختار الرجوع .

وتقدم إليه مروان بن الحكم فاشار عليه بارجاع أهل البيت الى المدينة بسرعة ، لخطر وجودهم في الشام ، فقد أفاقت الامة من رقدتها وعرف الناس الواقع، وتحدثوا بذلك ولمسوا ما كانوا يعتقدون بان هؤلاء الاسارى هم من الخوارج .

وعلى كل حال فلنترك حديث الشام وحوادثه ، وما جرى على أهل البيت فيه ومدة اقامتهم فيه ، ونعود مع ركب آل محمد الذي انفصل عن الشام متجهاً شطر مدينة الرسول .

ولا بد لنا من وقفة على مفترق الطريق بين الحجاز والعراق، لنتساءل: عن اتجاه الركب ، فهل استمر في سيره ؟ أم غير اتجاهه الى ناحية العراق ؟!

فقد ورد ان العقيلة زينب قالت للامام زين العابدين : يا بن أخي قل للدليل فليعرج بنا على أرض كربلاء . فامتثل الدليل أمرها .

وذلك غير بعيد لما تحمله زينب من آلام وآمال، وكانما القدر الحكيم أراد أن تكون ذكرى الأربعين أو رجوع الاسارى من الشام تستمر على مرور الزمن ، وتعاقب الأجيال ، دروساً وعبراً ، لعظمة التضحية ، والتفاني في نصرة الحق ، وكان ورود زينب في ذلك الوقت المحدد هو ما أراده القدر الحكيم لتقف زينب فوق منصة الطف الشاهقة لتلقي العظات وتذكي جذوة الحماس المتوقدة ، التي اذكاها الحسين في ثورته .(١)

---

(١) وبقيت الذكرى على ممر السنين ، وهي ترتفع بسموها على الزمان والمكان، ولم يعترض سيرها خمول أو إهمال ، وهي لا تزال والى يومنا هذا ، تزداد وفود المشتركين باقامة الذكرى ، من جميع الاقطار الإسلامية ، ويرتفع عدد المواكب في كل سنة من جميع محافظات العراق ، وحدثت مسيرات المشاة على الاقدام بكثرة ومن مسافات بعيدة بشكل يدل على عظمة الهدف، وسمو المبدأ .

في المدينة المنورة :

عاد ركب الحسين الى المدينة بعد غياب دام أكثر من ثمانية أشهر ، كلها محن وأحزان متواصلة فصار لدخوله رنة أسى ولوعة تملأ الأجواء ، وقد وصل نبأ الفاجعة الى المدينة بوسائل متعددة ، وكان اسرعها بايصال الخبر هو رسول ابن زياد الذي أرسله ليبشر عمرو بن سعيد الأشدق، بقتل الحسين (ع) :

قال عوانة بن الحكم : لما قتل الحسين (ع) وجيء برأسه الى ابن زياد دعا عبد الملك بن الحارث السلمي وقال :

انطلق حتى تقدم المدينة ، على عمرو بن سعيد بن العاص فتبشره بقتل الحسين، لايسبقك الخبر ، ولا تعتل ، فإن قامت بك راحلتك ، وإلا فاشترِ راحلة غيرها .

قال عبد الملك : فقدمت المدينة ، فلقيني رجل من قريش فقال : ما الخبر ؟

قلت : الخبر عند الأمير - وذهبت مثلاً .

فقال : انا لله وإنا اليه راجعون ؛ قتل الحسين بن علي .

قال عبد الملك : فدخلت على عمرو بن سعيد .

قال : ما وراءك ؟

قلت : ما سرّ الأمير ، قتل الحسين بن علي .

قال : نادِ بقتله . فناديت ، فلم أسمع والله واعية قط مثل واعية بني هاشم في الدور على الحسين ، فقال عمرو بن سعيد وضحك :

عَجَّتْ نساء بني زياد عَجَّةً كعجيج نسوتنا بيوم الأرنب

ثم قال : هذه واعية بواعية عثمان بن عفان . وصعد المنبر فأعلم الناس بقتله .

ولم يفصح التاريخ عما قاله من ألفاظ الشماتة ، وعبارات التهجم المعبرة عن فرحه وحقده ، فقد اسدل الستار على ذلك .

وعلى كل حال فالمدينة عندما وردها نبأ قدوم زين العابدين ، برزت الرجال والنساء والصبيان بصراخ وعويل ، وخرجت نساء بني هاشم ، وأُقيمت النياحة العامة ثلاثة أيام بلياليها ونساء بني هاشم وأهل المدينة مجتمعون للعزاء .. كما حدَّث بذلك الحسن بن الحسن (ع) .

ولم يكن ذلك الاجتماع يقتصر على شعائر الحزن ، ومجالس العزاء ، بل كان مجالس حديث عن تلك الأحداث المروعة ، والفجائع المؤلمة ،التي حلت بأهل البيت.

وكانت الحلقات في تلك الدار الفسيحة الأرجاء تعقد هنا وهناك ، وتجتمع النساء حول واحدة من العلويات فيستمعن لأحاديث الواقعة ، وما شاهده أهل البيت هناك ، فترتفع الصرخة ، ويحمل النساء لأزواجهنَّ تلك الأنباء المحزنة فتبعث روح الحماس ، وتتأجج شعلة الثورة وتتحين فرصة الانفجار .

زَينَبُ الكُبرىٰ

في خاتمة المطاف

وفي النهاية نقتصر على مواقف زينب الكبرى ، في خاتمة المطاف ، وآخر مراحل الجهاد المتواصل في حياتها ، فهي عندما دخلت المدينة ، واستقبلتها جموع المعزين ، اتجهت الى مسجد النبي (ص) ووقفت على باب المسجد وقالت :

يا جداه يا رسول الله أنا ناعية اليك ولدك (أخي) الحسين . وهـذه الكلمة هي جذوة حزن تتقد وشرارة حرب على الأمويين .وعندما دخلت الدار فلم تشغلها ذكريات الماضي ، ولم يغلب عليها الحزن عندما شاهدت خلو أمكنة أهلها ، ومحاريب العبادة التي كانت ترتفع منهـــا أصوات المناجاة وهي موحشة .

ومهما يكن للذكريات من ألم يحز في النفس ، ويؤثر على الجوارح ربما يؤول الى الجزع ولكنها عليها السلام تطفىء حرارة وجدها بالتصبرّ ، واجراء دمعة الحزن التي لا يمكنها حبسها .

أقامت في المدينة تواصل جهادها بعزم وتصميم على أداء رسالتهـــا وجمع حصيلة الثورة ، ونشر أهدافها ، فكانت تؤلب الناس على الطلب بثار الحسين (ع). وخشي عامل المدينة من وجودها في المدينة ،أن تفجّر ثورة في المدينة ومكة ، لأن ابن الزبير رفع شعار الطلب بثأر الحسين(ع) وهياج المدينة يدعم ثورتـه ضد يزيد ، لأن ابن الزبير أعلن خلع يزيـد ودعا الناس الى ذلك .

وكتب عامل المدينة الى يزيد يخبره بالأمر ويحذره من خطر دعوة زينب ، وجاء الأمر من يزيد بلزوم إخراجها ،ولكنها أعلنت أنهـــا لا تخرج حتى يراق دمها .

وقالت : قد علم الله ما صار الينا ، قتـل (يزيد) خيارنا ، وحملنا على الأقتاب ، فوالله لا خرجنا ، وإن أُهرقت دماؤنا

فقالت لها زينب بنت عقيل : يا بنت العم قد صدقنا الله وعده ، وأورثنا الأرض نتبوَّأ منها حيث نشاء ، فطيبي نفساً ، وقرّي عيناً، أتريدين بعد هذا هواناً ؟ إرحلي الى بلد آمن .

ثم اجتمع اليهـا نساء بـني هاشم وتلطفن معها في الكلام .

وهاجرت زينب هجرتهـــا الثانية ، وهي تشق طريقها بالعزم والتصميم على المضي في جهادها .

وهنا نقف على مفترق الطرق ، فنجد أقوالاً متضاربة حـول اتجاه ركب العقيلة الذي أُلزم بالخروج من المدينة ، لكن الاختيـــار ليس بيد السلطة ، ما عدا المنع من الإتجاه الى العراق والرجوع الى المدينة .

فهل وقع الإختيار على الشام أو التوجـه الى مصر ؟ وكانت خـاتمة المطاف هناك ، وتوفيت بمصر ودفنت في تربتها حيث مشهدها الآن .

أم انها أقامت بدمشق مع زوجها عبد الله بن جعفر في محل إقامته في الراوية لأن له أملاكاً هناك ، فوافتها المنية ، ودفنت في مشهدها المعروف ومزارها المشهور .

أو أنها اختارت الذهاب الى مصر مع بقية أهـل البيت كما ورد انها خرجت الى مصر ومعها فاطمة وسكينة بنات الحسين . وكان خروجها في سنة ٦١ .

وقد استقبلت استقبالاً مهيباً كما حدثت رقية بنت عقبة بن نافع الفهري قالت :

كنت ممن استقبل زينب بنت علي ، عندما قدمت مصر فتقدم إليهـا مسلمة بن مخلد ، وعبد الله بن الحارث ، وأبو عميرة المزني ، فعزاها مسلمة فبكي وبكى الحاضرون فقالت زينب : هذا ما وعد الله ورسوله ، وصدق المرسلون .

وذكر النسابة العبدلي أن دخول السيدة زينب كان أول شعبان سنة واحد وستين ، وأقامت بمصر وهي شاكية لانحراف صحتها الى سنة ٦٢ وتوفيت يوم الأحد ليلة الاثنين لاربعة عشر يوماً خلت من رجب للسنة المذكورة ودفنت بمحل سكناها .

* * *

ثم بعد مرور عام على وفاتها وفي نفس اليوم الذي توفيت فيه اجتمع أهل مصر وفيهم الفقهاء ، والقراء ، وغير ذلك وأقاموا لها موسماً عظيماً برسم الذكرى على ما جرت به العادة ، ومن ذلك الحين لم ينقطع هـذا الموسم الى وقتنا هذا من يوم وفاتها الى الآن والى ما شاء الله ، وهـذا

الموسم هو المعبر عنه بالمولد الزينبي ، يبدأ من أول شهر رجب من كل سنة ، وينتهي ليلة النصف منه وهي ليلة الختام، وتحيا هذه الليالي بتلاوة القرآن الحكيم والأذكار الشرعية ويكون لذلك مهرجان عظيم وتفد الناس من كل فج عميق الى زيارة ضريحها الشريف .

وكذلك تقصدها الناس للزيارة بكثرة لا سيما يوم الاحد وهي عادة قديمة ورثها الخلف عن السلف .

والتزم الامراء والقواد قبرها فكان كافور الاخشيدي يتعاهد زيارتها وكذلك أحمد بن طولون ، وكان الظافر الفاطمي يزورها ، وإذا أتى إلى مقامها الشريف يأتي حاسر الرأس، مترجلاً يتصدق عند قبرها، الخ[1] .

وبقي القبر يتعاهده الناس بالزيارة والهدايا ، وهو موضع احترام العامة والخاصة .

وقد نظمت الاشعار في تاريخ بنايات قبرها في مصر كما ألف العلماء في ترجمة السيدة زينب رسائل ولعل أقدمها رسالة السيد يحيى بن الحسن ـ المعروف بالعبدلي بن جعفر الحجة ابن الامير عبيـــد الله الأعرج ، ابن الحسين الأصغر ، ابن علي زين العابدين .

وهو أول من جمع الانساب بين دفتين ، ونشر هذه الرسالة الاستاذ حسن محمد قاسم في ضمن رسالته (السيدة زينب) وقدمها بكلمة .

قال في مقدمة الرسالة ص ٥ ـ ٦ :

---

(١) السيدة زينب ٥٨ ــ ٦٠ للاستاذ حسن محمد قاسم .

فلئن كان في النساء شهيرات فالسيدة زينب أولاهـن ، وإذا عُدّت الفضائل فضيلة فضيلة ، من وفـاء وسخاء ، وصدق وصفاء ، وشجاعـة واباء ، وعـلم وعبادة ، وعفة وزهادة ، فزينب أقوى مثال للفضيلة بكل مظاهرها .

ان اشتهار فضائل السيدة زينب ، والآثار المروية فيهـا وعنها في كتب التاريخ ليغني عن التوسع في ترجمتها الشريفة ، وبوجه إجمالي فهي ينبوع فضائل باقية الذكر (ولا عجب) ان عدت المثـل الأعلى لرمز الحق ، ومثال الفضيلة ، وشان الحق أن يستمر ، والفضيلة أن تشتهر ، وقد طبـع آل علي (ع) على الصدق حتى كأنهم لا يعرفون غيره،وفطروا على الحق فلا يتخطونه قيـد شعرة ، فهم مع الحق والحق معهم يدور حيثما داروا .

ولقد كانت حركة أخيها الحسين المظهر الأسمى للحق ، وكانت هي في هذه النهضة داعية للحق ، هاتفة باسمه ، ونور الحق لا يطفأ وروح الصدق لا تبيد .

ولقد كانت مواقفها بين أمراء الظلم أُمثولة الحق والعدل حيثما كانت مواقف الظلمة أُمثولة العسف والجور .

فكانت تجيب بكل ثبات وإقدام ، الأمر الذي لم يقم به أحـد من البشر ، فإنها في مجلس يزيد ، وقد أُحيط بهـا وهي في مـوقف رهيب ، ناداها منادي الحق فهتفت باسمه ، وأجابت تلبيته عندما شمخ يزيد بعطفه

وارتكس في مهاوي غروره ، وسوّل له شيطانه بانه المنتصر ، وانه لا شيء يقف أمامه ، ولا أحد يستطيع كشف سوء سريرته . اهـ .[1]

* * *

أما قبرها في دمشق ومزارها المشهور هناك فعليه المعوّل وإليه يذهب جماعة من العلماء ، وإليها تشد رحال المسلمين من البلدان النائية . وقد حصل خلاف بين المؤرخين : هل بمصر كما قدمنا أو بدمشق ، وقالوا : إن القبر المنسوب لزينب في دمشق انه قبر زينب الوسطى بنت علي بن أبي طالب ، وهي المكناة بأُم كلثوم .

قاله الهروي في الإشارات ، وابن الجوزي في المزارات الشامية ، والعز بن شداد في الأعلاق الخطيرة ، والصيادي في الروضة البهية ، في الكلام على مزارات الجهة الشرقية من دمشق : ومنها قرية يقال لها الراوية ، قبلي دمشق ، فيها قبر السيدة زينب المكناة بأُم كلثوم بنت علي ابن أبي طالب ... توفيت بغوطة دمشق عقب محنة أخيها الحسين ودفنت في هذه القرية .

---

(١) وقد ألف العلماء والكتاب في حياة العقيلة زينب كتباً ورسائل كالسخاوي والمؤلف ابن طولون . وللسيوطي رسالة وقد اختصرها في كتابه الحاوي وغيرهم .

ومن المعاصرين الاستاذ السيد عبد العزيز سيد الأهل والأُستاذ الخطيب السيد علي بن الحسين الهاشمي ، والاستاذ حسين الأديب وغيرهم . وان تاريخ حياتها حافل بالعظات والعبر .

وهذا لا يمنع من نسبة القبر المشهور لزينب الكبرى ، إذ في دمشق في الجهة الشرقية يوجد قبر مشيد ، يقصده الناس للزيارة ، وعليه قبة ، وهو منسوب لأُم كلثوم ابنة الإمام علي بن أبي طالب ، وتقابلها قبةوفيها ضريح ، وهي ملصقة بقبة السيدة أُم كلثوم ، وتنسب القبة والضريحالى سكينة بنت الحسين (ع) ، وهناك مزارات أُخرى لأهل البيت .

ولا يستبعد ذلك فإن يزيد أمر بإخراج أهل البيت من المدينـــة ، وإخلاء دارهم من الرجال والنساء ، وليس فيهـا من الرجال إلا الإمـام زين العابدين (ع) ، والحسن بن الحسن المثنى ، فخرج الحسن الى البادية . ويقال انهم سمحوا للإمام بالبقاء ، لانصرافه الى العبادة .

وهناك من يقول انه خرج الى البادية مع الأعراب ، والصحيح انه بقي في المدينة ليكون تحت مراقبة الدولة ، لأنه بقية أهل البيت عليهم السلام .

* * *

وهكذا ينتهي ركب آل محمد، بعد تلك الرحلة الشاقة ذات الفجائع والمآسي ، ولكن حصيلة ذاك الجهاد ، وحصاد ذلك البذر أن اصبحت الثورة شعلة تتاجج ونوراً يزيل الحجب التي ضربها أُولئك الدجالون في طريق دعوة الاصلاح .

لقد نجحت الثورة ، والى الأبد ستبقى وحليفها النجاح وكان نصيب أُولئك الذين تورطوا بانتحال الامرة على المسلمين ، وحاولوا القضاء على دعاته ، وحملة رسالته ، أن تفرق شملهم وخسرت صفقتهم .

وكان جميع الذين اشتركوا في قتل الحسين ، قد نالهم الذل والهوان ، وماتوا أسوأ ميتة ، فقد قتلوا وديست جيفهم بالأقدام ، بعد أن شردوا وأصبحوا مطاردين .

* * *

فابن زياد على قوته وتجبره ، ونفوذ سلطانه أصبح مشرداً ، فهو عندما عاد الى البصرة ، طلبه أهلها فاستجار بأحد الزعماء واخفاه ، ثم هرب ليلاً على حمار ، وقلبه يخفق خوفاً من الطلب ، حتى قتله الثوار ، الذين رفعوا شعار (يا لثارات الحسين) وبقيت جيفته للكلاب بعد أن سحقت بالأقدام .

وعمر بن سعد قتل على فراشه. وهكذا فقد شردوا واهينوا ، وهذا ما وعدهم به الحسين إذ قال :

«إِنِّي لَأَرْجُو اللهَ أَنْ يُكْرِمَنِي بِهَوَانِكُمْ».

ولقد لقي جميع من اشترك في قتل الحسين حتفهم على أبشع الصور ، وأشدها مذلة وهواناً ، وشردوا في البلاد ، وتتبعهم الثوار ، فقتلوهم أينما وجدوا حتى قتلوا منهم في يوم واحد مائتين وثمانين رجلاً ، ولم يفلت من زعمائهم أحد ، كعمر بن الحجاج ، وشبث بن ربعي ، وشمر بن ذي الجوشن وغيرهم .

كما ابتلي أكثرهم بعاهات وأمراض قضت عليهم بعد بلاء شديد وعذاب أليم .

أما يزيد فعاش تعساً بآلامه وآثامه ، فاستحق لعنــــة الله وغضب الأمة . وينهض بقية الصحابة من أبناء المهاجرين في وجهه ، فتقع مأساة الحرة ، وفجيعة المدينة ، بيد علوج الشرك من أنصاره وقادته ثم يتبعها بهدم الكعبة ، حتى ذهب الى عذاب الله وغضبه .

* * *

وبقي الحسين خالداً ، والدنيا كلها تلهج بذكره ، والثـــوار ضد حكام الجور يهتفون باسمه ، والمسلمون يقيمون ذكراه ، ويجددون أيام فاجعته ، منذ يوم قتله حتى يومنا هذا .

وأصبح يومه منار هدى ، وسبيل نجاة ، وثورته دروساً للأجيال ، وعبرة لدعاة الإصلاح ، وجذوة لا تخبـــو ، ومفخرة لا تنسى ، وتلك الجذوة المباركة لا تخبو .

ويموت يزيد بحسرته ، ويخلفه ابنه «معاوية الثاني» ، وهنا يوجه القـــدر الحكيم أذكى ضرباته ، فيقف ابن يزيد نفسه ، ليحمل شعلة الحسين ، ويُزيد الجذوة ضرامــاً ، حين يجمع الناس ليوم مشهود ، ثم يعلن فيهم ... أن جده وأباه ، اغتصبا الحق من أهله ، وأنـــه يبرأ الى الله مما جنت أيديهما ... وانـــه يربأ بنفسه وبتقواه من أن يجلس على العرش الملوث بالجريمة .

ثم يعلن عليهم اعتزاله منصبه ، ويعتكف
في بيته ، حتى يأتيه الموت ، فيلقى الله تقياً
نقياً سعيداً [1] .

* * *

وبه انقطعت سلسلة خلافة آل أبي سفيان ، وتحوّل الأمر الى ابن الحكم . ولقد خابت مساعي معاوية ، وباءت جهوده بالفشل ، إذ حاول حصر الخلافة في ذريته ، عندما أخذ البيعة لولده يزيد ، كما فشل يزيد في مسعاه للانتصار على الحسين (ع) وبذل كل إمكانياته ، واستعمل أقصى قدرته ، واتخذ جميع وسائل الانتصار في صراعه مع الحسين ، ذلك الصراع الموروث والتخاصم الحاد منذ عهد الجاهلية الأولى ، بين هاشم وأُمية ، ومحمد (ص) وأبي سفيان ، وعلي ومعاوية ، والحسين ويزيد ، وهو الممثل لنزعات بيته الأُموي ، وكانت آمالهم تحوم حوله في القضاء على خصومهم ، وفي كربلاء كان تقرير المصير ، ونهاية المعركة المستمرة ، وتصفية الحساب هناك .

وظنّ يزيد انه بلغ قمة النصر بقتله الحسين بن علي (ع) ولكنه أخطأ الهدف ، وانتصرت الثورة التي رفع لواءها الحسين فهدم عرش الأُمويين .

ووقع الأمر الذي لا بد منه ، وصوت زينب تردده أمواج الأثير

---

(١) خالد محمد خالد : أبناء الرسول في كربلاء ١٩٣ .

وهي تقول: «فَكِدْ كَيْدَكَ وَاسْعَ سَعْيَكَ وَنَاصِبْ جُهْدَكَ، فَوَاللهِ لَا تَمْحُو ذِكْرَنَا وَلَا تُمِيتَ وَحْيَنَا».

وإلى هنا تنتهي مسيرتنا مع الحسين في نهضته، ولم تنته رغبتنا من مواصلة الحديث، وسنلتقي مع القراء إن شاء الله في الحلقة الثانية (مع العلوي الثائر)، وهي دراسة عن ثورات العلويين التي هي امتداد لثورة الحسين، وشعلة من تلك الجذوة.

وبالله نستعين وهو وليّ التوفيق.